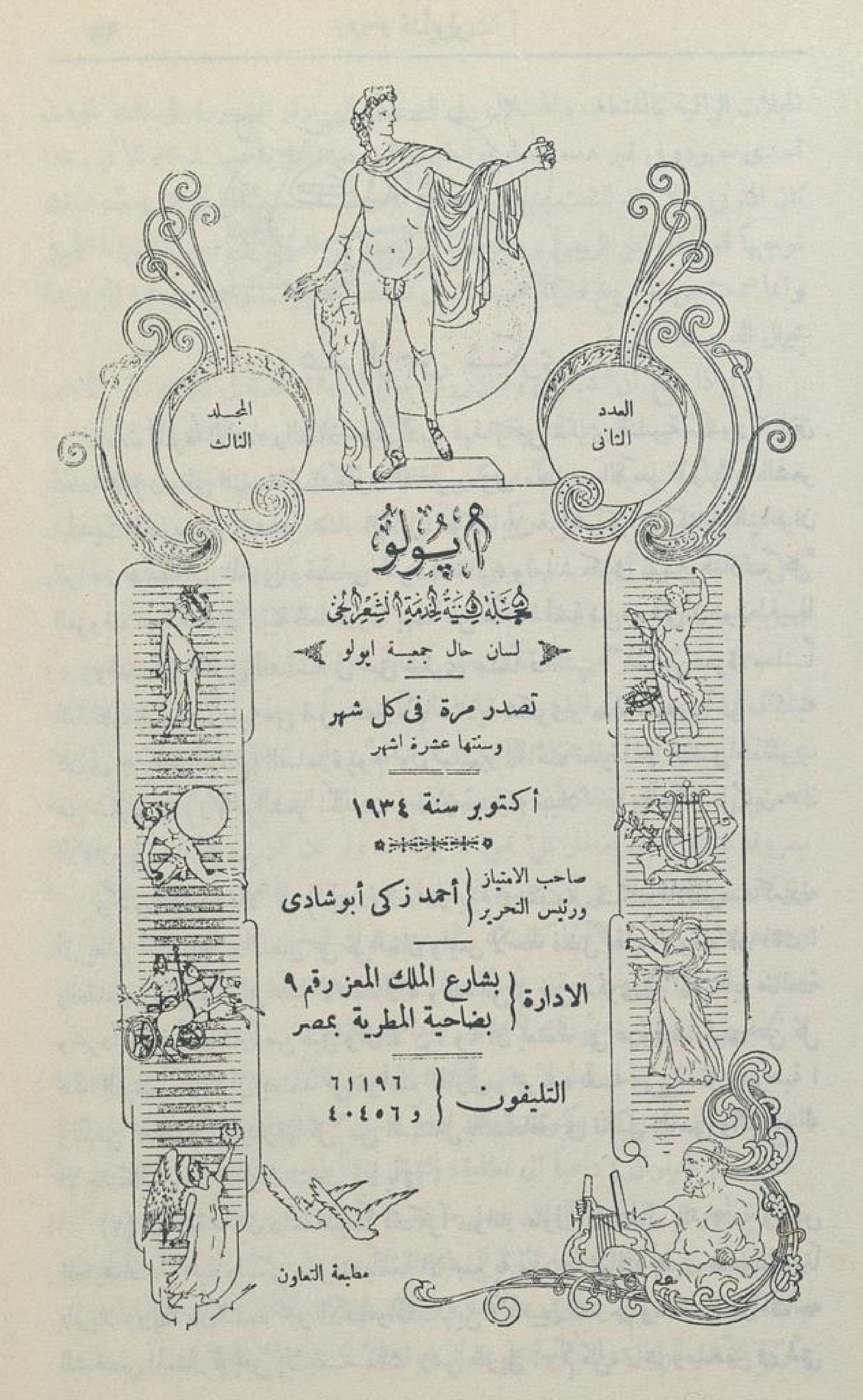


ابولو

مجلة فنية لخدمة الشعر العربي

لسان حال جمعية ابولو

تصدر مرة فى كل شهر

وسنتها عشرة اشهر

أكتوبر سنة ١٩٣٤

صاحب الامتياز ورئيس التحرير { أحمد زكى أبوشادى

الادارة { بشارع الملك المعز رقم ٩ بضاحية المطرية بمصر

التليفون { ٦١١٩٦ و ٤٠٤٥٦

مطبعة التعاون



عبد الرحمن شكرى

ثارت ثائرةُ الأدباء والنقاد حول أدب عبدالرحمن شكرى لمناسبة صدور كتابين أحدهما (رسائل النقد) للدكتور الشاعر رمزى مفتاح والآخر (رُوَّاد الشعر الحديث فى مصر) للشاعر مختار الوكيل . وكان بين من تحركوا للكتابة الشاعران ابراهيم عبدالقادر المازنى وعباس محمود العقاد ، وأما شكرى نفسه فعازفٌ كلَّ العزوف عن الحياة الأدبية العامة ولا يهمه من هذه الجلبة شىء ويأبى أن يتورط فيها!

وقد رأى المازنى أنه أساء فى حق شكرى سابقاً فكتب أكثر من مرة معلناً استنكاره لتحامله عليه من قبل، معترفاً بأستاذية شكرى وفضله عليه، وآخر ما كتبه كان فى جريدة (البلاغ) الصادرة يوم أول سبتمبر الفائت تعليقاً على الفصل المكتوب عن شكرى فى (رُوَّاد الشعر الحديث) فكان تصرفه نبيلاً اذا ما عزَّ النبلُ بين حملة الأقلام فى هذا الزمن .

وكتب العقاد مقالاً فى (الجهاد) الصادر يوم ٤ سبتمبر فكان المنتظر منه كعادته أن يعلن أنه صاحب الفضل على كل انسان وليس لأحد فضلٌ عليه ، وقد كان ذلك ! والعقاد موفَّق فى مثل هذا الادعاء لأنه وجد من كل من شكرى والمازنى محبة خالصة وتجرداً صوفياً وإيثاراً من قبل والى الآن ، وله أن يعتمد على عزوف شكرى عن كل هذا العبث ، كما له أن يعتمد على تواضع المازنى وتجريده نفسه من كل موهبة ! ولكن الحقيقة التى يعرفها كلٌّ من اشتغل بالصحافة فى الجيل الماضى وأتيح له الاحتكاك بهذا الثالوث تتجلى فيما يأتى :

(١) ان العقاد كان دائماً نشيطاً مفكراً ، وانه حاول الاشتغال بالترجمة وتخص تلخيصات بدائية ولكن معرفته باللغة الانجليزية ودرجة ثقافته بقيت محدودة زمناً طويلا . وإذا كان التفت نحو الأدباء والمفكرين الألمانيين كمترجم وملخص فانّ انتاجه الشخصى الممتاز لم يحن إلا بعد ذلك بزمن طويل . وكم من مترجم وملخص فى شتى

المجلات الراقية كالمقتطف والهلال وفى الصحف السيارة المشهورة فى ذلك الوقت أسدى جهوده فى غير هذه الدعاوى الطويلة العريضة التى يدعيها العقاد الآن . فاذا كان المازني مثلاً قد التفت معه الى ماكس نورداو فحسبُ المازنى أنه وجّه العقاد توجيهاً قوياً الى ابن الرومى ، ومع هذا فلم نسمع من العقاد أىّ اعتراف بهذا الجميل وانما سمعنا عن تواريخ قديمة عجيبة هى فى صف المعجزات وشبيهة بصلته المزعومة بجمال الدين الأفغاني !

(٢) اذا صحّ أنّ شكرى والمازنى قد سايرا العقاد فترة فى التفاته الى الأدب الفكرى الألمانى ، فقد باعداه واقتصرا على الأدب الخالص بعد ذلك ، وكأنّ تجاوبهما معه من هذه الناحية معدومٌ ، بعكس العقاد والمازنى اللذين انطبع شعرهما بطابع عبدالرحمن شكرى انطباعاً قوياً الى الآن . وهذا وحده ما يَعنى نقاد الشعر ، وعلى دلالته يبنون أحكامهم ، وعلى نتائجه الملموسة تكلموا عن شخصية شكرى وعن مدرسته الشعرية وزعامته الأدبية لتلك المدرسة الثلاثية زمناً طويلاً .

(٣) بغضّ النظر عن الحدّة فى بعض كتابة الدكتور رمزى مفتاح وعن تصويره الخيالى فى جانب من المواقف وهو ما لا نقرّه شخصياً ، وبغضّ النظر عن الاختلاف فى التفاسير التى أدلى بها مختار الوكيل ، لا شكّ فى أن كتابيهما من مأثور النقد المصرى ، فمحاولة العقاد أن ينتقصهما ليست مثالاً للترفّع ولكنها مثالٌ لعادة معروفة عنده : وهى إصغار كلّ مَنْ لا يؤلهه — ولو كان كبيراً ، والتنويه بمن يقدسه ولو كان من الصغار ! على أنّ جمهرة الأدباء لا يعنيهم الاّ المنطق والحقائق الأدبية وحدها ، وهم يطلبونها أينما كانت ، وهم يعرفون أن العقاد كان ولا يزال متجنياً على هذه الحقائق . وليس للعقاد حُسّاد ولا خصوم سوى قلمه الذى يزلّ به زلات لا تُحصى ، وهو لو تدبّر ذلك لأنصف نفسه وزملاءه .

(٤) بعد كل هذا وقبله لا يعنى الأدباء المخلصين للأدب وحده الا إنصاف ذلك الشاعر الممتاز الذى كان سكوت العقاد إن لم نقل ممالأته لتجنى المازنى عليه فى كتابيهما (الديوان) داعياً الى تطليقه الشعر بتاتاً وخسارة الأدب المصرىّ أىّ خسارةٍ لجهوده . فلعلّ العقاد يفعل ما فعله المازنى من تهدئة أعصاب شكرى وتضميد نفسه الجريحة ودفعه ثانية الى ميدان الأدب ، فهذا هو البرُّ والجدُّ الصحيح وأما ما عدا ذلك مِنْ دعاوى مغرضة وحكايات فلا قيمة لها أكثر من أنها من صُوَرِ الزّهو الباطل والأنانية على ما لا يستحقّ الزّهو والأنانية !



اسماعيل صبرى

بيانه وذكرى

كان أول ما قرأت من شعر صبرى أبيات وجدتهـا فى مجموعة بخط والدى دوّن فيها ما تلقّفه من شعر أدباء عصره فى رحلاته الى القاهرة وكان رحمـه الله يخالطهم ويشهد مجالسهم ، ومن هؤلاء الأدباء جماعة من الشعراء الذين جمـع العنصر التركى الـكريم بينهم وبين والدى ، وأشهرهم حسن حسنى الطويرانى ، وسليم رحمى . فاذا عاد من إحدى هذه الرحلات كان أول ما يتحفنى به من الهـدايا ما اشترى من الـكتب ، وما حمل من هذه الاشعار . وكنت يومئذ صبيـاً يولعنى والدى بالأدب ويجيزنى عليه ، وهذه هى الأبيات مسندة الى (اسماعيل بك صـبرى رئيس محكمة الاسكندرية) وهى فى تهنئة الخديو توفيق بعيـد الأضحى عام ١٣٠٦ من التأريخ الهجرى كما يؤخذ من ختامها :

إن هَيَّمَ الشعراءَ الثغرُ والريقُ ... وشاقهم كأسُ صهباءٍ وابريقُ
فلى بمدحك (توفيق العلى) كلفٌ ... لم يثننى عنـه هيفاءٌ ومعشوقُ
حققتَ آمالَ مصرٍ حيث كان لهـا ... الى عُـلاك مَـدى الأيامِ تحـديقُ
وشِدتَ فى مصر فخراً لا خفاء له ... فليس يُنـكره فى الـكونِ زنديقُ
فالعينُ ما طمحت إلا رأت أثراً ... له بتاجكَ ترصيعٌ وتنسيقُ
وهدَّ حُكمك ركنَ الظالمين ، وقد ... عدلتَ حتى أحبَّ العدلَ محقوقُ
مولاىَ ! وافاك بالاقبال عيدُ فِدًى ... بالبشرِ واليمنِ مصحوبٌ ومرفوقَ
فعش لأمثـاله طولَ المدى فرحاً ... واسـعد فانت بعين الله مرموقُ

واهنأ به فصفاء الوقتِ أرّخهُ : عيد الفداء ببشر جاء (توفيقُ)

وأول مالقيتُ اسماعيل صبرى الذى أصبح بعد ذلك من ملوك الشعر وأمراء البيان ، يوم جاءنى رسوله يدعونى لموافاته بدار الحكم فى مدينة دمنهور ، وحاكم الاقليم يومئذ محمد محمود باشا . فلما لقيت صبرى فى منصرفه من حضرة الحاكم وكنت على شوق دائم اليه ، صافحته لأول مرة وفى نفسى من التهيب والانقباض ما انطوى وشيكاً فى ذلك البشر المتدفق الذى بدأنى به ، وما انقضت التحية حتى أخذ بذراعى يدسّه تحت إبطه ويقول : ويحك يا محرم ، ماذا فعلت بالرجل ؟ ! انه لشديد الحنق عليك ، لقد روضته فما ازداد الا شراسة وغلظة !

كان بينى وبين محمد محمود باشا أمر لم يأخذ فيه بالحزم ولا أجراه على نظر أو روية ، وكان حوله من مشيرى السوء فئة أعانته على الشطط والتسرع ، وجاءت جولة العباس أمير مصر فى اقليم البحيرة قبل رحلته التى انقضى بها عهده فى الحكم والامارة فبعث المدير المتحرق الصدر الى حافظ ابراهيم ببعض هؤلاء المشيرين يسألونه أن ينظم تحيةً للأمير تلقى بين يديه فى دار المدرسة الصناعية بدمنهور . فقال لهم : وأين أنتم من محرم ؟ قالوا : انا معه على جفاء وفرقة ، فقال : ارجعوا الى صاحبكم فنبئوه انه قد ركب أمراً عظيماً ، وإنى ابراء منكم حتى يرضى — وعلمتها من حافظ فشكرته وأحمدته أن يكون عند رجائهم فيه ، فنظم لهم قصيدة عصماء قال فى مطلعها :

أشرق عباس على شعبه كأنه المأمون فى ركبه

ونظمت أنا تحيتى للأمير ثم بعثت بها الى جريدة (المؤيد) ، فظهرت فيها وركب الأمير يودع دمنهور ، ولم تظهر قصيدة حافظ الا بعد ذلك بيومين ، ومطلع قصيدتى :

أوَ كلما سكن المشوقُ فأقصرا هاجته أسرابُ المها فتذكرا ؟

ومنها فى الغزل وقد علمت أن ألسنة الوشاة تناولتنى لدى الأمير فزعموا أني فى عقيدتى الوطنية على انحراف :

مشت النمائمُ بيننا فعرفتُها وعرفتُ مِن لحظاتِ عينك ما جرى

ومنها ، والخطاب للأمير :

صدقُ الولاءِ أمانةٌ لكَ فى دمى يأبى لها الايمانُ أن تتغيرا

أنا مِن طبوركَ ، إذ دعوتُ مغرّداً | عاد الجديبُ المحلُ روضاً أنضرا
(النّيلُ) يشهدُ أنني لم آلهُ | برّاً ، ولستُ بصادقٍ إن أنكرا
لستُ الذى يرضى العقوقَ سجيّةً | ويرى التقلّبَ فى المذاهب متجرا
لو كنتُ طالبَ حاجةٍ لرأيتنى | أسعى اليها فى ذراكَ مشمرا
ولو اننى ممن يتوق الى الغنى | لوجدته بنَدَى يديكَ ميسّرا
ما فى الحياة على تعاظمِ شأنها | ما يَستخفُّ العاقلَ المتبصّرا

علم اسماعيل صبرى من الصديق حافظ ما كان من أمرى مع محمد محمود باشا فوفد الى دمنهور يؤدّى ما فرضه على نفسه من حقّ السفارة بين أديب عرف للأدب قيمته فصانه عن مجال الملق ومعرض الدهان ، وبين حاكم اقليم يعتز بمنصبه وبيته ويرى لنفسه أن يكون السيد النافذ الأمر فى جميع الأمور ، ولم أكن على علم من قبل بأمر هذه السفارة التى لم أكن لأشير بها لو أننى خوطبت فيها ، ولكنها حمية حافظ ، ومروءة صبرى ، رحمهما الله ، وقضى عنى حقهما العظيم نعيماً وطيباً .

قال لى صبرى وهو يصف شراسة محمد محمود باشا : دعه عنك فقد أصبح أمرك بيد الأمير ، وانك عنده لبالمحلّ الذى تريد ، وقد قرأت عليه قصيدتك فأعجب بها وسترى ! قلت له : دع عنك الحاكم والأمير ، وقل لى متى يطلع علينا الرئيس بصبرية جديدة ؟ فتأوّه وقال : لقد كبرت وضعفت نفسى ، وانما الشعر أخو القوّة وصاحب الشباب ، قلت له فما بال :

لو أنّ أطلالَ المنازلِ تنطقُ | ما ارتدّ حرّان الجوانح شيقُ ؟

انها وحقك لكما يقول أبو تمام :

قد أوتيت من كل شئ نعمة | وَدَداً ، وحُسناً فى الصبا مغموسا

فابتسم رحمه الله ، ثم ذهب القطار فودعته ، وكان هذا أول عهدى به وآخره .

صلتى الشعرية بصبرى

لم يجر بينى وبين صبرى قبل هذا الحادث ولا بعده شىء من المطارحات الشعرية بل ولا الكتب أو الرسائل ، غير أنه شاع بعد هذا اللقاء أنه أصيب برعاف شديد فقلت فيه ، وإخال أنى أذعتها فى احدى الصحف :

أشفقتُ من نبأ الرئيس ، وأشفقتْ دُوَلُ القريضِ ، فصيحُها والأعجمُ
سالَ الدمُ المسفوحُ منه معانياً سالتْ لروعتها النفوسُ الحُوَّمُ
ما كنتُ أعلمُ ، والحياةُ تجاربٌ أنَّ البدائعَ مِنْ معانيها الدمُ
رُعِفَ اليراعُ ، وقد جرى برعافهِ نبأٌ تذوبُ له الصحائفُ مؤلمُ
هاتاكَ ربُّكَ ، إنَّ مِنْ آياتهِ هذا الذى يُوحى اليك فتنظمُ
سُؤْلٌ أمدُّ بهِ اليدين ، ودعوةٌ نطقَ الضميرُ بها ، فترجها الفمُ
للقوم مِنْ غُفْلِ القوافى ما ترى ولكَ المشوفُ مِنَ البيانِ المُعْلَمُ
إنَّ الصحائفَ ما تزالُ مَرُوعةٌ حتى يصافحها الرئيسُ الأعظمُ

وعزّى صبرى صديقى الشاعر الأديب ولىّ الدين يكن رحمه الله فى وفاة والدته بأبيات قال فيها :

إنى أُعزّيكَ وأبكى معكْ

فقلتُ فى تعزيتى لهذا الصديق الكريم ، ولا أعلم ما ذا كان موقعها فى نفس الرئيس :

لقد وجدت نفسى لوجدِ (محمدٍ) أسًى جللاً ، واستشعرتْ أسفاً جمًّا
أخى ، والعوادى ما تزالُ مُغيرةٌ على كل حُرٍّ لا يُطيع لها حُكما
أُعيذُكَ أن تلقَى الخطوبَ مُرَوَّعاً وأنتَ الذى رَوَّعتَ أبطالها قِدْما
رَميتَ صفوفَ الحادثاتِ بمثلها وأىُّ فتًى يَرْمى الصفوفَ ، ولا يُرْمَى ؟
يُعزّيك شيخُ العبقريين باكياً وأبلغُ ما عزّاكَ ما جاوزَ الفَهْما

وسيَّرتُ الى الصديق حافظ قصيدة أطارحه فيها وهو معتقل بدار الكتب مطلعها :

رُوَيْدَ الهوى يا ليلَ ، لو يقنعُ الهوى بما نالَ من دمعى ، وما نلتِ من دَمى

ومنها فى ذكر الرئيس :

إذا جئتَ شيخَ العبقريين زائراً فخذْ لقريضى الإذنَ قبل التهجُّمِ

وإنْ أنتَ شارفْتَ السُّتورَ مُنيفةً فسبِّحْ ، وقبِّلْ ، ثم حَىِّ ، وسلِّمِ
وصِفْ من بنات الشوق كلَّ شجيّةٍ ترنُّ رنينَ الطائرِ المترنِّمِ
تطلّعُ من حول الفؤاد ، وترتقى إلى العين مِنْ حرِّ الغليلِ بسلّمِ
وتنساب تلقى كلَّ ركبٍ ، وما بها سوى أن ترى ركب (الرئيس المعظَّم)
إذا هجمتْ ذكرى صديقٍ لديكما فذودوا عن التهجاع ذكرى (مُحرَّم)

ولى فى الرئيس صبرى مرثية بقيت مطويةً الى اليوم لسرٍّ لم أكن أعلمه ، فلما أهاب بى صديقى الشاعر الهائم ، شاعر الحب والجمال الدكتور زكى أبوشادى ، أن أكتب كلمتى هذه عنه علمت ان الأيام قد ادّخرتها لتذاع فى ختام هذه الكلمة وستأتى فى مكانها .

شعر صبرى

لم يكن شعر صبرى أوّلَ عهده بالأدب يبشر بشاعر مقتدر يُحدث أثراً يذكر فى عالم الشعر ويوقع باسمه فى سجل الخلود وجريدة الذكر ، وقد جئناك بمثال من شعره فى ذلك العهد الذى كان كلّ شاعر فيه خيراً منه ، وقد مرّ بك ذكر سليم رحمى فأنا أذكر لك بعض ما دُوِّن له فى تلك المجموعة الخطية التى نقلتُ عنها ذلك المثال السيء لتعلم أن الرئيس صبرى باشا شاعر آخر غير اسماعيل صبرى بك رئيس محكمة الاسكندرية . قال سليم رحمى من قصيدة يمدح بها الخديو توفيق ويهنئه بالعيد :

فى خِبرةِ الدهر ما يُغنى عن الخبرِ وفى الحوادثِ تذكارٌ لمدّكرِ
والناسُ كالنَّبتِ منهُ ما له ثمرٌ بغير شوكٍ ، وذو شوكٍ بلا ثمرِ
والمرءُ مهما سمت فى الناس رتبته فليس الاّ بما يبديهِ من أثرِ
ما شئتَ فاعمل ، فمهما كنتَ مُستتراً تُعلمْ سجاياكَ بين البدوِ والحضرِ

ومنها :

وارحمتا لعلومٍ ما بلغتُ بها نفعاً ، وقد ضاع منّى أنفسُ العمرِ
هذى العلومُ التى لم تُجْننى ثمراً ما لى أذودُ الردى عن عُودِها النضرِ ؟

وأىُّ فائدةٍ فى النّحو أطلبها إن كان لم (يرتفع) بين الورى (خبرى)؟
وما النتيجةُ من وزن العَروض إذا لم يحوِ مَعنایَ بَيْتٌ غيرُ منكسر؟

ومنها:

أستغفرُ الله إنى فى حمى مَلكٍ لن يستطيع زمانى عنده ضررى
عزيزُ مصر الذى سادت مآثره فى الخافقين مسيرَ الشمس والقمرِ
إن جال بالفكر قلت الشهبُ ثاقبةٌ أو قال ، قلت خضمٌ جاء بالدُّررِ

وقال فى الختام:

عيدٌ بساحتكَ العلياء حلَّ فان تأمره بالعودِ وافانا على قدرِ
ماذا يقول (سليمٌ) فى المديح وقد علوتَ عن كلِّ منظومٍ ومنتثرِ

لا أقول إن هذا شعرٌ ، ولكنى أقول إنه أشبهُ بالشعر وأقرب اليه مما كان يقول صبرى فى ذلك العهد ، وصبرى منذ القديم شاعر مقلّ ، فهو لا يستطيع المطوّلات ولا يكاد يجيدها ، وقد نضجت شاعريته فأبدع فى مواضع كثيرة ، ومواطن شتى ، ولكنه بقىَ الشاعر المحدود ، والفنان الذى يأخذ من الفنّ ما يعجبه ، ويأبى أن يعطيه ما يحبه هو ويرضاه .

ينظم صبرى فى بعض الأغراض العامة فيتنكر لك فى كثير من شعره ، ثم يفاجئك على يأس باللمحة الفنية الرائعة فتعرفه ، وتحسّ أن نفساً جديدة حارة تشمل نواحيك وتشعل جوانبك : ذلك أن صبرى لم يوهب قوة التحكم فى هذه الأغراض أو هو لم يرض نفسه عليها منذ النشأة الأولى ، فهى غير مستقرة الصور عنده ، ولا متمكنة الاصول والأسباب من شاعريته وطبعه . هو شاعر يهزّه الغرض النفسى فيقبل عليه ، ويشوقه المعنى البديع بعينه فيطلبه فى مكانه من الشعر الطليق ، ويستكثر من الشباك والحبائل يبثها حوله ، ثم يتلطف فى اجتذابه اليها ، فتراه وقد وقع فى يده قنيصاً غير موقوذ ولا جريح ، وهو إذ يعمد الى هذا تراه فى قلق فكرى دائم ، واضطراب فنى مستمر ، تراه متنافراً الى أقصى حدود التنافر فى القطعة الواحدة من شعره ، فهو يعطيك من مجموع هذه القطعة صورة آلية جافة ، تتصايح حولها وبين ثناياها صور أخرى مضطهدة أو ملغاة لغير ما سبب سوى انه لا يريدها وانك حين تظلم الفن والذوق والعاطفة لتظفر بمعنى بديع أو صورة حسنة تغرم بها

وتحرص فى نفسك عليها الجدير أن تعرف مكانك من ذوى النصفة وأولى المعدلة ، وتتبين كم بينك وبينهم من آماد طويلة ومسافات واسعة .

من مطولات صبرى قصيدة (فرعون وقومه) وقصيدة فى رثاء أمين فكرى باشا ، وأخرى فى (مذنب هالى) وقصيدة فى تتويج السلطان حسين ، وقصيدته المشهورة (لو أن أطلال المنازل تنطق) وانا لبادئون بقصيدة فرعون وقومه ، قال :

لا القوم قومى ، ولا الأعوان أعوانى ... اذا ونى يومَ تحصيل العلا وانِ
ولستُ إنْ لم تؤيدنى فراعنة ... منكم بفرعون عالى العرش والشانِ
لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملاً ... فماؤه العذبُ لم يُخلق لكسلانِ
رِدُوا المجرّة كدّاً دون مَورده ... أو فاطلبوا غيره رياً لظمآنِ
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكمو ... لا تتركوا بعدكم فخراً لانسانِ
أمرتكم فأطيعوا أمرَ ربكمو ... لا يثنِ مستمعاً عن طاعةٍ ثانِ
فالملك أمرٌ وطاعاتٌ تسابقه ... جنباً لجنبٍ الى غايات احسانِ
لا تتركوا مستحيلاً فى استحالته ... حتى يميط لكم عن وجه إمكانِ

يسوق صبرى هذه الابيات على لسان فرعون الى قومه يستحثهم بها على بناء الأهرام واقامة الآثار العظيمة التى نشاهد اليوم بقاياها أو نقرأ أخبارها ، وهى كما ترى من الشعر القصصى المطلق أى الذى لا يرجع الى أصل معروف . ولا يتقيد فيه الشاعر بغرض خاص أو صورة بعينها ، ومع هذا فانت لا تجد أثراً لعبقرية صبرى فى هذه الأبيات بل أنت تراه شاعراً متواضعاً يتناول أغراضه من أقرب مكان ، ويسوق شعره فى غير ما تأنق ولا افتنان ، وانك لتراه الى ذلك قليل التحفظ ، بعيداً عن الاحتراز . وهذا قوله (تحصيل العلا) أتجد فيه تلك الروعة التى تحب أن تراها فى شعر أمثاله من المبرزين ؟ ان كلمة تحصيل لا عهد لها بهذا النوع من الشعر ، وهى وإن كانت سليمة من جهة اللغة ، فانّ للشعر لغة خاصّة ، ولو أنصف صبرى لترك الكلمة لكتّاب الدواوين وعمالها من جماعة الجباة والمحصّلين ، ولأبقاها شركة بينهم وبين طلبة العلم وتلاميذ المدارس ، فما هو إلاّ تحصيل المال أو العلم ، ومتى غلب الاستعمال على كلمة تغير حكمها أو كاد يكون كذلك . ولشاعر قديم فى الباب الثانى :

أكرموا العلم وصونوا أهله عن جهولٍ حاد عن تبجيلهِ
انما يعرف قدرَ العلم مَن سهرتْ عيناه في تحصيلهِ

حُصّل الشيء لغة جُمع ومُيّز ، واليك أمثلة من أشعار المتقدمين تبين لك كيف ، وفي أيّ الأغراض ، كانوا يستعملون هذه الكلمة : قال البحترى فى المعتزّ بالله :

إذا حُصّلت عُليا قريشٍ تناصرت مآثره فى فخرهم ومناقبه

وقال أبو تمّام :

لقُدِدْتُ مِن شيمٍ كأنّ سيورها يُقددنَ من شيم السحاب المرزمِ
لو قلتُ حُصّلَ كلها فى حاتمٍ أو بعضُها ، لدعيتُ دافع مَغرمٍ

وقال الأبيوردى :

وإذا مَعدٌّ حُصّلتْ أنسابُها فهمُ الذّرى والجوهر المتخيَّرُ

ليس فى هذه الأمثلة شيء من تلك الصورة النافرة التى وقعت فى شعر صبرى ، وانك حين تنتقل معى الى البيت الثانى من قصيدته لترى أنه لم يقل شيئاً ، فان العامة من الناس ليعرفون أن الملوك بالشعوب ، فليس لواحد منهم فى ذاته حول ولا طول ، وهل قال صبرى على لسان فرعون الا ما قال ذو القرنين فى قصة بناء السدّ (فأعينونى بقوّة) ؟ وما ذا ترك الشاعر لفرعون بعد قوله فى هذا البيت — إن لم تؤيد فراعنة منكم — ؟ لقد تمّ التماثل بهذا الوصف بين فرعون وقومه ، أو بينه وبين رعاياه ، وما كان فرعون ليقول مثل هذا ، فأما قول الشاعر فى البيت الثالث إن ماء النيل لم يُخلق لكسلان ، فوصفٌ عامّ لا معنى لأن يقصر على النيل أو على سواه ، وهل فى هذا الكون من شيء صغيراً كان أو كبيراً إلاّ وقد خُلق لذوى الهمّة والمقدرة من هؤلاء العالمين ؟

يقول صبرى فى البيت الرابع على لسان فرعون لقومه : إن كنتم من الكسالى العاجزين فدعوا ماء النيل لا تقربوه ، وهلمّوا فاصعدوا الى المجرّة تتخذونها مورداً لكم ، أو اطلبوا لكم مورداً آخر سواه . هذا ما يقوله صبرى فى البيت الرابع فهل ترى هذا ممّا يستقيم فى العقول ، أو يتألف حتى فى موضع التباين من النفوس والطباع ؟

أما والله لو قالها شاعر آخر غير صبرى لحلفنا صادقين أنه يجهل أن مكان المجرّة في السماء ، وهل فى المجرّة ماء ، أم كان فرعون من الشعراء ؟! قال فى البيت الخامس :

وابنوا كما بنت الأجيالُ قبلكمو لا تتركوا بعدكم فخراً لإنسانِ

الشطر الأول من قول الشاعر

نبنى كما كانت أوائلنـــا تبنى ، ونفعل مثل ما فعلوا

والثانى من قول الشريف الرضى :

مِن معشر أخذوا الفضلى فما تركوا منهـــا لمن يطلب العلياء مُترَّكا

وللشريف فى هذا المعنى :

لهـذه كان الزمان يَنتظرْ لم يَبقَ مِن بعدكَ المجدِ وطرْ

وقال صبرى :

أمرتـكم فأطيعوا أمرَ ربّكمو لا يـثنِ مستمعاً عن طاعةٍ ثانِ

بين هذا البيت والبيت الثانى تناقض بيِّن وتخاذل معيب ، فهناك يقول فرعون لقومه إنه ليس بفرعون العظيم السلطان ، العالى العرش والشأن ، إن لم يطيعـوه ويؤيدوه ، وهو يقول هنا ، أمرتـكم فأطيعوا . . . وليس هـذا فحسب ، انه ليقول : فأطيعوا أمر ربكم ، ثم يحذرهم بعنف ، ويتوعدهم فى صلف وكبرياء (لا يثن مستمعاً عن طاعة ثانِ) ! ان هذا لفرعون آخر غير ذلك ، بل انّ صبرى عن هذه الأبيات لغائب ، قال :

فالملكُ أمرٌ وطاعاتٌ تُسابقهُ جنباً لجنبٍ إلى غاياتِ إحسانِ

لم يقل شيئاً ، فهذا هو نظام الملك منذ كان الملوك وكان الناس ، وهذا أبو تمّام فانظر ما ذا يقول فى الواثق بالله :

تُدعى بطاعتك الوحوشُ فترعوى والاسدُ فى عِرّيسها فتدينُ

فأمّا قوله فى البيت الأخير ، لا تتركوا مستحيلا إلى آخره ، فمن الصور الضخمة فى ذاتها ، ولـكنه لا شيء من جهة الفنّ ، ومن آثار عبقريته فى هـذه القصيدة قوله :

مقالةٌ قد هوتْ مِن عرش قائلها على مناكبِ أبطالٍ وشجعانِ

غير أنك إذا نظرت الى هذا البيت على حدة، ولم يكن لك علم بالغرض الذى نظم فيه، كان لك منه صورة أخرى، فأنت حينئذٍ لا تشك فى أن هذه المقالة كانت حضاً على الحرب والقتال، وليست (المناكب) هنا بمانعة. فهى كما تحمل الحجارة للبناء تحمل السيوف الى حومة النزول وساحة الهيجاء، قال:

مادت لها الأرضُ من ذعرٍ ودان لها ما فى المقطم من صخرٍ وصوّانِ

لو غيرُ فرعونَ ألقاها على ملأٍ فى غير مصر لعُدَّت حُلمَ يقظانِ

لكنَّ فرعونَ إن نادى بها جبلاً لبَّتْ حجارتُهُ فى قبضةِ البانى

فى هذه الأبيات قوّة الشعر، وبراعة الشاعر، ولكن قوله (حلم يقظان) فى البيت الثانى مما يتمشى عليه حكم النقد، وإن خيل اليك أنه توسعة فى اللغة، انها لصورة شاذة تحاول أن تعطيك معنى الأمانى المستحيلة ووصفها فتفضح نفسها، وتريك من ذاتها لوناً عجباً من ألوان المحال، وفى هذه الصورة شىء آخر، هو أنّ الأحلام على إطلاقها ليست من نوع هذه الأمانى الكاذبة، فقد ورد فى الأثر ان الرؤيا الصالحة جزءٌ من الوحى، وذلك مما أثبته العلامة ابن خلدون فى مقدمته وعرفه الناس من أمر هذه الأحلام غناء، وهذا شيخ المعرّة يقول:

إلى اللهِ أشكو أننى كلّ ليلةٍ إذا نمْتُ، لم أعدم خواطرَ أوهامِ

فان كان شرّاً، فهو لا بدّ واقعٌ وإن كان خيراً، فهو أضغاثُ أحلامِ

ودع قوله (خواطر أوهام) فتلك سجية، وهذا وأبو تمام على ما تعلم من شأنه وعلى أنه جعل للملام ماءً فقال:

لا تَسقنى ماءَ الملامِ، فاننى صَبٌّ قد استعذبتُ ماءَ بكائى

لم يجترىء على الأدب فيقول (حلم يقظان) وهو يذكر طلوع الشمس والليل راغم، قال:

أما إنهُ لولا الخليطُ المودّعُ ورَبعٌ خلا منهُ مَصيفٌ ومَربعُ

لرُدَّتْ على أعقابها أريحيَّةٌ منَ الشّوق، وَاديها منَ الدَّمع مترَعُ

لحِقنا بأخراهم، وقد حوَّمَ الهوى قلوباً عهدنا طيرها وهيَ وُقَّعُ

فرُدَّتْ علينا الشمس، والليلُ راغمٌ بشمسٍ لهمْ منْ جانبِ الخدرِ تطلعُ

نضاضوءها صِبْغَ الدجنةِ، وانطوى لبهجتها ثوبُ الظلام ِ المجزّعُ

فو الله ِ ما أدرى ، أأحلامُ نائم ٍ ألمّتْ بنا، أم كان فى الركب (يوشعُ)؟

وصدق أبو تمام إذ يقول فى غير هذه القصيدة (وأخو السكرى لو لم ينم لم يحلم) وليس يصحّ الاحتجاج بقوله :

أيقظتَ هاجعهم ، وهل يغنيهم سَهرُ النواظر ، والعقولُ نيامُ ؟

وبعد ، فقد أخذ صبرى هذه الصورة من قول أبى جعفر الأعمى ، قال :

كم مقلةٍ ذهبتْ فى الغىّ مذهبَها بنظرةٍ هى شأنٌ ، أوْ لها شانُ

رَهن ٍ بأضغاثِ أحلام ٍ، إذا هجعتْ وربما حلمتْ ، والمرء يقظانُ

أما محصل المعنى فى البيت الأول والثالث ، فينطوى فى قول المعرّى :

وأقسمُ لو غضبْتَ على ثبير ٍ لأزمعَ عَنْ محلتِهِ ارتحالا

قال شاعرنا :

وآزرته جماهيرٌ تسيلُ بها بطاحُ وادٍ بماضى القوم ملآن ِ

صرف جماهير للضرورة ، وأخذ من قول الأول (وسالت بأعناق المطى الاباطح) وقال :

ويُشبهون إذا طاروا إلى عمل جنّاً تطيرُ بأمر من سليمان ِ

برّاً بذى الأمر، لا خوفاً ولا طمعاً لكنهم خلقوا طلابَ إتقان ِ

يشبه قوم فرعون بالجن ، وليس هذا بالجديد، فقد تنازع الشعراء هذا التشبيه ، واستفاضت أقوالهم فيه ، فمن ذلك قول عنترة :

لا أبعد اللهُ عن عينى غطارفةً إنساً اذا نزلوا ، جنّاً اذا ركبوا

أما قوله فى البيت الثانى (برّاً بذى الأمر .. الى آخره) فيمحو كل المحو تلك الصورة التى صدّر بها قصيدته، فقد جعل فرعون يغرق فى استفزاز القوم وإحراجهم حتى لقد كاد يطردهم من مصر ويحول بينهم وبين ماء النيل ، فماذا جرى حتى جردهم من الخوف والطمع ، ووضعهم فى هذه المنزلة من البر والطاعة ؟ لسنا بسبيل الحقائق التاريخية التى اضطهدها الشاعر فى قصيدته ، وانما نحن فى مقام الابانة عن هذا العيب الفنى الكبير ، وفى هذا البيت الهادم لصدر القصيدة تعسفٌ شديدٌ

من حيث الصناعة ، فقد تم المعنى فى الشطر الأول منه ، إذ قال الشاعر (برّاً بذى الأمر الى آخره) فلم يبق من مكان لقوله فى الشطر الثانى (لـكنهم) . وثم عيب آخر هو ذكر الاتقان فى البيت وما هو بسبيل منه ، إنه لـكما تراه لامطمئن الموضع ، ولا متصل السبب ، قال :

أهرامهم تلك ، حَيِّ الفنَّ مُتخذاً ... من الصُّخور بُرُوجاً فوق كيوانِ
لم يأخذ الليلُ منها والنهارُ سوى ... ما يأخذُ النملُ من أركانِ ثهلانِ
كأنها ، والعوادى فى جوانبها ... صَرعى ، بناءُ شياطينٍ لشيطانِ
فَصغَّرت كلَّ موجودٍ ضخامتها ... وغضَّ بنيانها من كلِّ بنيانِ
كأنما هى ، والأقوامُ خاشعةٌ ... أمامها ، صحفٌ من عالمٍ ثانِ

إنا نحيي الفن مع الرئيس المكرَّم ، ونستأذنه فى ابراد بعض الشواهد على أن ما وصف به بناء الأهرام ، وانها كالبروج المنيفة على كيوان ، ليس من المبالغات المخترعة ، وأن الشعراء لم يغادروا كما يقول عنترة من مُتردَّم فى هذا الباب ، وهـذا ما يقوله الشريف الرضى :

بنوا فى يفاعِ المجد ، وهو ممنَّعٌ ... يبتنى طيرُها بين النجومِ وقوعُ

وأشد من هذا إغراقاً قول السموأل فى الأبلق الفرد :

لنا جبلٌ يحتلُّهُ من نجيرُهُ ... منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ
رسا أصله تحت الثرى وسما به ... الى النجم فرعٌ لا يُنالُ طويلُ

بل هذا هو الفرزدق يجرى فى هذا المضمار الى أبعد غاية فيقول :

انّ الذى سمكَ السماءَ بنى لنا ... بيتاً دعائمُـهُ أعزُّ وأطولُ

يقول صبرى فى البيت الثانى ان الليل والنهار لا يأخذان من الاهرام إلا ما يأخذ النمل من جوانب ثهلان ، وهو أحد الجبال العظام ، وهذا ولا ريب نمل المتنبي الذى يقول فيه :

أحبـك ، أو يقولوا جرَّ نمـلٌ ... ثبيراً ، وابنُ ابراهيمَ ريما

فى البيت الثالث صورتان : الأولى سقوط العوادى صرعى فى جوانب الاهرام ، والثانية أنها تشبه بناء الشياطين لبعض اخوانهم الشياطين ، وليس بين الصورتين من صلة ، ومن شأن اداة التشبيه التى توهم وجود هذه الصلة أن تزيدها تنائياً وبعداً . وفى معنى الصورة الاولى يقول البحترى :

رَدَّ الحوادث ملقاة أوائلُها على أواخرها ردعاً وايقاظا

وفى معنى الصورة الثانية يقول ابن المعتزّ فى قصر ، وفيه زيادة ظاهرة :

فليس له فيما بَنى الناسُ مُشْبِهٌ ولا ما بناهُ الجنُّ فى سالف الدهرِ

بل لقد قال شاعر قديم فى وصف بعض الأبنية ، ولعله الغاية فى هذا الباب :

عالٍ كأنّ الجنّ إذ مردتْ جعلته مِرقاةً الى النسرِ

فأما البيت الرابع فقد قال عبيد بن الأبرص فى معناه :

لا يبلغ البانى ولو رَفعَ الدعائمَ ما بنيْنا

وقال جرير :

ورأيت أبنية خوتْ وتهدّمتْ وبناءُ عرشكَ خالدٌ لم يُهدمِ

يصف شاعرنا ما يأخذ النفوس من الخشوع أمام عظمة الأهرام وجلالها ، حتى لكأنها صحف من عالم آخر غير عالمنا هذا ، وهو وصف بليغ يجمل كل خشوع فى هذا الباب أو سواه مما يقاربه أو يتصل به مجرداً عن هذه الصورة الفخمة ، واليك صورة من هذا الخشوع المجرد لتعرف ما بين الصورتين من التفاوت ، قال الشريف الرضى :

قد مررنا على الديار خُشوعا ورأينا البنى ، فأينَ البانى ؟!

هذا شىء آخر وإن كان المقام واحداً ، وإنك لتلمح نوعاً من الشبه بين بيت صبرى وقول بعضهم :

همْ يهلكون ، ويبقى بعضُ ماصنعوا كأنّ آثارهم خُطّت بأقلامِ

قال :

أين الألى سجّلوا فى الصخر سيرتهم وَصَغّروا كلّ ذى مُلكٍ وسلطانِ ؟

بادوا وبادت على آثارهم دُوَلٌ وأدرجوا طىَّ أخبار وأكفانِ

وخلّفوا بعدهم حرباً مخلّدةً فى الكونِ ما بين أحجارٍ وأزمانِ

وزُحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا عليهم العلمُ ، ذاك الجاهلُ الجانى

وَيلٌ له ، هتكَ الأستارَ مُقتحماً جلال أكرمِ آثارٍ وأعيانِ

للجهل أرجح منه فى جهالتهِ إذا هما وُزنا يوماً بميزانِ

فى هذه الأبيات البليغة من العظة الكونية العامة ما يذهب فى النفس البشرية إلى أعمق غور وأبعد قرار ، وفيها من تصوير مجد الفراعنة والتنويه بآثارهم ، وذمّ العلم وهو يتهجم على تلك البقايا الغالية والذخائر الثمينة وينتهك محارمها فى غير تعفّف ولا وفاء ، ما يُريك صورة الفن الشعرى فى تسلطه قضايا التأريخ وأحكامه ، وحقائق الحياة وأوهامها ، انّ لك فى هذه القطعة وحدها لعالما غير محدود من العبر والعظات ، وانك حين تتأمّلها لترى الرئيس صبرى وقد برزت لك فى تاجها الرفيع ، وعلى عرشها الذهبي المكين ، تكتب لدولة الفراعنة ولغيرها من الدول العظيمة كلمة الرثاء فى جبين الدهر ، ونضع فى فمه أنشودة الحياة الكبيرة ، وتحيّة العظمة البالغة ، يردّدها لفرعون وقومه ، ولمصر العظيمة ونيلها ، أمّا العلم — ذاك الجاهل الجانى — فانظر اليه وهو يحتقره ويحرّض التأريخ عليه ، ثم انظر فى ناحية أخرى ترَ الجهل البرىء يرفع رأسه ، ويشير إلى خصمه العلم ، والشماتة ملء عينيه وفمه ، إشارة الذي يقول : هل فهمت ؟

وبعد ، فقد بالغ صبرى كثيراً وهو يقول فى البيت الأول عن الفراعنة (وصغّروا كلّ ذى ملك وسلطان) ، وانّ للدول الاسلامية لحقّاً كبيراً فى ذمة التاريخ والأدب ، وخير ما يُفسر به هذا القول أنّه خاصٌّ بالدول المعاصرة للفراعنة ، أو ما كان منها بعد ذلك الى العصر الاسلامى العظيم ، فأمّا ما ورد فى البيت الثانى عن زوال الدولة الفرعونية وما بعدها من الدول تبعاً لتقلّب الدهر وجرياً على سنّة الوجود فما لا يكاد يستوفى كثرة وانتشاراً ، ومنه قول الشريف الرضى :

درجوا كما درج القرونُ وعلمهم أن سوف يُخبر آخرٌ عن أوّلِ

وقال المتنبي :

أين الذى الهرمان مِن بنيانهِ ما قومهُ ، ما يومهُ ، ما المصرعُ ؟

وهى الدنيا التى يقول فيها المعرّى :

ما نال فرعون بها نعمةً ولا صفا عيشٌ لموسى الكليمْ

وكقول صبرى فى هذا البيت (وأدرجوا طىَّ أخبارٍ وأكفانِ) قول المعرى:

جمالَ ذى الأرض كانوا فى الحياة ، وهم بعد المماتِ جمالُ الكتبِ والسِّيَرِ

وفى معنى ما يقوله عن العلم والجهل يقول أبو العلاء :

إذا عِلمىَ الأشياءَ جرَّ مَضرةً إلىَّ فانَّ الجهلَ أن أطلب العلما

ومما يتصل بهذا الباب قول بهاء الدين العاملى فى مَن يجمع الكتب ولا يستفيد من قراءتها :

لعمرىَ قد أضلتْكَ الهدايةْ ضلالاً ما له أبداً نهايةْ
فما تُنجى النجاةُ من الضلالةْ ولا يشفى الشفاءُ من الجهالةْ
وبالارشادِ لم يحصل رشادُ وبالتبيانِ ما بانَ السدادُ

يقول صبرى فى البيت الأخير من هذه القطعة :

وَيْلٌ له هتكَ الأستارَ مقتحماً جلال أكرم آثارٍ وأعيانِ

وليس هذا بصحيح على إطلاقه فما كانت ذخائر الفراعنة وأجسادهم فى مثل هذه المنزلة التى تفوق كلّ منزلة أخرى ، ولسنا ننكر مع كلّ هذا أن قصيدة (فرعون وقومه) ستبقى من الآثار البديعة والذخائر الغالية فى عالم الشعر والأدب .

رثاء أمين فكرى باشا

وهبتُكَ يا دهرُ مَن تطلبُ أبعدَ أمينٍ أخٌ يُصحبُ !
طَويتُ المودَّةَ فى شخصه فأىُّ ودادِ امرىءٍ أخطبُ ؟
وأىُّ بديلٍ لهُ أرتضى وأىُّ شمائلهِ أندبُ ؟
أمينُ اتئد فى النوىٰ ، وارعنى فبينى وبينك ما يوجبُ
أتذكرُ إذ أنتَ منى النِّياط من القلب ، أو أنت لى أقربُ ؟
وإذْ نحنُ هذا لهذا أخٌ وهذا لذا ابنٌ ، وهذا أبٌ ؟
ومَن قال عنا من الناظرين نديما جُذيمة ، لا يكذبُ
حسبتُ بأنَّك لى خالدٌ فكان الذى لم أكن أحسبُ

ليس فى هذا الشعر من دلائل الفحولة وشواهد العبقرية ما يأخذ النفس ، أو يزيد شيئاً جديداً فى الفن : فأنت ترى صبرى فى هذه القطعة يرسل القول على هينةٍ وكأنه يقص عليك حديثاً أو يطلعك على ذات نفسه فى صورة مرددة من قديم

الرثاء وجديده ، وأريد هذا الجديد الذي تراه ممسوخاً وتمر به مهدماً لا يعنيك منه سوى أن تجاوزه وأنت في عافية من بلائه . يقول صبرى في مطلع قصيدته (وهبتك يا دهرُ من تطلب) فهل لهذا من معنى في مقام الرثاء ؟ وهل ترى بين هذه الصورة الجامدة و بين ما بعدها من الصور الباكية التي تتمثل لك في هذه القطعة من تعاون أو التئام ؟ يهب صبرى للموت مَن يحب في هدوء شامل وسخاء عميم وهذا الشريف الرضى يقول في رثاء أمه :

لو كان يدفعُ ذا الحِمامُ بقوةٍ   لتكدّست عُصَبٌ وراءَ لوائي
بمدرّبينَ على القراعِ تفيّأوا   ظلَّ الرِّماحِ لكلِّ يوم لقاء

وانظر الى المتنبي وهو يتحدث بأخذ الثأر من الحمى في موت أمه فيقول :

هبيني أخذت الثأر فيك من العدى   فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمى !

ولعلّ الأصل في هذه الهبة المعدول بها عن وجهها قول أبي تمام :

قصدتْ نحوه المنيّةُ حتى   وَهبتْ حُسنَ وَجهِهِ للتراب

فأما قوله في البيت الثاني (طويت المودّة في شخصه) فشبيه بقول البحترى في وصيف التركى :

فيالك من حزمٍ وعزمٍ طواهما   جَديدُ الردى تحت الصفا والصفائحِ

ومنه قول الشريف الرضى يخاطب القبر :

لم يواروا فيك ميْتاً ، إنما   أفرغوا فيك ذنوباً من نوالِ

وقوله وهو أفخم :

اليومَ أغمدتُ المهنّدَ في الثرى   ودفنتُ هضبَ مَتالعٍ ويَلملمِ

وليس لقوله في الشطر الثاني من البيت (فأىُّ وداد امرىء أخطب ؟) أىّ جمال فنىّ بل هو يكاد يعدّ اليوم من كلام العامة وأشباههم ، ورحم الله الشريف الرضى إذ يقول :

في كلِّ يومٍ مودّاتٌ مطلقةٌ   قد كان زوّجنيها الدهرُ مغرورا

يقول صبرى في البيت الثالث (وأىّ شمائله أندب) ويقول الشريف الرضى :

أبكي نداهُ العريضَ أم بشرَهُ اللا   معَ للمعتفين ، أم وَرَعَهْ ؟

ويقول صبرى فى البيت الرابع (أمين انشد الى آخره) وهو معنى من قول الشريف الرضى فى رثاء بعض أصدقائه :

ولقد حفظتُ له ، فأين حفاظهُ ؟ ولقد وفيتُ له ، فأينَ وفاؤه ؟

فأما قوله :

أتذكر إذ أنتَ منى النياط من القلب أو أنتَ لى أقربُ ؟

فمن قول الشريف الرضى فى رثاء :

أعزُّ على عينى من العينِ موضعاً وألطفُ فى قلبى من القلبِ موقعا

وقوله فى رثاء آخر :

يا ثانياً للنفس بل يا ثالث العينين عزا

فأما قول الرئيس فى البيت السابع إنه كان وصاحبه كندمى جذيمة فمأخوذ من قول الشاعر :

وكنا كندمانى جُذيمة حقبةً من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا

قال الرئيس :

حسبتُ بأنكَ لى خالدٌ فكان الذى لم أكن أحسبُ

يقال حسبتُه وحسبتُ أنه ، فلا محل للباء فى قوله (بأنك)، وغريب أن يظن صبرى أو يحسب أن صديقه بنجوةٍ من الموت فلعله أراد أن يقول كما قال الأول :

لقد كنتُ أرجو أن أملاكَ حِقبةً فحال قضاءُ اللهِ دون رجائيا

أو لعله نظر الى قول الشريف الرضى فى رثاء الملك قوام الدين :

وما كنت أدرى أن فوقك آمراً من الدهر يدعو بغتة فتطيع

وأعجب من هذا قول المتنبي :

ألا انما كانت وفاةُ محمدٍ دليلا على أن ليس للهِ غالبُ

قال صبرى :

أفى ذا الشبابِ وهذا الاهابِ يموت الفتى الطاهرُ الطيّبُ ؟

ويُودى الذكاء ، ويقضى الوفاء وتردى الفضيلة أو تعطبُ ؟

عجيبٌ من الموت أفعاله وعتبي على فعله أعجبُ
بذا حكم الله في خلقهِ لكل امرىء أجلٌ يُكتبُ

يتفجع الرئيس لموت الفقيد فى شبابه ، ويبكى فيه الذكاء والوفاء والفضيلة ، وما هى بشىء آخر فيكون لنا من ذكرها صورة جديدة قائمة بذاتها ، فأما فى المعنى الأول فيقول أبو تمام :

إنّ الفجيعة بالرياضِ نواضراً لأشدُّ منها بالرياض ذوابلا

ويقول الشريف الرضى :

طويتك طىَّ البُرْدِ لم يُنفضَ مِن بِلَى وقد يُغمدُ المطرورُ وهو صنيعُ

ولسنا نتكلف ايراد الشواهد على كثرة ما قيل فى الباب الثانى ، فهو كل مايقال فى الرثاء ، فأما قوله فى البيت الثالث إنه يعجب من (أفعال) الموت ، ويرى أن عتبه على (فعله) أعجب ، فأنت أذكى من أن ندلك على ما فى (أفعاله وفعله) من العجب ، والمعنى مأخوذ من قول الغطمش الضبىّ :

أخلاّىَ لو غير الحِمامِ أصابكم عتبتُ ،ولكن ماعلى الموت مَعتبُ
بذا حكم اللهُ فى خلقه لكل امرىء أجلٌ يُكتبُ

صدق صبرى وصدق الشيخ أبوالعتاهية إذ يقول (وانّ لكل ذىأجلٍ كتابا) وإذ يقول :

كلُّ نفسٍ ستوافى سعيها ولها ميقاتُ يومٍ قد وجبْ

ولم تضنّ على الخنساء بالتحية وقد قالت :

أبكى فتى الحىِّ نالته منيّته وكلُّ نفسٍ الى وقتٍ ومقدارِ

إدعوى الرئيس بعد طول التفجع الى حكم الله وسنة الحياة فأشبه مسلم بن الوليد إذ يقول فى يزيد بن مزيد :

أحقاً انه أودى يزيدُ ؟ تأمّل أيها الناعى المشيدُ
أحامى المجد والاسلام أودى فما للأرض ويحك لا تميدُ ؟
أما واللهِ ما تنفكُّ عينى عليك بدمعها أبدا تجودُ

أبعد يزيد تختزنُ البواكى دموعاً ، أو تصان لها خدودُ ؟
لتبكك قبة الاسلام لما وهت أطنابها ، وهوى العمودُ
فإن يهلك يزيدُ ، فكلُّ حىٍّ فريسٌ للمنيةِ ، أو طريدُ

قال صبري :

وَجدتُ الحياة طريق المات وكلٌّ الى حتفهِ يسربُ
ويعثرُ فيه الفتى بالشباب ويدلفُ بالعلة الأشيبُ

فأما ان الحياة طريق المات ، فقد قال السموأل :

ميْتاً خُلقتُ ، ولم أكن من قبلها شيئاً يموتُ ، فمتُّ حين حييتُ

وقال الشريف الرضى :

بقاء الفتى مستأنفٌ من فنائهِ وما الحىُّ الا كالمغيَّب فى الرمسِ

وأشد من هذا إبانة عن المعنى قول البحترى :

أجارتنا من يجتمع يتفرّق ومن يك رهناً للحوادث يغلقِ

وأوضح منه قول المعرّى :

إن شئت أن تكفى الحمام ، فلاتعش انّ الحياة الى المنيّة سُلّمُ

بل نحن ندع هذا السلم لنلتقى وشاعرنا الكبير فى طريق واحد ، قال المعرّى يخاطب الدنيا :

وجدناك الطريق الى المنايا وقد طال المدى ، فمتى نجوزُ ؟

وأما موت الشباب ، وبقاء الشيب فكثير ما قيل فيه ومنه :

يرجو الأبُ الطفلَ الصغيرَ وطالما هلك الوليدُ ، وعاش فينا الوالدُ

وقال بعضهم :

كم عُوجلتْ غادةٌ كعابٌ وغودرتْ أمُّها العجوزُ

والأصل فى هذا الباب قول زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

رأيتُ المنايا خبطعشواء من تُصب تُمِتْه ، ومن تخطىءْ يعمَّرْ فيهرمِ

قال صبرى :

ألمَّا تكامل نورُ الأمين وتاه به الشرق والمغربُ

وفى المكارمَ ما أمّلت وأعطى الفضائل ما نطلبُ
ودانَ له أملٌ فى الحياة وتمَّ له فى العلى مأربُ
طواه الردى علماً فانطوى به أملٌ مقبلٌ نرقبُ ؟

عاد الشاعر الى التفجع بعد ذلك الارعواء ، وفى هذه القطعة تقليد ناطق لقول أبي تمام فى أحمد بن هارون القرشي :

أفلمّا تسربلَ المجدَ واجتا بَ من الحمد أيّما مُجتابِ
وتراءته أعينُ النّاظريهِ قمراً باهراً ورئبالَ غابِ
وعلى عارضيْهِ ماءُ الندى الجا رى وماءُ الحجى وماءُ الشبابِ
أرسلت نحوه المنيّةُ عيناً قطعت منه أوثقَ الأسبابِ ؟

قال صبري :

فيا نائياً والهوى ما نأى وذكراه فى البالِ لا تعزبُ
هنيئاً لدارٍ تيمّمتها لقد زارها المَلَكُ الأطيَبُ
وجاورها كوثرٌ من خِلالكَ حُلوٌ مع الخلد مُستعذبُ
تنعّمْتَ فيها ، وخلّيتنى لدى منزلٍ بَرْقُهُ خلّبُ
ودادُ الصديق به حُوّلٌ وقلبُ الصديقِ به قُلّبُ
وصعبٌ على الحرّ فيه المقام ولكنّ هجرانه أصعبُ

نأى أمين فكري ، وما نأى هواه عن صبري ولا عزبت ذكراه عن باله ولوشئنا أن نسوق اليك أسراباً متلاحقة من أشباه هذه الصورة ونظائرها لفعلنا ، فحسبك منها قول أبي تمّام :

لها منزلٌ تحت الثرى وعهدتها لها منزلٌ بين الجوانحِ والقلبِ

وقوله (قالوا وشوقك لم يظعن ولم يبن) وقول الشريف الرضى :

شوقٌ أقام وأنت غير مقيمةٍ والشوق بالكلِف المعنَّى أعلقُ

فأما قول صبري (هنيئاً لدارٍ تيمّمتها) فلا طائل تحته وهو معنىً من قول أبي تمام :

بات الثرى بأخى جذلانَ مبتهجاً   وَبتُّ يحكمُ فى أجفانىَ السُّهُدُ

وانك لفى غِـنى عن إيذانك بما فى البيت الثالث من الاضطراب وشدّة القلق ، وأما قوله (تنعّمتَ فيها وخلّفتنى ، إلى آخر البيت) فمن الصُّوَر التى تناولها الشريف الرضى فى قوله :

يفوز بالراحة الفقيدُ وللفا   قدِ طولُ العناء والتعبِ

نتخطّى البيت الخامس الى ما بعده ، وهو الذى يقول صبرى فيه إن الحياة فى هذه الدنيا ثقيلة على الحرّ ، ولكنّ الموت عليه أثقل ، وهذا وصفٌ عامٌّ يتمشّى على الناس كافّة ، فلا معنى هنا للتخصيص والحصر ، (تعبٌ كل الحياة ...) . قال عمران بن حطّان فى الدنيا :

أرى أشقياء الناسِ لا يسأمونها   على أنهم فيها عُراةٌ وَجُوَّعُ !

لا ، فتلك قضيّة لا تؤخذ إلاّ من فم المعرّى ، ومنه أخذ صبرى ، قال :

وجدنا أذى الدنيا لذيذاً كأنما   جَنَى النحلِ أصنافُ الشقاء الذى نجنى

فما رغبت فى الموت كُدْرٌ مسيرها   الى الوِرْدِ خِمْسٌ ثم يشربن من أجْنِ

ولا قلقاتُ الليلِ باتت كأنها   من الأين والادلاج بعض القنا اللدنِ

وخوف الردى آوَى الى الكهف أهله   وعلم نوحاً وابنه عملَ السُّفنِ

قال صبرى :

ويا تربةً حَلَّ فيها الأمينُ   لأنت الفراديسُ أو أخصبُ

حُبِستِ على رحماتِ الرحيم   وجادك رضوانه الصَّيِّبُ

ولا زالت السحبُ منهلةً   وأنت لاذيالها مَسْحَبُ

وَرَوَّتك منى دموعٌ تسيلُ   تخامرها مُهَجٌ تسكبُ

ليس فى تشبيه القبر بالروضة شىء جديد ، فالمراثى حافلة بهذا ومنه قول الشريف الرضىّ :

وانَّ ضرائحكم فى الصعيد   لتكسو الخبيثَ من الأرض طِيبا

وقوله فى قبر ابن الطائع لله ، وفيه صورة أخرى ولونٌ مزيدٌ :

منهلُ الجنباتِ تضحك أرضُه   فكأن بين فروجها الجوزاء

ويقول أبو تمام :

مضى طاهرَ الأثواب ، لم تبقَ روضةٌ غداةَ ثوى الا اشتهت أنها قبرُ !

والغاية فى هذا الباب قول المتنبى :

وما ريحُ الرياض لها ، ولكن كساها دفنُهم فى الأرض طِيبا

يدعو صبرى لتربة الأمين بسقيا السحب ، فمن يصدق أن هذا من قوله ؟ وماذا تصنع السحب بالقبور ؟ ياله من تقليد جاهلى لا يكاد يرحم الأدب ، ولا أدرى كيف تقيد الشريف الرضى فى القرن الخامس من التاريخ الهجرى بهذا المذهب فاكثر من طلب السقيا للقبور ، ومنه قوله :

سقاكَ وإن كنت فى شاغلٍ عن الرىّ دانى الندى صائبُ

وقوله :

أخلاىَ لا زال جمٌّ البروق أجشُّ الرُّعودِ يطيعُ الجنوبا
يَشُقُّ المزادَ على تُربكم ويجرى على كلّ قبرٍ ذنوبا

وقوله :

أرسَى النسيمُ بواديكم ، ولا برحت حوَامِلُ المزن فى أجداثكم تضعُ

بقى أن نحكم حكما عاماً على هذه القصيدة فنقول فى غير مداراة ولا مصانعة إنها ليست من الشعر المأثور ، وانها قصيرة العمر قريبة مدى البقاء فى عالم الأدب الحىّ ، ومن عيوبها أنها لا تعطى القارىء صورةً واضحة عن الفقيد ، فهى مأتم يفزعك ما تسمع فيه من شدة الصخب والضجيج ، ولكنك لا تعرف عن الميت الا انه صديق عزيز ، وانه كان ذكياً وفيّاً ، تكامل نوره ، فتاه به الشرق والغرب ، ووفّى المكارم حقها وأعطى الفضائل طالبتها ، كان علماً فانطوى ، وانطوى فيه أمل : هذا هو أمين فكرى فى قصيدة الرئيس . وقد يُردّ كل ما عزى اليه من الفضائل فى ظلمة هذا الغموض الى المبالغات الشعرية فلا يبقى الا انه صديق عزيز وأخ للشاعر كريم ، وما أشجى ما يقول الشريف الرضى فى فقد الاخوان والاصدقاء :

أحبابىَ الأدنين كم ألقى بكم داءٌ يمِضُّ فلا أداوى الداءَ
إلا يكن جسدى أصيب ، فاننى فرقتُهُ ، فدفنتهُ أعضاءَ !

مذنب هالي

فزع العالم كله لما كان يُتوقَّع من جسام الحوادث حين زعم المهوِّلون المزاعم عن هذا المذنَّب العظيم فلم يكن عجباً أن يتناول صبري باشا هذا الحادث الكبير فيخلِّد ذكراه في قصيدةٍ من شعره الجزل . وانَّا لبسبيل هذه القصيدة التي تُرينا صبري الشاعر الكبير ، وصبري العالم الفيلسوف ، وصبري الزعيم الداعية ، وصبري الحانق المتغيِّظ ، وانك لترى صبري الأخير في هذه القصيدة وقد اتَّقدت عيناه ناراً ، وتدفَّق الغضب من فمه متدافعاً زخاراً ، فتذكر به نوحاً وقوله : (ربِّ لا تذَرْ على الأرض مِنَ الكافرينَ ديَّاراً ، إنكَ إنْ تذرْهم يُضلُّوا عِبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفَّاراً) .

يغضب صبري في هذه القصيدة غضبته الكبرى ، لا مُتجنِّياً على العالم وناسه ، ويستنزل الموت والعذاب على هذه الأرض لا لقسوةٍ في طبعه ، ولا لشراسةٍ في في احساسه ، ولكنَّه رأى الأمم تتَّخذ من أهوائها الظالمة وشهواتها الوحشيَّة الدنيئه أوثاناً تعبدها ، وأصناماً تعكف عليها ، ووجد مظالم البشر ومناكرهم تُثقل ظهرَ الأرض وتملأُ جوانب العالم ، فلا حنان ولا حُبّ ولا نور ولا جمال ، وهذا ما يصفه في قصيدته ، قال :

غاض ماءُ الحياءِ مِن كلِّ وجهٍ ... فغدا كالحَ الجوانبِ قفرا
وتفشَّى العقوقُ في الناس حتى ... كاد رَدُّ السَّلامِ يُحسَبُ بِرّا
أوْجُهٌ مِثلَ ما نثرتَ على الأجْ ... داثِ وَرْداً إن هُنَّ أبدينَ بشرا
وَشِفاهٌ يَقُلْنَ أهلاً ولو أدَّيْ ... نَ ما في الحشا لَما قُلْنَ خيرا
عَمرَكَ اللهُ هل سلامُ ووداد ... ذاكَ ، أم حاوَلَ المسلِّمُ أمرا ؟
عَمِيَتْ عن طريقها أم تعامتْ ... أممٌ في مَفاوزِ الجهل حيرى ؟
غرَّها سعدُها ومِن عادةِ السَّعْ ... دِ يُؤاتي يوماً ويخذل دهرا
فتجنَّت على الشعوب وشنَّتْ ... غارةً في البلاد من بعد اخرى
نَسِيَتْ في الصُّعودِ يومَ التَّدَلِّي ... والتَّدَلِّي بصاعد الجَدِّ مُغرَى
تَعِبَ الفيلسوفُ في الناسِ عصراً ... وتولَّى السَّرائرَ الدينُ عصرا

والورى طاردٌ ازاءَ طريدٍ وَعُقابٌ يُمسى يطاردُ صقرا
عِبَرٌ كلها الليالى ، ولكنْ أين مَنْ يفتح الكتاب ويقرا ؟
أنت نعم النذيرُ يا نجم هالى زلزل السَّهْلَ والرواسىَ ذعرا
ظنَّ قومٌ فيك الظنون وقالوا آيةٌ ارسلت الى الأرض كبرى
إنْ يكن فى يمينك الموت فاقذِفْهُ شُواظاً على الخلائق طُرّا
أغداً تستوى الانوفُ فلا ينْظُرُ قومٌ قوماً على الأرض شزرا ؟
أغداً يصبحُ الصّراعُ عناقاً فى الهيولى ، وَيصبحُ العبدُ حرّا ؟
إن يكن كل ما يقولون ، فاصدع بالذى قد أمرت حييت عشرا !

ظهر صبرى فى مواضع كثيرة من هذه القصيدة التى بقيت منها أبيات أخر لم نتناولها ظهوراً واضح الأثر ، ناطق الدلالة . ولسنا نزعم أنه قضى حاجة الفن كل القضاء ، وأتى من سعة التصوير ودقة الوصف بكل ما يتطلب الأديب ، فقد كف نفسه عن كثير من أطماعها الفنية ، وقنع بالنزر اليسير من تمثيل آلام الانسانية وأحزانها ، فلولا ما اشتملت عليه القصيدة من جودة النظم ، ولولا ما وعت من الحكمة وبراعة الوصف فى الجانب الواضح الاشراق منها ، لفقدت جمالها ، ووقعت فى مكان آخر غير مكانها ، وقد يكون هذا حكمها لو لم نجىء فى هذه الصورة المجملة فقد عرفنا ان صبرى يعيا بالمطولات ولا يستطيعها ، وليس لما أكره عليه الطبع من جمال .

لم تخل هذه القصيدة من عيوب فنية ، يتمثل بعضها فى الرجوع الى الشعر القديم والاستعانة به على تأدية بعض الأغراض ، ويقوم بعضها الآخر فى اغفال ما لا بدّ منه لاصابة الوجه واقامة المذهب . فمن الباب الأول قوله :

غاض ماء الحياء من كُلّ وجهٍ فغدا كالح الجوانبِ قفرا

وقد تداول الشعراء ماء الحياة فى حالتيه فهو يفيض على ألسنتهم تارة ويغيض تارةً أخرى ، وكذلك هم قد تناولوا خصب الوجوه وجدبها ، فأطالوا فى ذلك وأكثروا . فما قالوا فى ماء الحياة :

كثيرُ حياء الوجهِ يقطر ماؤهُ على انهُ من بأسهِ النارُ تلفحُ !

ومن قولهم فى الوجوه الخصيبة وهو للخزيمى :

وما الخصبُ للاضياف أن يكثر القرى ولكنما وجهُ الكريم خصيبُ

وقال ابن أبي الهيدام في نقيض هذا المعنى :

لى صديقٌ هو عندى عَوَزٌ من سدادٍ ، لا سدادٌ من عَوَزْ

وجهُه يُذكرني دارَ البلى كلما أقبل نحوى وضَمَزْ

ومن هذا قول الآخر :

لا يعملُ المِبْرَدُ في وجهِه وَوَجْهُهُ يَعمَلُ في المِبْرَدِ !

ومن قول صبرى في باب الرجوع الى القديم :

وتفشَّى العقوق في الناس حتى كاد رَدُّ السلام يُحسبُ برّا !

فان ذلك قول ابن عمار :

تناهيتمو في برنا لو سمحتمو بوجهِ صديقٍ في اللقاء وسيمِ

ويقول صبرى :

وَشِفاهٌ يقلنَ أهلاً ولو أدِّيْـ ... نَ ما في الحشا لما قلنَ خيرًا !

وهو من قبيل قولهم :

يقولون لى أهلاً وسهلاً ومرحباً ولو ظفروا بي ساعةً قتلونى !

والياء من قوله (خيراً) في هذا البيت من عيوب القافية ، وقد تكرَّر هذا العيب في قوله :

عَميَتْ عن طريقها ، أم تعامَتْ امَمٌ في مفاوزِ الجهل حيرى ؟

وقوله (مفاوز الجهل) في هذا البيت لا يخلو من مطعن ، ففي اللغة على وجهٍ راجح ان المفازة صفةٌ عكسيّة للفلاة المهلكة يُراد بها التفاؤل بالنجاة ، وليس المقام بمحتمل هذا ، ومَرَدُّ الأمر الى فقه اللغة وأدبها ، ومن التعسُّف اللغوى قوله :

غرّها سعدُها ، ومن عادة السَّعْـ ـدِ يؤاتى يوماً ويخذل دهرَا

يقال من عادته أن يفعل كذا ، فلا وجه لإسقاط (أن) . قال الشاعر : ـ

أعادَتُها أن لا يعاد مريضُها وَسيرتُها أن لا يُفكَّ أسيرُها ؟!

والمواتاة لُغةً الموافقة ، فما هي للخذلان بضدّ ، والمعنى في هذا البيت وقوله :

نسيَتْ في الصعود يوم التدلى والتدلى بصاعدِ الجدّ مُغرَى

مأخوذ من قول الشاعر :

ماطار طيرٌ وارتفعْ إلاَّ كما طارَ وَقعْ

ومن قول الآخر :

لا يأمننَّ قويٌّ نقضَ مِرَّتهِ إني أرى الدهرَ ذا نقضٍ وإمرارِ

ومن الخلل الوصفى قوله (والورى طارد إزاء طريد) فالوجه أن يقال وراء لتستقيم الصورة ، وفى هذا المعنى يقول الشريف الرضى :

والناسُ أُسْدٌ تحـامى عن فرائسها إمَّا عقرْتَ ، وإما كنتَ معقورا

وللمعرّى فى الناس :

همُ السِّباعُ إذا عَـنَّتْ فرائسُها فإنْ دعوتَ لخيرٍ حُوِّلوا حُمُرَا !

وله :

إذا أنتَ لم تهرب من الأنسِ ،فاعترفْ بِطُلْسٍ تعاوَى ، أو ثعالبَ تَضبحُ

وقال :

والعيشُ حربٌ ، لم يَضعْ أوزارَها إلاَّ الحِمَـامُ ، وكلُّنا أوزارُ

فأما قول صبرى :

عِـبَرٌ كلُّها الحياةُ ، ولـكن أينَ من يَفتحُ الـكتابَ ويقرا ؟

فمن الصور القديمة التى يراها الأديب أكداساً متراكمة فى أفنية المدرسة الشِّعرية الأولى ، قال عدىّ بن زيد :

كفى زاجراً للمرء أيامُ دهره تروحُ عليه بالعظاتِ وتغتـدى

وقال المعرى :

إفهمْ عن الأيامِ ، فهى نواطقٌ ما زال يضربُ صَرْفُها الأمثالا

وقال :

والدَّهْـرُ شاعرُ آفاتٍ يفوهُ بها للنـَّاسِ ، يَفـكرُ أحياناً ويرتجلُ

ومن قوله فى هذا الباب :

أوَ ما قرأتَ سِجلَّ دهرِكَ ناطقاً بالهُلْكِ ،يُشْكَلُ بالخطوب ويُـنقَـطُ !؟

وقال أبو العتاهية :

إنّ الزّمانَ لَشاعرٌ وخطيبُ

قال صبرى :

إن يكن فى يمينكَ الموتُ فاقْذِفْـ ـهُ شُواظاً على الخلائق طُرّا
أغداً تستوى الانوفُ فلا ينـ ـظرُ قومٌ قوماً على الأرض شزرا ؟

كان الخطر المتوقع من ذنَب نجم هالى ، فلا معنى لذكر يمينه أو شماله ، وليس فى البيت الثانى أكثر ممّا قيل قديماً :

ولقد مررتُ على القبور فما مَيّزْتُ بين العبـدِ والمولى

ومثله قول المعرّى :

والموتُ يسلبُ ما فى الأنف من شمَمٍ تحت التراب ، وما فى الخدّ من صعر

وقال الشريف الرضىّ فى الموتى :

نزلوا بقارعةٍ تَشابَهَ عندها ذُلُّ العبيدِ ، وعِزّةُ الأحرارِ

ومن الصور الرائعة فى قول صبرى فى هذه القصيدة :

تعبَ الفيلسوفُ فى الناس عصراً وتولى السرائرَ الدينُ عصرا

ولكنك اذا عرضت هذه القضية الضخمة على عقلك وأنت تنظر الى تاريخ البشر وأديانهم وفلسفاتهم لم تجد لها من أثر أمام الحقيقة ، فان الانسان الأول لم يهبط الى هذه الأرض الا ورسالة الدين فى عنقه ، فالولاية العامة إذاً على هؤلاء البشر لم تكن لشىء آخر سوى الدين فى أى عصر من العصور ، ولا يطعن فى ذلك ماكان من تلك الفترات التى تخللت مجىء الرسل والانبياء عليهم السلام ، ولست بمنكر عمل الفلسفة وأثر الفلاسفة فى حياة الأمم ولكنى أنكر تلك الصورة المحرفة التى توهم التعاقب فى الولاية بين الفلسفة والدين ، وهو ما لا وجود له . وأبدع ما فى هذه القصيدة قوله :

أوَجُهٌ مثلما نثرت على الأجـ . . ـداثِ ورْداً، إن هنّ أبدين بشرا !

وقوله :

أغداً يصبحُ الصّراعُ عِناقاً فى الهيولى، ويصبحُ العبدُ حُرّا ؟!

وأنا أرجو أن تكون الصورة التشبيهية فى البيت الأول من مبتكرات صبرى .

ولعل قوله فى البيت الثانى (ويصبح العبد حراً) مما يدخل فى باب الملحقات التى لا صلة بينها وبين ما هى اليه من الكلام ، وقد اندمج هذا المعنى فى قوله (أغداً تستوى الأنوف، الى آخره) فلم يبق له من محل ، وقد كان من حق هذا البيت البديع الذى يعدّ من الشعر العلمى ، وهو قليل فى آثارنا الشعرية ، أن يأخذ مجراه على هذا النّسق الى النهاية ، ولكنّ عين الكمال كما يقول الأقدمون أصابت شاعرنا فأتمّه بهذه الرقعة التى حجبت وراءها جمالاً كثيراً ، وانك حين تتخيّل هذا الصراع البشرى العنيف وقد استحال بعد الموت وآثاره عناقاً وضماً والتزاماً بين بقايا البشرية وأنقاضها ، أو بين مادتها المنحلة وجوهرها الذائب المتناثر ، إنك حين تتخيل هذه الصورة الرائعة لتريد أن تلتهمها كاملة ، وانك لتراها ناقصة فى البيت ، والكمال لله وحده ، فاعذر صبرى ، وانظر ما يقول المعرى فى المرتبة الأولى من مراتب هذا العناق وهو يصف المنايا وأحداثها :

فكم قارنٌ من رأسٍ برجلٍ وكم ألحقنَ مِنْ قدمٍ براسٍ !

قصيدة فى تهنئة السلطان حسين

ليس لهذه القصيدة من شأن يذكر ، ولعل هذا لأنها نظمت لضرورة سياسية ، ونحن نمر بهذه القصيدة لماماً . قال فى مطلعها :

اليوم آنَ لشاكرٍ أن يجهرا بالشكر ، مرتفعَ العقيرة فى الورى

ومنها :

هذا ابنُ اسماعيلَ : نجمٌ طالعٌ لهداية السارى ، فحىّ على السُّرى

وقد ختمها بقوله :

حالٌ اذا نظر الأديب جمالها شكر الاله ، وَحقُّه أن يشكرا

فى البيت الأول اضطراب ظاهر ، وفى الثانى معنى مكرر من أشعار المتقدمين ، ومنه قول كعب الأشعرى فى آل المهلب :

نجومٌ يُهتدى بهمو اذا ما أخو الغمرات فى الظلماء حارا

فأما البيت الثالث فشبيه بقول البهاء زهير فى الأمير مجد الدين محمد بن اسماعيل:

وغفرتُ ذنبَ الدهر يومَ لقائه وشكرتُه ، ويحقّ لى أن أشكرا

وأحسن ما فى هذه القصيدة قوله :

والنيل لم يبرح على العهد الذى أخذته قبلُ عليه ناضرةُ القرى

متهاديًا بين البقاع ، مناجيًا أرجاءها بالخصب يكتنفُ الثرى

لو أن اطلال المنازل تنطق

هذه هى القصيدة الرنانة التى احتلت مكانًا رفيعًا ومنزلةً سامية فى مملكة الشعر وكانت لصبرى آية ناطقة وحجة ناهضة على أنه من مهرة الشعراء وجهابذتهم ، وهى محلاة بالكثير من بدائع الفن ومحاسنه . وقد انبسطت فيها نفسه وتدفق طبعه ، على غير عادته فى المطولات فظهرت فيها قوة الباعث ونشاط الروح الشعرىّ وجاءت من المأثورات التى تستطيع الاحتفاظ بجدتها وحرارتها مدة طويلة . وفى معتقدنا أن هذا النشاط المتجدد فى القصيدة مردود الى تجدد الأغراض وترادفها فقد اشتملت على سبعة وثلاثين بيتًا : منها خمسة في ذكر الاطلال والمنازل ومناجاة الأحباب والشكوى من الفراق ، وأربعة فى عيد الفداء وسدة الملك وما ينتظم فى هذا السلك ، واثنا عشر بيتًا فى مدح الامير وذكر الشورى ونحو ذلك ، وثلاثة عشر فى فاجعة دنشواى وآثارها ، وثلاثة وهى ختام القصيدة فى مدح العباس والدعاء له ــ هذا ما نعتقده ولعلنا فيه على صواب .

قال صبرى فى هذه القصيدة :

لو أنّ اطلال المنازل تنطقُ ما ارتدّ حرّانَ الجوانحِ شيقُ

لا ننكر على صبرى ذكر الاطلال إنكار من يرى أن هذا يعد من مهجورات الزمن القديم والحياة الاولى فان للشاعر أن يتناول كل شىء ، وليست اطلال الديار وذكرى الأحباب مما يدخل فى ذلك الباب فما تزال يد الزمن تعفو الآثار وتبلى الجديد .

لا ننكر هذا على صبرى ولا سواه من شعراء عصرنا ، بل نحن نرى أن يكون وصف الطلل من الصور الفنية التى ينبغى لكبار الشعراء أن يتناولوها ، ويتباروا فيها ، ولكن لا على تلك الطريقة القديمة التى لا تتعدّى ذكر القدم ووصف البلى

ذلك الوصف الجافّ الذي لا يفيد من الوجهة الفنية ولا يغني ، وهذا موضع العيب في قصيدة صبري ، وثمّ موضع آخر مُقدَّم على هذا ، وهو فساد الذوق وسوء الاستعمال ، فانّ كل مقام لا يحتمل ولا يقبل إلاّ ما يناسبه من الصور والألوان ، وصبري في هذه القصيدة بسبيل التهنئة وفي مقامها ، فليس من أدب الفن ونظامه أن يبدأها بتلك الصورة المحزنة ، ولا أن يلطخ وجهها بمثل ذلك اللون القاتم ، واليك أمثلة من الشعر القديم تريك تقليد صبري في ذكر الاطلال واضحاً ، وتدلك على قصوره وضعف قوّته حتى في هذا التقليد . قال امرؤ القيس :

قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ وعرفانِ ... ورسمٍ عفت آياته مُنذُ أزمانِ
أتتْ حِججٌ بعدى عليها فأصبحت ... كخطِّ زبورٍ في مصاحف رهبانِ
ذكرتُ بها الحيَّ الجميعَ فهيَّجتْ ... عقابيلَ سُقمٍ من ضميرٍ، وأشجانِ
فسحت دموعى في الرداء كأنها ... كُلًى من شعيبٍ ذاتُ سَحٍّ وتهتانِ

وصف امرؤ القيس الأطلال في هذه الأبيات فشبّهها في دثورها وخفاء معالمها بأساطير الكتب القديمة ، وذكر ما أصابه وهو يقف فيها فيراها مُقفرة من ساكنيها ، وهو إذ تغلبه الذكرى على صبره في هذا الموقف فيبكي ، يُصوّر لك كيف بكى ، ويصف دموعه وهي تجرى سحّاً على ردائه ، فيقول لها إنها كانت كالماء يتدفق من الرقعة الواهية في السّقاء البالي ، وهذه صورة تشبيهيّة أخرى ، لها شأنها في باب التصوير الفني ولها مكانها ، قال زهير بن سلمى :

أمِنْ أمِّ أوفى دمنةٌ لم تكلّمِ ... بحومانةِ الدرّاج فالمتثلمِ
ودار لها بالرقمتين كأنها ... مراجعُ وشمٍ في نواشر مِعصمِ
بها العِينُ والآرامُ يمشينَ خِلفةً ... وأطلاؤها ينهضنَ مِن كلِّ مَجثمِ
وقفتُ بها من بعد عشرينَ حجةً ... فلأْياً عرفتُ الدارَ بعد توهّمِ
فلمّا عرفتُ الدارَ قلتُ لربعها : ... ألا انعمْ صباحاً أيها الربعُ واسلمِ

هذا وما قبله من الشعر الوصفي الذي يزيد في ثروة الفنّ ويوسّع أُفقه ، ومما يُنسَب الى عنترة . وفي البيت الثاني موضع كبير للشك لبعد العرب عما يُرى فيه من آثار الصناعة :

لمن طللٌ بالرقمتين شجانى وعاثت به أيدى البلى فحكانى
وقفتُ به ، والشوق يكتب أسطراً بأقلامِ دمعى فى رسوم جَنانى

كان هذا شأن القوم فى العصر الأول ، وقد بقى لهـذا المذهب أثره حتى فى العصر الأُموى الذى ألبس الشعر ثوباً جديداً من الحضارة . وهذا ما يقـوله الأخطل :

لمن الديارُ بحايلٍ فوُعالِ درستْ وغيَّرها سِنونَ خوالِ
دَرَجَ البوارحُ فوقها فتنكّرتْ بعد الأنيسِ معارفُ الأطلالِ
فكأنما هى مِن تقادم عهدها ورقٌ نُشرن من الكتاب بوالِ
دارٌ تبـدّلت النعامَ بأهلها وصُوارَ كلّ ملمّعٍ ذيّالِ

أما جرير فيقول :

ما للمنازل لا يُجبنَ حزينا أصممن أم قَدُمَ المدى فبلينا ؟

على أن جريراً خيرٌ من الأخطل ، فقد أخرج نفسه وفنه من هذا المضيق بعض الشيء فقال :

حىِّ الديارَ كوحى الكاف والميمِ ما حَفِظَتْكَ اليوم منها غيرُ تسليمِ

بل هو قد استحدث للشعر لغةً جديدة فى وصف الديار ، فانظر الى البيت الثانى من قوله :

لمن الدّيارُ كأنهـا لم تُحْـلَلِ بين الكناسِ وبين طلحِ الأعزلِ ؟
ولقد أرى بك ، والجديدُ الى بِلًى مَوْتَ الهوى وشفاء عين المجتلى

ليس هذا هو التجديد بعينه ولكنه الهمُّ به والنزوع اليه ، فدعنى أنتقل بك الى العصر العباسى لأريك ما جدّد الحسن بن هانى وأبو تمام والبحترى فى هـذا الباب . قال الأول :

لمن دِمنٌ تزدادُ حُسنَ رسومِ على طول ما أقوت ، رطيبَ نسيمِ ؟

أترى لو أن صبرى إذ لم يجد من ذكر الاطلال بدآ قال مثل هذا فى مطلع قصيدته أكنت تصيبه بكثير من اللوم ؟ ان الصديق أبا نواس قد خلع على الاطلال من هذا

الوصف الشائق ما تشتهى الرياض الضاحكة أن يكون لها ، وانك لذو بصر وفطنة ، واليك ما يقوله فى قصيدة أخرى :

ألالا أرى مثلى امترى اليوم َفى رسم تـُغص ّ به عينى ويلفظه وهمى
أتت ْ صُوَرُ الأشياء بينى وبينه فظنى كلا ظن ٍ، وعلمى كلا علم

ان فى هذا للوناً جديداً من ألوان الفن النواسى ّ البديع ، وانه للتجديد بعينه ، وهذا أبو تمام وفنه ، قال :

مِن سجايا الطلول أن لا تجيبا فصواب ٌ من مقلتى أن تصوبا
فاسألنها ، واجعل بُكاك جواباً تجـد الدّمعَ سائلاً ومُجيبـا
قد عهدنا الرّسوم ، وهى عكاظ للصِّبى تزدهيـك حُسناً وطيبا
أكثر الأرض زائراً ومزوراً وصعوداً من الهوى وصبوبا

هكـذا يقول حبيب فى الطلول وسجـاياها وسؤالها وجواب سائلهـا ، وهكذا يصوّر أيامها الأولى وحياتها البائدة فتراه وكأنما هو يصف لك دولة كانت بالأمس فى أوج مجدها وسؤددها ، ثم عصفت بها حوادث الزمن فلم تترك منها سوى آثار طامسة ، ورسوم صماء ، وان أبا تمام لشاعر خصيب الفكر غنى البيان ، وهذا صوت ٌ آخر له ، قال :

على مِثلها من أربُـعٍ ومَلاعبِ أذيلت ْ مصونات ُ الدُّموع السوّاكبِ
أميدان لهوى من أتاح لك البلى فأصبحت ميدان الصَّبا والجنائبِ
أصابتك أبـكار الخطوب فشتتت هو َاى َ بأبكار الظباء الـكواعبِ

صورة جديدة لا شك فيها ، ومع أنا لسنا من أنصار البديع فى الشعر فانّ براعة الشاعر فى هذه الصورة تكاد تشغلنا عنه وعن رأينا فيه ، ومعنى هذا أنّ ما ورد فيها من أنواع البديع قد جاء متمكناً ، ووقع هادئاً مستقرّاً ، حتى لقد يضيق بنا المذهب إذا زعمنا أنّ الشاعر أراده أو قصد اليه وإن كان هذا هو الشأن ، فانّ أبا تمام مولع بهذا المذهب الذى وضع مسلم بن الوليد أساسه فى الشعر العربى وجرى فيه أبو تمام على أثره ، حتى لقـد قال بعض النقّاد من الأقدمين إنّ أبا تمّـام يُغرم بالبـديع فيدفعه إلى المحال ، وقد يكون قوله (أبـكار الخطوب) من هذا النوع عندهم ولـكنى لا أرى فيه شيئاً :

يا منزلاً أعنقتْ فيه الجَنُوبُ على رسمٍ مُحيلٍ وشعْب غيرِ مُلتئمِ
هَرمتَ بعدىَ ، والرَّبعُ الذى أفلت منه بُدُورُكَ مَعذورٌ على الهرمِ
عهدى بمغناكَ حسّان المعالمِ من حسّانةِ الجيدِ والبُردىِّ والعنَمِ

* * *

يا موسمَ اللذات غالتك النوى بعدى ، فربعك للصبابةِ موسمُ
ولقد أراكَ من الكواعبِ كاسياً فاليومَ أنتَ مِن الكواعبِ مُحرِمُ

* * *

أدارَ البؤسِ حبَّبكِ التَّصابى إلىَّ ، فصرتِ جنّاتِ النعيمِ
لئن أصبحتِ ميدانَ السَّوافى لقد أصبحتُ ميدانَ الهموم
أظنُّ الدَّمعَ فى خدِّى سيُبقى رسوماً من بكائى فى الرُّسومِ

* * *

لا تُكثرنَّ ملامى إن عكفتُ على رَبْعِ الحبيبِ ، فلم أعكف على وَثَنِ

كلُّ هذه الصور الغضّة والألوان الحلوة الملتمعة لأبى تمّام ، فانظر كيف اختفت الطلول بما فيها من همود ووحشة خلف هذا الجمال الفنى وتوارت وراءه كما تتوارى القبور البالية وراء القصور الأنيقة والحدائق النضرة ، فأنت لا تعافها ، ولا تملّ النظر اليها ، وحسبنا هذا من أبى تمّام ، فالكلمة الآن للبحترى ،قال :

أرُسومُ دارٍ أم سطورُ كتابِ درستْ بشاشتُها على الأحقابِ ؟
يجتازُ زائرُها بغيرِ لُبانةٍ ويردُّ سائلُها بغيرِ جوابِ

علق البحترى بالقديم فى البيت الأوّل وألمّ به فى الثانى ، ولكن بديباجةٍ جديدةٍ ولغةٍ أخرى ، وخيرٌ من هذا قوله :

لو لا تعنّقفنى ، لقلتُ المنزلُ معنًى تبيِّنُهُ ،ومعنًى مُشكلُ
يا دارُ لا زالت رُباكِ مَجُودةً من كلِّ غاديةٍ تُعلُّ وتُنهلُ
فهمتِنا دُوَلَ الزمانِ وصرفَهُ وأريتِنا كيف الخطوبُ النُّزَّلُ
أصبابةً برسومٍ رامةَ بعد ما عرفت معارفَها الصَّبا والشمألُ ؟

حتى هذه الأبيات لا تُعدّ من الصور الفنية التي هي من حق الفن على شاعرٍ كبيرٍ كالبحترى ، ولعله أقرب الى الرجاء فى قوله :

يا دمنةً جاذبتها الريحُ بهجتَها — تبيتُ تنشرها طوراً وتطويها
لا زلتِ فى حُللٍ للغيثِ ضافيةٍ — يُنيرُها البرقُ أحياناً ويُسدِيها
تَروحُ بالوابلِ الدانى رَوائحُها — على رُبوعكِ ، أو تغدو غواديها

ومن الجديد فى هذا الباب قوله :

هَبْ الدارَ رَدَّتْ رَجعَ ما أنت قائلُهْ — وأبدى الجوابَ الربعُ عمَّا تسائلُهْ
أفى ذاكَ بُرْءٌ من جوًى ألهبَ الحشا — توَقُّدُهُ ، واستغزرَ الدمعَ جائلُهْ ؟

على أنّ فنّ البحترى لا يبدو لك واضحاً كما تشاء إلا حيث يقول :

أَصبَا الأصائل ، إنّ برقةَ مُنشدِ — تشكو اختلافكِ بالهبوبِ السرمدِ
لا تُتعبي عرَصاتِها ، إنّ الهوى — مُلقى على تلك الرسومِ الهُمَّدِ
دِمَنٌ مَواثلُ كالنجومِ ، فإنْ عفتْ — فبأىّ نجمٍ فى الصبابةِ نهتدى ؟

نستفيد من كلّ هـذا أنّ أئمة الشعر ما برحوا على توالى العصور يعالجون هذا المذهب ويستحدثون فيه من مختلف الصور والمعانى ما يؤدّى رسالة الفنّ ، ويكشف لنا عن محاسنه ، ومن العجز البالغ المدى أن يقوم شاعر كبير كصبرى باشا فيقول فى القرن العشرين :

لو أنّ أطلالَ المنازل تنطقُ — ما ارتدّ حرّانَ الجوانحِ شيِّقُ

ودع عنك قوله بعد هذا :

أمطالعَ الأقمارِ أهلُكِ أسرفوا — فى النـأى إسرافَ الغنىّ ، وأغرقوا
لو أنهـم (قدْ) أنصفوكِ (منازلاً) — ما حازهم فى الـكون بعـدَكِ مَشرقُ

عجزٌ وأبيك ظاهر ، وتقليدٌ أبتر لا معنى له ، ولا فائدة فيه ، وانّ المتنبي وهو أقرب هؤلاء الأئمة عهداً بنا وبهذا العصر الذى نتعاطى الأدب فيه ليصوّب الينا من نظراته الجارحة ونحن على عهدنا من القصور ما يستفيده كلّ أديب من قوله :

بكيتُ يا رَبعُ حتى كدتُ أبـكيكا — وَجُدْتُ بى وبدمعى فى مَغانيكا
بأىّ حكمِ زمانٍ صرتَ متّخذاً — ريمَ الفـلا بدلاً من ريمِ أهليكا ؟

أيامَ فيكَ شموسٌ ، ما انبعثن لنا إلا ابتعثن دماً باللحظِ مسفوكا

***

لك ِ يا منازلُ فى القلوب مَنازلُ أقفرتِ أنتِ ، وهُنَّ منكِ أواهلُ

***

لا تحسبوا رَبْعَكم ، ولا طللَهْ أوَّلَ حىٍّ فِراقُكم قتلَهْ

***

فدَيناكَ من ربعٍ ، وإن زدتنا كربا فانكَ كنتَ الشرقَ للشمس ، والغربا

وكيف عرفنا رسمَ من لم يدع لنا فؤاداً لعرفانِ الرُّسومِ ، ولا لُبَّا

نزلنا عن الأكوارِ نمشى كرامةً لمن بان عنه ، أن نُلمَّ بهِ رَكبا

***

أثلِثْ ، فانا أيها الطللُ نبكى ، وتُرزمُ تحتنا الإِبلُ

أو لا ، فلا عَتبٌ على طللٍ إنَّ الطلولَ لمثلها فُعُلُ

لو كنتَ تنطقُ ، قلتَ معتذراً : بى غيرُ ما بكَ أيها الرجلُ

أبكاكَ أنك بعضُ مَن شغفوا لم أبكِ أنى بَعضُ من قتلوا

ان الذين أقمت وارتحلوا أيّامهم لديارهم دُوَلُ

الحسنُ يرحلُ كلما رحلوا معهم وينزل حيثما نزلوا

هذا هو المتنبي فرعون الأدب ، وجبار الشعر ، يغزو مملكة الفكر فيستبيح معاقلها وينتهب ما يريد وفوق ما يريد من ذخائرها ، فانك لتراه فى كل صورة من هذه الصور خالقاً مبتدعاً ، يبكى الربع حتى يكاد يبكيه ، ويجود بنفسه ودمعه فى مغانيه ، ثم يقول لك يا منازل فيجاوبه الفن هكذا فليكن كل قائل ، الى غير هذا من مَعانٍ مولدة وطرائق هى له وحده ممهّدة ، فاذا قال صبرى :

لو أنهم (قد) أنصفوك (منازلاً) ما حازهم فى الكون بعدك مشرقُ

اذا قال صبرى هذا قال فرعوننا العظيم وجبّارنا الأكبر: ان الذين ... الى آخر البيتين . قال شاعرنا :

هل عند ذاك السربِ أنا بعده فى الحىِّ مِن آماقنا نتدفّقُ

أثر العبقرية فى البيت قوله (مِن آماقنا تتدفق) ، وصبري من هذا الأثر بين حالتين : حالة البصر بأسرار الفن ودقائقه ، وحالة الاتكال على القديم واعادته فى لباس جديد من اللفظ المصقول والكلام المنمّق ؛ وهذا نوعٌ من القوّة وضرب من الاقتدار ، ولكنه قليل الفائدة على كل حال . ولقد درج المتنبي على هذا فى طائفة غير قليلة من شعره ، فاغتصب كثيراً من الصُّور المعنوية الرائعة وكساها من حسن الديباجة وجودة السبك ما عجز أصحابها عنه فنسبت اليه وعرفت به ، وقد أجاز هذا علماء النقد ، ولكني لا أراه حقاً . قال الشريف الرضى فى معنى بيت صبري:

لقد جلّ قدرُ الرزء أن يبلغ البكى ... مَداهُ ، ولو أنّ القلوبَ دُمُوعُ

وقال البهاء زهير ، وهو فى حدّه من المقاربة :

وأقسمُ ما ضاعت دموعى عليكم ... ولو أنَّ رُوحى فى الدُّموع تسيلُ

أمّا الصُّورة بعينها فظاهرة فى قول الشاعر :

الله فى مغرمٍ حُشاشتهُ ... مُنهلّةٌ فى الأدمعِ الذُّرُفِ

وقد تناول المتنبيّ هذا المعنى فقال :

أشاروا بتسليم ، فجدنا بأنفُسٍ ... تسيلُ مِن الآماقِ والسّمُ أدمُعُ

السّمُ لغةٌ فى الاسم ، وله فى هذا المعنى من قصيدة أخرى :

ليس القِبابُ على الركاب ، وانما ... هُنَّ الحياةُ ترحّلت بسلامِ

ليت الذى خلق النوى جعل الحصى ... لخفافهنّ مفاصلى وعظامى

متلاحظين نسحُّ ماء شؤوننا ... حذراً من الرقباء فى الاكمامِ

أرواحنا انهملت وعِشنا بعدها ... من بعد ما قطرت على الاقدامِ !

وقال غيره فى هذا المعنى :

ترفّق فما هذى دموعى التى ترى ... ولكنها نفسى تذوبُ فتقطرُ

وهذه صورة أخرى تريك شاعراً يتدفق من فه وعينه ! وهذا المسكين هو محمد ابن قاسم النحوى قال :

لو عاينت عيناك قَذْفى من فمى ... كبدى ، ودمعى مَعْ دمى مسفوحُ

لرأيت مقتولاً ، ولم تر قاتلاً ... وعلمتَ أني من فمى مذبوحُ !

كبدي على صدري جرت ، والى متى أغدو أعذّبُ فى الهوى وأروحُ ؟

وهذه صورة عكسية للمعنى تدل على براعة صاحبها واتجاهه الى التجديد . قال :

ملكتُ دموعَ العين ، ثم رددتها إلى ناظرى ، فالعينُ فى القلب تدمعُ !

قال صبرى :

أمنازلَ الأقمارِ ، أهلُكِ أسرفوا فى الرأى إسرافَ الغنىّ وأغرقوا

لو أنّهم قد أنصفوكِ (منازلاً) ما حازهم فى الكون بعدكِ مَشرقُ

كثر القول فى الشموس والأقمار ، وتمشَّى كذلك فى هذه الكثرة الى مطالعها ومغاربها ، فمن ذلك قول البحترى :

صدقَ الغرابُ ، لقد رأيتُ شموسَهم بالأمسِ تغربُ عن جوانبِ غُرَّبِ

ولابن هانىء :

بانوا سراعاً ، للهوادج زفرةٌ ممّـا رأينَ ، وللمطىّ حنينُ

لا الجوُّ جوٌّ مشرقٌ ، ولو اكتسى زهراً ، ولا الماءُ المَعينُ مَعينُ

لا يبعدنّ اذا العبيرُ له ثرًى والبانُ دوحٌ والشموسُ قطينُ

وله من قصيدةٍ أخرى :

ما للمهارى الناجياتِ كأنّها حتمٌ عليها البينُ والعدواءُ

يدنو منالُ يد المحبّ ، وفوقها شمسُ الظهيرةِ ، خِدْرُها الجوزاءُ

وله :

أيحسب سارى الليلةِ البدر واحداً وفى كِلل الأظعان ثانٍ وثالثُ

وقال الأبيوردى فى هذا المعنى :

لله ما صنعت أيدى الركابِ بنا عشيةَ اختفتْ الأقمارُ فى الكِلَلِ

وله من قصيدةٍ أخرى :

مَنطقُ الدارِ من ترحّل عنها طالما أخرسَ الديارَ الرحيــلُ

فلكٌ أطلع الكواكبَ صُبحاً وطلوعُ النجومِ صُبحاً أُفولُ

فأما قول صبرى أسرفوا فى النأى اسرافَ الفنىّ ، فليس من الصُّوَر الشعرية التى يتقبّلها الذوق الفنى بكثير أو قليل من الاستحسان ، وهذا مثلٌ من أقوال المتقدمين فى هذا الباب :

أَلِفَ النوى ، حتى كأنّ رحيله للبين رِحْلَتُهُ إلى الأوطانِ

وقال الأبيوردى ، وفيه مزيد من ذكر الأقمار ومنازلها :

بمنازلِ القمر اقتدَى فى بُعدهِ قمرُ المنازلِ بين رامةَ والحمى

وفى قوله — لو أنهم قد أنصفوك منازلاً — إكراهٌ عنيف لكلمة (قد) إذ لا محلّ لها فى الكلام . وقد جاءت كلمة (منازل) من الزوائد الملفاة فى ذاتها ولو أحسن الشاعر الصياغة لاستغنى عن هاتين الكلمتين ، ولكان له الخيار فى قوله (أنّهم) فهى كذلك مما يقع فى طرَفٍ من هذا الحكم ، وما عليك من بأس إذا قلت إنّ الجزء الحىّ فى شطر البيت كله هو قوله (لو أنصفوك) وفى معنى انصاف الديار وظلمها ، واحيائها وقتلها ، يقول المتنبي وهو مما ذكرناه له :

لا تحسبوا ربعَكم ولا طَلَلَهْ أوّلَ حىّ فِراقُكم قَتَلَهْ

وقد أخذ أبو الحسن التهامى هذا المعنى فقال :

ماتت لفقد الظاعنين ديارهم فكأنما كانوا لها أرواحا

وللأبيوردى فى هذا الباب :

متبدّلينَ لِوَى العقيقِ من الحمى انّ التبدُّل للمصون تَبذُّلُ

قال صبرى :

عِيدَ الفداء ، ألا سعدتَ بسدّةٍ أمسى يحيطُ بها الجلالُ ويُحدقُ

هلا رأيتَ بعابدين مع الملا ملكاً خلائقهُ تضوعُ وتعبقُ

وجمعتَ مِن تلك الشمائل طاقةً تزدانُ أياماً بها وتخَلّقُ

ورجعتَ من نُورِ الأميرِ مزوّداً حتى تعودَ وأنت زاهٍ مُشرقُ

الطاقة الحزمة ، وهى هنا بحكم القرينة طاقة الريحان ، وتخلّق الرجل تطيّب بالخلوق ، وهو نوعٌ من الطيب السائل يخالطه ماء الزعفران ، وبين هذا وطاقة الريحان أو ما يشابهه ويدخل فى معناه بَوْنٌ بعيدٌ ، وفى قوله عن الطاقة — تزدان

أياماً بها وتخلّق — انتقاص من قدر الممدوح لأن ذلك يفيد أنّ ما فى شمائله من النضارة والطيب لا يدوم طويلاً ، وقديماً قيل :

« يَبْـلَى القميصُ وفيه عَرْفُ المندلِ »

وكل ما ذكره شاعرنا الكبير عن العيد وما يستفيده من طيب سجـايا الأمير ونوره انما هو من القديم المعاد ، ومما قيل فى هذا الباب :

تسعى المواسمُ كلُّها لرحابهِ | إذ لا بهاءَ لهـا بغيرِ بهائهِ

ومن هـذا القبيل قوله فى البيت الثانى (ملـكاً خلائقـه تضوع وتعبق) . وللبحترى فى هذا المعنى :

العارضُ الثجّـاجُ فى أخـلاقهِ | والروضـةُ الزهراءُ فى آدابهِ

وقال محمد بن يزيد فى روضة :

كأن ما نجتنيهِ مِن زخارفهـا | أخلاقُ مستحسنِ الأخلاقِ محبوبِ

ولبعضهم :

وما روضـةٌ حلَّ الربيعُ نطاقـها | وَجرّتْ بها الأنواء حاشيةَ البُرْدِ
اذا حَدرت فيها النّعامى لثامَها | ثنى عِطفهُ الحوذانُ والتفَّ بالرَّنْدِ
بأطيب نشْراً من خلائقـهِ التى | تنمُّ بريّـاهـا على العنبر الوردِ

قال صبرى :

أحرزتَ ياعبّـاسُ كلَّ فضيـلةٍ | وبلغتَ شأواً فى العلى لا يُـلحقُ
مَن ذا يجارى أخمصيْـكَ الى مَدًى | وهواكَ سبّـاقٌ ، وعزمُـك أسبقُ

إحراز الفضائل ، والاستئثار بالمحامد ، وبلوغ الشأو الأبعد ، والأمد الأقصى ، كل هذا مما حفلت به قصائد المديح ، وحفيت من طول ترديده ألسنة الشعراء ، وحسبك أن يقول مهيار الديلمى :

لا أدّعى لأبى العـلاء فضيلةً | حتى يسلمهـا اليـه عِدَاهُ

وما أشبه الشطر الثانى من البيت الأول بقول أبى تمام : (هيهات تطلب شأوَ مَن لا يُـلحَق) وفى السبق الى الغايات يقول البحترى :

ولقد جريتَ الى المعالى سابقا فأخذتَ حظَّ الأوّلِ المتقدّمِ

وله فى هذا المعنى :

طلوبٌ لأقصى غايةٍ بعد غايةٍ إذا قيل يوماً قد تناهى تزيّدا

ومن الخطأ فى هذا الباب قول صبرى : (مَن ذا يُجارى أخمصيك ؟) فانّ الملوك لا تمدح بمثل هذا ، وأولى بهذه المجاراة أن تكون بين العدّائين كالسّليك بن السّلكة ، والشنفرى وأمثالهما ، فليس المجد مما يُنال بالعدو على الأقدام فيكون للأخمصين عملهما فيه ! قال البحترى :

إذا سؤددٌ دانَى له ، مَدَّ همَّهُ إلى سؤددٍ نائى المحلّ يُزاولُهْ

لم يقل مدّ قدمه ، أو طار بأخمصيه ، وهذا هو المتنبي يريك محل الأخمصين من المدح . قال :

وما تنقم الأيامُ ممَّن وجوهُها لأخمصهِ فى كلّ نائبةٍ نعلُ !؟

وله ، وفى الشطر الأول من البيت نظر :

فبأيّما قَدَمٍ سَعيتَ الى العلا أدُمُ الهلالِ لأخمصيكَ حذاءُ

وقال :

وكيف لا يُحسَدُ امرؤٌ عَلَمٌ لهُ على كلّ هامةٍ قَدَمُ ؟

وفصل الخطاب فى هذا الباب لشيخنا أبى العلاء المعرّى إذ يقول :

فالمرءُ يَقعدُ بالمكارمِ قائماً وَيقومُ فى طلب المعالى قاعدَا

على أنّا لا نظلم المتنبي فقد قال من قبل :

وحقٌّ له أن يسبقَ الناسَ جالساً ويُدرِكُ ما لم يُدركوا غيرَ طالبِ

وَيُحذَى عرانينَ الملوكِ ، وإنّها لمَنْ قدميْهِ فى أجلّ المراتبِ

بقىَ من البيتين قول صبرى : (وهو سبّاقٌ وعزمك أسبق) . يقول إنه اذا أراد أمراً سبق عزمه إرادته فكان ما يريد ، وهذا من المعانى المطروقة التى كَثُرَ تداولها لما فيها من غلوٍّ شديدٍ ، وإغراقٍ لا يستقيم فى العقول ، وعندى أنّ هذا النوع من أكبر عيوب الشعر وأظهر مساويه ، وقد يشفع فيه شيء واحد هو أن

يجىء فى باب الوصف المطلق ، فأما فى باب المديح فلا . ومن النوع المقبول عندى قول ابن هانىء فى وصف الخيل :

عُرِفَتْ بساحة سَبقها ، لا أنّها علقت بها يومَ الرهانِ عيونُ

وأجَلُّ علم البرق فيها أنهـــا مرّتْ بجانحتيْهِ ، وهى ظُنونُ !

وقول البحترى فى جواد :

جارَى الجيادَ ، فطارَ عن أوهامها سَبْقاً ، وكاد يطيرُ عن أوهامه !

قال المتنبي فى معنى صبرى :

اذا كان ما تنويهِ فعلاً مضارعاً مضى قبلَ أن تُلقَى عليه الجوازمُ !

وقال :

أمْضَى ارادتَهُ ، فسوفَ لهُ قدٌ واستقرَبَ الأقصى ، فثمَّ له هنا !

قال صبرى :

إن يُرتجلْ عُرفٌ ، فأنتَ الى الذى لم يرتجلهِ المالكونَ مُوفَّقُ

معنى قديم يظنه بعض المتأدبين أو كثيرٌ منهم من مبتكرات صبرى ، أو أن الأصل فيه قول شوقى فى بعض منثوراته : (فارتجل نظرةً فى السّماء) ، وليس كذلك.

قال طريح بن اسماعيل الثقفى :

وقد كنتَ تُعطينى الجزيلَ بديهةً وأنتَ لما استكثرتُ مِن ذاك حاقرُ

فأرجع مغبوطاً ، وترجعُ بالتى لها أوّلٌ فى المكرماتِ وآخرُ

ويقول ابن هانى ، والصورة واحدة :

أطافت بخرقٍ يسبقُ القولَ فعلُهُ فليسَ لِيوْمِيْهِ وعيدٌ ولا وعدُ

وقال الأبيوردي :

جاء النّدَى والبأسُ منكَ بديهةً لمّا كرهتَ الوعدَ والايعادا

وألمَّ المعرّى بهذا المعنى فقال فى السيف :

غِرَارَاهُ لِسانا مَشرَفيٍّ يقولُ غرائبَ الموتِ ارتجالا

وليس الموت قولاً ، فهو انما يريد الفعل . وقال ابن عمّار :

دوّى ليضربَ ، وابتدهتَ بضربةٍ ... انّ الطعانَ بداهةُ الفرسانِ

وقال ابن برد :

يا شاعرَ الحسنِ ، بى ترفّقْ ... لا تقتلنّى كذا بديها

قال صبرى :

سدّد سهام الرأى بالشورى يحِط ... بكَ منهُ فى ظُلمِ الحوادثِ فيلقُ

واسبقْ بهِ ، واضربْ بهِ ، وافتح به ... ما شئتَ من بابٍ أمامكَ يُغلقُ

يذكر صبرى فضل الشورى ، ويصف ما لأصالة الرأى من حسن الأثر فى تدبير الأمور ، وكيف أنه يغنى غناء الجيوش ويقوم مقامها ، وليس له من كلّ هذا شىء، فهو يردّد لنا أقوال الأقدمين ، ويبلغنا رسالاتهم . قال بشار بن برد فى المشورة :

إذا بلغ الرأىُ المشورة ، فاستعن ... برأىِ نصيحٍ ، أو نصيحةِ حازمِ

ولاتحسب الشورى عليك غضاضةً ... فانّ الخوافى قُوّةٌ للقوادمِ

فأما قول صبرى فى الرأى ووضعه موضع الجيش فمن قول بعضهم :

يُلفَى اذا ما الجيشُ كان عرمرماً ... فى جيشِ رأىٍ لا يُفَلُّ عرمرمِ

وقال البحترى :

وبعثت كيدكَ غازياً فى غارةٍ ... ما كان فيها السّيفُ غيرَ مُشيّعِ

وقال ابن الرومى :

تراهُ عن الحربِ العوانِ بمعزلٍ ... وآراؤه فيها وإن غابَ شُهّدُ

فأما ما قيل فى منزلة الرأى وأثره ، وسداده وجودته ، فما لا سبيل الى استقصائه وحسبك أن ندلّك على بعضه ، قال المتنبى :

الرأىُ قبلَ شجاعةِ الشجعانِ ... هو أولٌ ، وهى المحلُّ الثانى

ولربما طعن الفتى أقرانَهُ ... بالرأىِ قبلَ تطاعنِ الأقرانِ

وقال أبو تمام :

وما شىءٌ من الأشياء أقضى ... على المهجات مِن رأىٍ سديدِ

وقال يمدح :

مجرّداً سيف رأىٍ من عزيمته للبأس، صيقلُه الاطراقُ والفِكَرُ
عَضباً ، اذا سلّهُ فى وجهِ نائبةٍ جاءت اليه صُرُوفُ الدهر تعتذرُ

وقال ابن هانى :

فاذا بعثت الجيشَ فهو منيةٌ واذا رأيتَ الرأىَ فهو قضاءُ

وقال آخر :

وإن مضى رأيُـهُ أو حدُّ عزمتهِ تأخرَ الماضيان : السيفُ والقدرُ

وهل رأيت خللاً أو اضطراباً كالذى تراه فى قول صبرى عن الرأى :

واسبق بهِ ، واضرب بهِ ، وافتح بهِ ما شئتَ من بابٍ أمامكَ يُغلقِ ؟

إنّا إذا جرّدْنا هذا البيت عما فيه من خطل وتشويش وجدناه يمتُّ بصلة قوية الى قول الامام الشافعىّ :

الجدُّ يُدْنِى كلَّ أمرٍ شاسعٍ والجدُّ يفتحُ كلَّ بابٍ مُغلقِ

قال صبرى :

عوّدْتُ مجدكَ أن تنامَ وفى الحمى أملٌ عقيمٌ ، أو رجاءٌ مُخفقُ

وفى هذا المجد المعوّذ يقول المعرّى :

أعاذ مجدكَ عبدَ الله خالقُهُ من أعينِ الشُّهبِ ، لا مِن أعينِ البشَرِ

ويقول المتنبي :

كأنّ الردى عادٍ على كلِّ ماجدٍ إذا لم يُعوّذ مجدَه بعيوبِ

وفى معنى الأمل العقيم أو الرجاء المخفق ونحوهما يقول الشريف الرضى :

وما الفخـــرُ فى أدبٍ ناتجٍ يُضـــافُ إلى مَطلبٍ عاقرٍ

ويقول الأبيوردى فى المستظهر بالله :

يا خيرَ مَنْ ألقحَ الآمالَ نائلُهُ بمَوْعدٍ يَلِدُ النّعماءَ مضمونِ

ولأبى تمّام :

تُلقّح آمالاً وترجو نتاجَها وعمركَ مما قد ترجّيه أقصرُ

أما معنى بيت صبري فى قول الشريف الرضيّ :

نُعمى أميرِ المؤمنينَ حريَّةٌ ألاَّ تنامَ عن الرجاء المهمَلِ

قال صبري :

ولرُبَّ مُحْلٍ فى النهى متحكّمٍ قد كاد يخترمُ النفوسَ ويُوبِقُ
أرسلتَ فيه نظرةً ضَمِنَ الحجى والعلمُ نُصرتَها ، وقابٌ مُشفقُ
وأخذتَ رأيَ أُولي النُّهى مستوثقاً مستوزراً ، وكذا الحكيمُ يُدَقّقُ
حتى اهتديتَ الى الصوابِ ، ولم يزل بينَ الصواب وبين رأيكَ مَوْثقُ
وأهبْتَ ، فابتكر النضارُ سحائباً تَهمي ، وتفتقدُ المحيلَ ، وتُغدِقُ

ليس فى هذه القطعة شيء من المحاسن الفنية ، وهى كما تراها فى كثير من أجزائها ركيكة النظم ، متداعية البناء ، وموضع ذلك قوله فى البيت الثالث (وأخذت رأى أولى النهى) وقوله فى البيت نفسه (مستوزراً وكذا الحكيم يدقّق) فالجملة الأولى من السُّوقى المبتذل ، والكلمة الأولى من الجملة الثانية لا معنى لها فى هذا المقام . وسائرها من الكلام الذى يُجاء به لسدّ الفراغ فحسب ! ولا يشفع فى ذلك اطّراد المعنى فأنت ترى القلق بادياً فى هذا الجزء من البيت وهو قوله (وكذا الحكيم يدقّق) فأما قوله فى البيت الرابع (حتى اهتديت الى الصواب) فاتهام لرأى الممدوح وطعنٌ عليه ! ألا ترى أن الشاعر لم يغفل عن ذلك فى نفسه فاحتال لستر العيب وسدّ الخلل بقوله (ولم يزل بين الصواب وبين رأيك موثق ؟) وفى البيت الخامس من الاضطراب وسوء السياق ما تراه فهو يقول إنّ الأمير أهاب فابتكرت سحائب النضار – تهمى وتفتقد المحيل وتغدق – وما هكذا يكون الترتيب فى مثل هذه الصورة والصواب – تفتقد المُحيل فتهمى وتغدق – وقد أراد بالمُحيل الماحل أو ما فى معناه فأخطأ : فالمُحيل ما أتى عليه الحول من شيء أو صار من حال الى حال ، وهو ما يظهر لك واضحاً من قول ابن المعتزّ :

ألم تحزن على الرّبع المُحيلِ وآثارٍ وأطلالٍ مُحولِ ؟

ومن عيوب هذه الصورة المبالغة فى وصف الحال والتّجافى به عن الوجه الأمثل ، فالمعنى أن الأمير رأى الجهل فاشياً فى الأمة فأراد أن يُنقذها من غوائله بنشر العلم والمعرفة ، وليس فى هذا من غوامض الأمور ومشكلاتها ما يُثير هذه

الحركة أو يقيم تلك القيامة : يستشير الأمير ، ثم يستوثق ، ثم يستوزر ويدقّق ، ثم يهتدى الى الصواب بعد أن خفيَت وجوهه ، وتنكّرت معالمه ، ما هذا كله ؟ إنه لإسرافٌ فى القول كبير ، وليته كان من نوع ذلك الاسراف الذى ورد ذكره على لسان شاعرنا العظيم فى البيت الرابع من هذه القصيدة .

الحقُّ أن صبرى قد اتّهم الأمير كثيراً فى رأيه وفطنته ، وليس هذا هو المذهب حتى فى عظام الحوادث وجلائل الأمور ، قال مهيار الديلمىّ :

ودبّر الدنيا برأىٍ واحدٍ   يأنفُ أن يشركه فيها أحدْ
اذا استشار لم يزد بصيرةً   ولا يلوم رأيه اذا استبدّ

وقال الشريف الرضىّ :

يستمعُ الرأىَ ، وعنهُ غِنَى   قد يُصْقَلُ السَّيفُ ، وَلم يَطبَعِ

وقال البحترى :

اذا انسابَ فى تدبيرِ أمرٍ ترافدتْ   لهُ فِكَرٌ يَنجحْنَ فى كلِّ مَطلبِ

ومن قوله فى هذا المعنى :

إذا ما جرى فى حَلبةِ الرأى برّزتْ   تجاربُ معروفٍ له السبقُ قارحُ

وله :

تَشفُّ أقاصى الرأىِ فى بَدآتهِ   لعينى ، وَسِترُ الغيبِ غيرُ رَقيقِ

وله :

إذا المرءُ لم تبدهكَ بالحزم والحجى   قريحتُهُ لم تغنِ عنه تجاربهْ

وقال المتنبي :

قد كفتكَ التجاربُ الفكرَ حتى   قد كفاكَ التجاربَ الالهامُ

وقال سلام الخاسر ، ويروى لأبى نواس :

بديهتُهُ وفكرتهُ سواءٌ   اذا ما نابَهُ الخطبُ الكبيرُ
وأحزمُ ما يكونُ الدّهرَ رأياً   اذا عَىَّ المشاورُ والمشيرُ

فأما قول صبرى — بين الصواب وبين رأيك موثقُ — فانا نعرض عليك من الصُّوَرِ ما يدلك على مواضعه من الشعر القديم ، قال أبو نواس :

مَلِكٌ تقصر المدائحُ عنه هاشميٌّ ، مُوفَّقٌ للصوابِ

وقال ابن المعتز :

تنسابُ مِثلَ الأرقمِ المنسابِ كأنما تنظرُ عن شهابِ

بِعقلةٍ وَقْفٍ على الصوابِ

وليس هذا فحسب فانا نميل بك ناحية هى الى الانصاف أقرب ، وبالنقد الفنى الدقيق أشبه ، وأنت ترى أن هذا الموثق الذى عقده الشاعر بين الصواب وبين رأى الأمير يجعلها بمنزلة الحليفين أو العقيدين أو نحوهما ، وهذا أبو تمام يقول :

حليفُ ندًى ، وتِربُ علا ، إذا ما هتفتَ به ، وسَيفُ خليفتينِ

وقال :

مَلِكٌ إذا نُسِبَ النَّدى مِن ملتقى طرَفيه ، فهوَ لهُ أخٌ وحميمُ

وقال :

هذا أخوك الندى ، لو أنهُ بَشرٌ لم يُلفَ طرفةَ عين غيرَ مُبتسمِ

وهذه صورة أخرى من قول أبى تمام تعطى المعنى الذى انتحله صبرى :

مسترسلينَ الى الحتوفِ ، كأنما بينَ الحتوف وبينهم أرحامُ

فأما أن الجهل يميتُ النفوسَ كما يقول صبرى فقديماً قال المتنبي :

أماتكمُ مِن قبل موتِكم الجهلُ وجرَّكمُ مِن خفةٍ بكم النملُ

فأما قوله :

وأهبتَ فابتسكر النضارُ سحائباً تهمى ، وتفتقدُ المُحيلَ ، وتُغدقُ

فهو من حيث سحائب النضار ينظر الى قول بديع الزمان الهمذانى :

وكاد يحكيك صَوْبُ المزنِ منسكباً لو كان طلقَ المحيّا يمطرُ الذهبا

وقول أبى تمام :

بحرٌ من الجودِ يرمى مَوْجُهُ ذهباً حبابهُ فضة زِينتْ بعقيانِ

وأما ما ورد فى البيت عن عمل هذه السحائب وانها تفتقد المحول ـ لا المحيل ـ فتهمى وتغدق ، أمّا هذا فمن باب قول ابن المعتز فى السحاب :

لم يَدَعْ أرضاً من المحل إلا جاد أو مَدَّ عليها جناحا

وقال آخر يصف ديمة :

كأن عَناءً لها أن ترى يبيساً من الأرض لم يُبْلَل

قال صبرى :

إن أمرعت تلك الموات، وأورقت فيها الرياضُ ، فانما لك تورقُ

وإيراق الرياض من أهون صفاتها ، وأدنى منازلها ، وقد نزل الشاعر فى هذا على حكم القافية ، وما أكثر جنايات هذا الحكم ، فلو أنّ القصيدة كانت رائية لقال :

إن أمرعت تلك الموات وأثمرت فيها الرياضُ ، فانما لك تثمرُ

ولكن هذا أجود ، وما أظن المتنبى ترك لشاعرنا شيئاً من هذا المعنى بعد قوله :

إنّ البلادَ وإنّ العالمين لكا

قال صبرى فى ذكر دنشواى :

وأقلت عثرةَ قريةٍ حكم الهوى فى أهلها ، وقضى قضاءٌ أخرقُ

إن أنَّ فيها بائسٌ مما به وأرنّ ، جاوبه هناك مُطوَّقُ

جاء البيت الأوّل بعد قوله (إن أمرعت) فهو منقطع الصّلة بما قبله ، بل هو من المفاجآت المتناهية فى الشذوذ ، وأنت تعلم أىّ مطوّقٍ يريد فى البيت الثانى ، انه يريد حمام دنشواى ، فانظر الصّلة بين هذه الصّورة وبين قول ابن هانىء :

ليالىَ لا آوى الى غير ساجعٍ ببينك ، حتى كلّ شىءٍ حمائمُ

ولما التقت ألحاظنا وَوُشاتُنا وأعلنَ سرَّ الوشى ما الوشىُ كاتمُ

تأوّهَ إنسىٌّ من الخِدْرِ ناعمٌ فاسْعَدَ وحْشىٌّ من السدْرِ باغمُ

قال صبرى :

شكرتك مصرُ على سلامة بعضها شكراً يغرّبُ فى الورى ويشرّقُ

بيت مقفر من الروح الشعرى ، متجافٍ فى لفظه ومعناه عن أدب الفن ونظام الصناعة ، فان سلامة بعض مصر فى قول الشاعر وبقاء سائرها فى جانب آخر ليس من

الصُّوَرَ التى يصحّ أن تتمثّل فى مدارج الشكر ومواطن الثناء ، وقد ترادف ذكر التشريق والتغريب فى ميراثنا الشعرى فملته النفوس ، ومنه قول البحترى :

أشرّق أم أغرّبُ يا سعيدُ وأنقصُ من زماعى أم أزيدُ ؟

وقول الآخر :

شرّقْ وغرّبْ تجدْ من غادرٍ بدلاً فالأرضُ من تُربةٍ والناس من رجلِ

وقال البهاء زهير :

وحبستُ فى مصر عليك ركائبى غيرى يغرّبُ تارةً ويُشرّقُ

قال صبرى :

قانون دنشاوایَ ذاك صحيفةٌ تُتلى فترتاع القلوبُ وتخفقُ

هل يُرتجى صفوٌ ويهدأ خاطرٌ والموتُ حول نصوصها يترقرقُ ؟

أباح لنفسه فى البيت الأول ما ظنّ أنه من الضرورات الشعرية فجعل حركة الشين من دنشواى ألفاً ، وقد كان له متسع لو تحوط ، فأما أن الموت يترقرق حول نصوص قانون دنشواى أو صحفته فذلك ما سبق اليه ، وهو يتمثل فى كثير من الصور كقول بعض الاعراب فى اسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد :

له قلما بُوسٍ ونُعمى ، كلاهُما سحابتُه فى الحالتين درُورُ

وكقول ابن المعتزّ :

كم منَايا ، وكم عطايا ، وكم حتـ ـفٍ وعيشٍ ، تضمُّ تلك السُّطورُ

ومنه قول أبى تمام فى القلم :

لُعابُ الأفاعى القاتلاتِ لُعابُهُ وأرْىُ الجنَى اشتارتهُ أيدٍ عواسِلُ

ولسليمان بن وهب فى هذا المعنى :

إذا ماالتقينا وانتضينا صوارماً يكادُ يُصمُّ السّامعينَ صريرُها

تَظلُّ المنايا والعطايا شوارعاً تدورُ بما شئنا ، وتمضى أمورُها

بَقِى لونٌ من هذه الصُّورة يقوم فى قوله (يترقرق) وهو قائم على أشدّه نخامة وروعة فى قول المتنبيّ :

بَناها فأعلى وَالقَنا يَقرعُ القَنا ... وَمَوجُ المنايا حولها مُتلاطمُ

ومما قيل على لسان الحمامة لبعض الشعراء :

وَالموتُ يَلمعُ مِنْ جَناحَيْ خاطِفِ

قال صبرى :

لنْ تبلغ الجرحى شفاءَ كاملاً ... ما دام جارحُها المهنَّدُ يَبرقُ

وأقرب منه الى معنى البيت قول المتنبيّ :

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانِيـ ... ـهِ غِذاءٌ تضوَى بِهِ الأجسامُ

قال صبرى فى ختام القصيدة :

وَاللهُ عونُك إن ركبتَ الى العلى ... طُرقاً تَضلُّ بها الهُداةُ وَتفرقُ

والأمرُ أمرُكَ ، لا يُشابُ بريبةٍ ... والحكمُ حكمكَ ، وَالالهُ مُصدِّقُ

ويقول البحترى :

أللهُ جارُكَ ، تبتغى ماتبتغى ... فى المكرماتِ ، وترتقى ما ترتقى

وفى معنى الطرق يضلّ بها الهداة يقول المنخّل :

وديمومةٍ قفرٍ يحارُ بها القَطا

والقطا قلما يحار ، ومنه المثل (أهدى من القطا) ومن قول بعضهم :

تميمٌ بطرقِ اللؤمِ أهدى مِن القطا ... وَإن سلكتْ سُبْلَ المكارم ضَلَّتِ

وفى هذا المعنى يقول الآخر :

يحارُ فى حافتيْها المدلجُ الهادى

فأمّا فى معنى الخوف فيقول القطامى :

بكلّ مُخترقٍ يجرى السَّرابُ بهِ ... يُمسى وَرَاكِبُهُ من خوفه وَجِلُ

وفى البيت صُورة من قول صبرى — إن ركبت — وللأخطل :

وَجَوْزِ فلاةٍ ما يُغمِّضُ رَكبُها ... ولا عَينُ هاديها من الخوفِ تغفلُ

وقال المتنبيّ :

كم مَهمهٍ قذفٍ ،قلبُ الدّليل بهِ ... قلبُ المحبّ ، قضانى بعدَ ما مَطلا

وفى معنى البيت الأخير من القصيدة يقول المتنبّى :

والأمرُ أمرُكَ والقلوبُ خوافقٌ في موقفٍ بين المنيّةِ والمنى

وأقرب منه الى ذلك المنحى قول كمال الدين الفقية :

بَقِيتَ بقاءَ الدهرِ أمرُكَ نافذٌ وَسعيك مشكورٌ، وحُكمكَ مُنصفُ

لواء الحسن

مِن مطوّلات صبرى قصيدة رقيقة يصح أن تسمى (لواء الحسن) أو (ملك الجمال) فهى تُصوّر لنا جمال المرأة وسلطانها ، وترينا ما لهما من أثر بالغ ونفوذ كبير فى الحياة ، واذا لم يكن الشاعر ترجمان الجمال فمن يكونه ؟ وهل لفنه سوى المرأة تعلمه ما هو ، وتوحى اليه كيف تكون أنواعه وفنونه ؟ وهذه هى القصيدة ، قال صبرى :

يا لواءَ الحسنِ ، أحزابُ الهوى أيقظوا الفتنةَ فى ظلّ اللواءْ

فرّقتهم فى الهوى ثاراتهم فاجمعى الأمرَ ، وصُونى الأبرياءْ

إنّ هذا الحسنَ كالماء الذى فيهِ للأنفسِ رِىٌّ وشفاءْ

لا تذودى بعضَنا عن وِرْدِهِ دُونَ بعضٍ ، واعدلى بين الظِّماءْ

أنتِ يَمٌّ الحسن ، فيه ازدحمت سُفُنُ الآمالِ ، يزجيها الرجاءْ

يقذفُ الشوقُ بها فى مائجٍ بين لجّيْنِ : عناءٍ ، وشقاءْ

جعل صبرى المرأة فى مملكة الجمال كاللّواء ، تثور حوله معارك الحبّ بين أحزابه وتستيقظ الفتنة فى ظلّه — والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها الاّ فى هذه المعركة ، وتحت ذلك اللواء — اللهُ أكبر ياثاراتِ عُثمانا — لسنا فى ثارات عثمان رضى اللهُ عنه ، وانما نحن فى ثارات أحزاب الهوى الذين دبّت الفرقة بينهم ، فايقظوا تلك الفتنة النارية الحرّى ، الفتنة التى لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة ، ولكنها تَلُفُّ الأبرياء ، وتغمر الصالحين والمتقين من أمّة الحبّ ورعيّة الجمال ، هو الجمال أيقظ هذه الفتنة الحامية وأثارها ، وسقى هؤلاء وهؤلاء نارها ، هم جميعاً أبرياء ، وهو هو المستبدّ العادل ، ما ظلم يوماً ولا أساء . قال أبونواس فى شأن هذه الفتنة :

ما براها الله الاّ فتنةً حين بَرَاها

وقال :

رشأٌ لولا ملاحته خلت الدنيا من الفتن

وقال :

كلُّ جزء من محاسنه فيه أجزاءٌ من الفتن

وليس هذا وحده ، فقد أكثر الأولون من ذكر هذه الفتن ، وانّ صبرى لعلى هذا الأثر وفى ذلك السنن :

فرّقتهم فى الهوى ثاراتهم

صدق ، فقد قيل قبل هذا :

قامت حُرُوبُ الهوى على ساق

فاجمعى الأمر ، وصونى الأبرياء !

ولِمَ يكون هذا وقد قال ابن الفارض :

تجمّعت الأهواءُ فيها ، فما ترى بها غيرَ صبٍّ لا يرى غير صبوتى !

وقال مسلم بن الوليد قبله فى الرشيد :

اذا اختلفت أهواءُ قومٍ جمعتهم على العفو أو حدّ الحسام المهنّدِ

وجاء ابن هانى بعده فقال للمعزّ :

وتجمعت فيك القلوبُ على الرضى وتشعبت فى حُبّكَ الاهواءُ

فاجمعى الأمر ، وصونى الابرياء !

هو أقرب من هذا كلّه الى قول صفىّ الدين الحلى :

لعلّ الحبّ يرفق بالرعايا فيأخذ للبرىء مِن المُليم

***

انّ هذا الحسنَ كالماء الذى فيهِ للأنفس رىٌّ وشفاءْ

بين الحسن والماء مسافةُ ما بين الاسم والكنية من قرب ، بل هما إن شئت المزيد بمنزلة الجفن والهدب ، كلٌّ يحمل صفة صاحبه ، ويأبى أن يجرى عليهما حكمُ الفاعل ونائبه . الحسن ماء ، والماء حُسن ، هما فى صفة واحدة ، عملهما واحد ، يقع فى دائرة واحدة هى الحياة . هكذا يقول صبرى وما هو بمتهم ، ومن قبل قال الابيوردى :

للحسن أمواهٌ تروق بروضهِ وعلى جوانبهِ الدماءُ تراقُ

دع عنك إغارته على المتنبي في ذكر الشرف الرفيع وكيف يسلم وكن كأنك لا تعرفه ، إنما نحن بسبيل أمواه الحسن فهنا قتلى تراق دماؤهم حولها ، وهناك في بيت صبري نفوس ترويها هذه المياه فتحيا ، ولولاها لذهبت قتلى ولكل وجهة .

ولقد تظرّف الابيوردي إذ يقول في قصيدة أخرى :

يقولون ماء الحسن تحت عذاره على حاله الأولى ؛ وذاك غرور
ألسنا نعافُ الماءَ من أجل شعرة إذا وقعت في الماء ، وهو نمير ؟

ولكن ماء صبري ولله الحمد مصون من شعر الأبيوردي لاختلاف الموردين .

ولأبي القاسم العطّار في المعنى :

رقّت محاسنه ، وراقَ نعيمُها فكأنما ماءُ الحياةِ أديمُها

ولقد حام أبو تمّام على ماء الحسن فتناوله ، وسقى عشّاق أدبه الصافي من نميره العذب ما أراد فقال :

صَبَّ الشبابُ عليها وهو مقتبلٌ ماءً من الحسن ما في صفوه كَدَرُ

وقال في لونٍ آخر من الوصف :

خاضت محاسنَها مخاوفُ غادرت ماءَ الصِّبا والحسنِ غيرَ زُلالِ

ومن محاسن البهاء زهير قوله في هذا الباب :

ريَّانُ مِن ماءِ الجمال مهفهفٌ أرأيتَ غُصنَ البانِ كيف يميلُ ؟

قال صبري :

لا تذودي بعضنا عن وِردهِ دُونَ بعضٍ ، واعدلي بين الظماء

يريد قسمة الماء ، وما هو بظالم ، ومن العناء أن يكون الشأن على حدّ ما قال الأوّل :

تحومُ فتغشاها العِصيُّ ، وحولها أقاطيعُ أنعامٍ تُعَلُّ وتُنهَلُ

ولك أن تقول :

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمروٍ بصاحبكِ الذي لا تَصبحينا

قال صبري :

أنتِ يمُّ الحسنِ ، فيه ازدحمت سُفُنُ الآمالِ يُزجيها الرجاءُ

يقذفُ الشوقُ بها فى مائجٍ بين لُجَّيْنِ ، عناءٍ وشقاءْ

لهذه الصورة أشباه فى أشعار السَّلَف الأسبق ، قال بعضهم فى الدنيا :

فكّروا فيها ، فلمّا علموا أنها ليست لحيٍّ وطنـا
جعلوها لُجَّةً ، واتّخذوا صالحَ الأعمالِ فيها سُفُنا

وهذه صورةٌ أخرى للسراج الورّاق :

يا بنى الآمالِ قد خاتَ الرجاءْ وقد اشتدَّت ، وقد عزَّ العزاءْ
سُفُنُ الآمال فى بحرِ المنى وحلتْ منا ، فأين الرؤساءْ ؟

وهذه صورة ثالثة لأبى القاسم بن العطّار :

الحبُّ تَسبحُ فى أمواجه المهجُ لو مَدَّ كَفّاً إلى الغرقى بهِ الفرجُ
بَحْرُ الهوى غرقت فيه سواحلُه فهل سمعتم ببحرٍ كلُّهُ لُجَجُ ؟

لم يبق بعد هذا من مرية فى أن شاعرنا رحمه الله لم يخترع هذه الصورة ، ولقد يُخيَّل الينا أنه كان أكثر نظراً إلى قول السراج الورّاق فكما قال هذا (سفن الآمال فى بحر المنى) والآمال والمنى بمعنى ، كذلك قال صبرى (سفن الآمال يزجيها الرجاء) والآمال والرجاء بمنزلة واحدة ، وعجيبٌ أن يغفل صبرى عن مثل هذا ، ولِمَ تكون سفن الآمال عنده بين لجّين من عناء وشقاء وهى تزجى بقوّة الرجاء وعلى يده كما يقول ؟ وما هو وجه التنويع فى قوله عناء وشقاء ، وهما مِن جنس واحد ، فما بينهما من تفاوت ؟ كل هذا من الزلل أو أشدّه ، قال :

ساعِفى آمالَ أنضاء الهوى بقبولٍ من سجاياكِ رُخاءْ
وتجلّى واجعلى قومَ الهوى تحت عرش الشمس فى الحكم سواءْ

فى قوله (قوم الهوى) بعد (أنضاء الهوى) أثر واضح من آثار الفقر الذهنى والفاقة البيانية ، وقد كثر استعمال هذه الأنضاء هى ومُضافها صورة ومعنى فى أشعار المتقدمين حتى لقد صارت السلامة فى اجتنابها ، ومنه قول الطغرائى (يقتلن أنضاء حبٍّ لا حراكَ بها) وقول البحترى :

فان تُلفِنى نِضْوَ العظامِ فانها جريرةُ قلبى منذ كان على جسمى

أما ما أفرغه فى الشطر الثانى من البيت على السجايا من صفة القبول وهى ريح الصَّبا فكذلك هو من القديم المستعمل ، قال أبو تمام :

خُلُقٌ مُشرقٌ ، ورأىٌ حسامٌ ووِدادٌ عذبٌ ، وريحٌ جَنوبُ

وأدقُّ من هذا فى الوصف قول البحترى :

خُلُقٌ طَيِّعٌ إذا رِيضَ للجو دِ انثنى عِطفُهُ ، وطَاعَ عِنانُهْ

فى البيت الثانى عرش الامارة ونظام الحكم ، وليس من حقّنا ونحن بسبيل الفنّ أن نداعب روح شاعرنا العظيم وهو يضع لمملكة الجمال ودولة الحب نظاماً باطلاً كهذا — إنه يريد النّصفة والسّويّة . وما بهذا ومثله يرتفع شأن المملكة أو يستقيم أمر الدولة ، لا القوة الحاكمة تستطيع الأخذ بهذا الدستور الأخرق ، ولا الرعية على ضعفها وشدة حاجتها تقبل أن تُحكم بهذه الشريعة الظالمة ، ومن اتخذ مذهباً غير هذا أوحاول أن يتخذه فقد جهل حقَّ الجمال وعمىَ عن معنى الحب ، لسنا بسبيل هذا كما قلنا ، فلننظر الى هذا الملك الكبير هل هو من مؤسسات شاعرنا ؟ كلاَّ وإليك البيان ، قال زين الدين بن الوردى :

يا أميرَ الجمالِ قُلْ فالمراسيم تُستمعْ !

وقال أبو محمد بن سارة :

كم قد رأت عيناىَ مثلك والياً للحسن، تنتهب النفوسَ جنودُهُ

الدهرُ طوعُ يديه ، والدنيا لهُ أَمَةٌ ، وأحرارُ الأنامِ عبيدُهُ

ويقول آخر :

فتعطف على رعاياك يا مَنْ علقت كفُّه لواءَ الجمالِ

ومن أشهر ما قيل فى هذا الباب قول ابن النبيه :

أيا ملكَ القلوب فتكتَ فيها وفتكك فى الرعيّة لا يحلُّ

ومن ملح السّراج الورّاق قوله فى أحد هؤلاء الملوك وكان قد حلق حاجبه :

سلطانُ حسنٍ زاد فى عدلهِ فاختار أن لا يبقى بلا حاجب !

قال صبرى :

أقبلى نستقبل الدنيا وما ضمنته مِن معدّاتِ الهناءْ

واسفرى ، تلك حِلًى ما خُلقتْ لتوارَى بلثامٍ أو خباءْ

واخطرى بين النـدامى يحلفوا أنّ روضاً راح فى النادى وجاءْ

وانطقى ، ينثر اذا حـدثتنا ناثرُ الدرّ علينـا ما نشـاءْ

لو خلا البيت الأول من (معدّات الهناء) لكان خيراً ، وما رأيت هـذه المعدات الثقيلة وقعت فى شعر قبل هذا ولا بعده . وفى الهناء خلاف لغوىٌّ يعذر فيـه الذين ينكرون استعمال هذه الكلمة على الوجـه المراد فى البيت . ولكنهم يخطئون فى قولهم ان الصحيح هناءة فالكلمتان بمعنى واحد ، وهما من المصـادر لقولهم هنأ الطعام اذا ساغ ، ولم أرهما فى الفصيح المهذب من الكلام ، ولا معوّل على قول ابن نباتة .

هناءٌ محا ذاك العزَاء المقدّما فما عبس المحزونُ حتى تبسّما

ولا على قول بعض المغاربة :

وفتيانِ صدقٍ عرّسوا تحت دوحةٍ وليس لهم الاّ الهنـاء فراشُ

فى البيت الثانى اعادة وترديد لكثير من أقوال المتقدمين ، وهذه أمثلة منها ، قال أبو تمام :

ألقى النصيفَ ، فأنتِ خاذلةُ المهـا أُمنيّـةُ الخالى ، ولهوُ اللاّهى

ولأبى الحسن التهامى :

حُطى النقابَ ، لعلّ سِربَ عيوننا فى روضِ حسنكِ يرتعين قليلا

وانظر الى منطق الشاب الظريف إذ يقول :

لك حُسنٌ وللأنامِ قلوبُ

ولغيره فى هذا المنحى :

يا أحسنَ العـالمين وجهـاً ما لكَ من أن تحبَّ بُدٌّ

كلّ هذا يعطى الصورة التى اشتمل عليها بيت صبرى ، وهو فى بعض لفظه ومناه يمتّ بصلةٍ قويةٍ الى قول مهيار الديلمى فى الثنايا :

لو لم تكن مخلوقةً للرّشف ، لم يُخلقن فُلْجا

شُبِّهت النساء بالرياض كما شُبِّه الرجال بها . وكثر ذلك فى الأدب القديم كثرة بالغة ، فليس فى البيت الثالث أمر جديد ، وقد تروعك تلك الصورة الوصفية التى تريك الروض يذهب ويجىء فى النادى ، ويزيدها روعةً فى ذاتها واستقراراً فى نفسك أن يحلف الندامى كما يقول الشاعر أنها صورة صادقة ، وقد شاء مثل هذا فى توكيد الخبر الوصفى أو الصورة التشبيهية فهو كذلك من آثار الأولين ، ومنه قول أبى تمام :

والسيفُ يحلفُ أنّك السيفُ الذى ما اهتزَّ الا اجتثَّ عرشَ عظيمِ

واليك من الصوّر الأولى ما يمحو من نفسك ذلك الأثر الذى علق بها من بيت صبرى ، قال أبو تمام :

خرجن فى خضرةٍ كالروضِ ليس لها الا الحلىَّ على أعناقها زَهَرُ

هكذا وجدت البيت ، ولا معنى للخضرة هنا الا اذا أريد بها وصف الثياب ، وهو ما لا أظنه ، وقد جاءت الخضرة بمعنى النعومة وذلك أقرب الى المراد ، وما أظن الكلمة الا محرّفة ، ولعلها فى الأصل (نضرة) . وقال من قصيدة أخرى :

غيداءُ جادَ وَلىُّ الحسنِ سُنَّتَها فصَاغَها بيديهِ روضةً أُنُفا

ولابن خفاجة الاندلسى :

يا بانةً تهتزّ فينانةً وروضةً تنفحُ مِعطارا

وقال طاهر البغدادى فزاد عليه :

خطرت فكاد الطيرُ يخطر فوقها إنّ الحمامَ لمغرمٌ بالبانِ

ولعلّ روض شاعرنا الذى يذهب ويجىء فى النادى أشبه شىء بروض كشاجم أو بطاووسه العزيز حيث يقول فى رثائه :

رُزِئتهُ روضةً تروق ولم أسمع بروضٍ يمشى على قدمِ !

وفى معنى المشى يقول أبو نواس :

بدرُ تمٍّ فى قضيبٍ مُورقٍ مَن رأى بدراً على الأرض مشَى؟!

وهذا هو البحترى لا يكفيه أن يأتى بالروض ماشيا فهو يسوق الربيع كله الى ممدوحه ويضعه بين يديه ، قال :

أتاكَ الربيعُ الطلقُ يختالُ ضاحكاً	من الحسنِ حتى كاد أن يتكلما

نريد الاكتفاء بهذا، وبأبي ابن المعتز وابن هانيء إلا أن يكونا من هذه الجهرة فقد قال الأول :

وقفتُ بالروضِ أبكى فقدَ مُشبهِهِ	حتى بكت بدموعى أعينُ الزَّهَر

وقال الثاني :

وما خِلتُ أنّ الروض يختال ماشياً	ولا أن أرى فى أظهُرِ الخيل عبقرا

انتهينا الى البيت الرابع « وانطق ... » وفى معناه يقول البحترى :

ولمّا التقينا واللّوى موعدٌ لنا	تعجّبَ رائى الدرّ منا ولاقِطُهْ

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها	ومن لؤلؤٍ عند الحديث تساقِطُهْ

وللثّوريّ :

ترى الدرَّ منثوراً إذا ما تكلّمت	وكالدّرّ منظوماً إذا لم تكلّمِ

وقال على بن عطية البلنسيّ :

كلمتنى فخلتُ دُرّاً نثيراً	وتأمّلتُ عِقدَها هل تناثرْ ؟

وللأمير محمد بن منجك :

وكأنّ الحديثَ منه هو اللّؤ	لؤُ يرفَضُّ بيننا والجُمانُ

قال صبرى :

وابسمى ، مَنْ كان هذا ثغرُه	يملأ الدنيا ابتساماً وازدهاءْ

لا تخافى شططاً من أنفسٍ	تعثرُ الصّبوةُ فيها بالحياءْ

ويقول أبو نواس فى معنى البيت الأول ، وفيه زيادة ظاهرة :

ظبيٌ لمَبْكاهُ ومَضحكِهِ	فينا تُنيرُ وتُظلمُ الدُّنيا

وأمّا ما قيل فى معنى العفّة وهو محصّل البيت الثانى فكثير ، ومنه قول مضرّس بن الحارث المرّى :

تتوقُ اليكِ النفسُ ثمَّ أردُّها	حياءً ، ومثلى بالحياء خليقُ

وقال مسلم بن الوليد :

أخذتُ لطرفِ العينِ منها نصيبَهُ وأخليتُ مِن كفّى مكانَ المخلخَلِ

ولعبد الله بن المعتزّ :

كم قد خلوتُ بها وثالثُنا التُّقى يحمى على الظمآن بَرْدَ الموردِ

وقال المتنبي :

يَرُدُّ يداً عن ثوبِها وهو قادرٌ ويَعصى الهوى فى طيفها وهو راقدُ

ولغيره :

ما إنْ دعانى الهوى لفاحشةٍ إلاّ عصاه الحياءُ والكرَمُ

وقال آخر :

فعصيتُ سُلطانَ الهوى وأطعتُ سُلطانَ العفافْ

وللشريف الرضىّ :

بتنا ضجيعينِ فى ثوْبَىْ هوًى وتُقًى يَلُفُّنا الشوْقُ من فرعٍ إلى قدمِ

وله :

وإذا هممتُ بمن احِبُّ أمالنى حَصَرٌ يعوقُ ، وعفّةٌ تنهانى

هذا شىء مما جاء فى معنى العفة والحياء ، وفى البيت جمال فنىّ يتمثل فى الصبوة تعثر بالحياء . وليست هذه بالعثرة الأولى تقع بين الشىء والشىء ، فان لها نظائر كثيرة فى أشعار المتقدمين ، قال الشريف الرضىّ :

فى موقفٍ تُغضى العيونُ مهابةً فيه ، ويَعثرُ بالكلامِ المنطقُ

وقال الأبيوردى :

أرى نظراتِ الصَّبِّ يعثرنَ دونها بأعرافِ جُردٍ أو رءوسِ عوالِ

وللقائد أبى الرضاء :

يا قالةَ الشعر قد نصحتُ لكم ولستُ أدْهى إلاّ من النُّصحِ

صونوا القوافى ، فما أرى أحداً يَعثر فيهِ الرجاءُ بالنجحِ

قال صبرى :

أنت رُوحانية ! لا تدّعى أن هذا الحسنَ من طينٍ وماءْ !

وقال شوقى :

صُونى جمالَكِ عنا ، إنّنا بشرٌ من التُّرابِ ، وهذا الحسنُ روحانى

وسواء كان المتقدم صبرى أو شوقى فالوصف قديم ، والصورة ترجع الى العصر الاول ، حتى أن القرآن الكريم لم يخل منها (فَلمّا رَأيْنَهُ أكْبَرْنَهُ وَقطّعْنَ أيْديَهنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِله مَاهذا بشَراً إنْ هَذا إلاّ مَلكٌ كَريمٌ)

قال شاعر قديم :

أوَ حْشِيَّةَ العينينِ أين لكِ الأهلُ ؟ أبالحَزْنِ حَلّوا ، أم مَحلّهمُ السّهلُ ؟

وَأيّةُ أرضٍ أخرجتكِ ؟ فانّنى أراكِ من الفردوسِ ، إن فُتّشَ الأصلُ

قِفى خبّرينا ، ماطَعمتِ ، وما الذى شَربت ، ومن أين استقلّ بك الرحلُ ؟

فانّ علاماتِ الجنانِ مُبينةٌ عليك ، وإنّ الشّكلَ يَتبعهُ الشّكلُ

ولأبى تمّام :

إنْسِيّةٌ إن حُصّلَتْ أنسابُها جِنّيّةُ الأبوين ، ما لم تُنسبِ

وله :

ياهذهِ أقصرى ، ماهذهِ بَشرٌ ولا الخرائدُ من أترابها الأُخَرُ

وقال الحسن بن هانى :

وَمُضمّخاتٍ بالعبيـ ... ـرِ نَزلنَ مِن غُرَفِ الجِنانِ ؟

أقبلنَ مِن بابِ الرّصا فةِ كالتماثيلِ الحِسانِ

وللشريف الرضى :

أنا منكَ فى كمدٍ على كمدِ يومى عَلىَّ أمرُّ من أمسى

جِنّيّةٌ ، وَقبيلُها بَشرٌ عَظُمَ البلاءُ بها على الانسِ

ولبعض الشعراء (أهلاً بهِ مَلكاً فى زِىّ إنسان) ولغيره :

أخرجه رضوانُ مِن دارهِ مخافةَ أن تُفْتَتنَ الحورُ

قال صبرى :

وانزعى عن جسمك الثّوبَ يبِنْ للملا تكوينُ سُكّانِ السّماءْ

وأرى الدنيا جَناحىْ مَلكٍ خلفَ تمثالٍ مصوغٍ من ضياءْ

ذهب البيت الأول بكل ما فى القصيدة من أدب القول ونزاهة النفس ، ولقد كان فى قول الشاعر « واسفرى .... البيت » مايكفى ولكنه أبى الا أن يتزيّد فيطلب نزع الثياب ، وعجبت لشاعرنا النافذ البصر خليل مطران كيف يُغضى عمّا فى هذا البيت من شطط خلقى كبير وهو يمتدح هذه القصيدة فى (المجلة المصرية) وينزّهها عمّا وقع لبعض الشعراء المتقدمين فى باب الغزل والنسيب من مستنكر الوصف وساقط القول ، ولقد ازدحمت المعانى فى البيت الثانى ازدحاماً يمثل لك لوحة من الصور الشمسية اختلطت فيها الرسوم والأصباغ حتى ما تكاد تستبين كلّ رسم أو لون على حدة — انّ صبرى يضع أمامك صورة الدنيا كأجمل ما يكون الحسن ، وأحسن ما يكون الجمال ، ولكنك حين تكدّ ذهنك لتفهم كيف تكون هذه الدنيا كجناحىْ ملك يقوم خلف تمثال من الضياء ، وما وجه الشبه بينها وبين هذين الجناحين ، وما هو هذا التمثال ، وما موضعه ومعناه من الصورة التشبيهية أو المجازية أو أية صورة أخرى هى ما هى — انك حين تكدّ ذهنك لتنتزع من كل هذه الصورة الجميلة فى ذاتها ، بل المتناهية فى الجمال ، صورة معنوية ذات لون خاص ، أو دلالة خاصة ، لا تستفيد شيئاً آخر سوى ما اجتمع لك عند النظرة الأولى ، فحاصل البيت أن الدنيا جميلة ، وإذا كان الشاعر بصدد المرأة فلك أن تفهم أن هذا الجمال ممثّل فيها ، واذا أنت توسّعت فى استنباط الأغراض والمعانى جعلت لجمال العفة والحياء وأدب النفس ، وهو ما ذكره فى هذه القصيدة ، مكانه فى هذه الصورة الخرساء . ولعلك واجدٌ شبهاً بين هذا الذى يقوله صبرى وبين قول صلاح الدين الصفدى فى صفة القمر يبدو من خلال الغصون وفيه خطأ كما سيجىء :

كأنما الأغصان لمّا انثنت أمامَ بدرِ التمّ فى غيهبهْ
بنتُ مليكٍ خلفَ شبّاكها تفرّجت منه على موكبهْ

لا أقول أن الشبه تام بين الصورتين ولكنه متقارب ، فأنت حين تعكس الصورة القائمة فى هذه البيتين وتقف وراء الغصون مستقبلاً القمر وهو يطالعك من خلالها تتمثل لك تلك الصورة التى يسوقها صبرى اليك فى وصف الدنيا وتصويرها ، ففى هذه الغصون مَشابهُ من جناحىْ الملك ، والقمر هو التمثال المصوغ

من الضياء ، ومثل هذه الصلة الوثيقة بين الصورتين مما يدركه علماء النقد وينظرون اليه نظراً واسعاً ، فجائز عندهم أن يقال إن بيت صبرى مأخوذ من هذين البيتين اللذين لم يسلم صاحبهما من الخطأ ، بل هو قد أخطأ خطأ فاحشاً من جهة الوضع التشبيهى ، فهو قد أراد تشبيه القمر وهو يبعث بأنواره من وراء الغصون ببنت الملك تطل من خلف شباكها لترى الموكب فأطلق هذا التشبيه على الأغصان لا عليه ، وقد نقده ابن حجة الحموى صاحب (خزانة الأدب) وأورد قول محيي الدين ابن قرناص فى تصحيح هذه الصورة :

وحديقةٍ غنّاءَ ينتظم النَّدى   بفروعها كالدُّرّ فى الأسلاكِ

والبدرُ يُشرق من خلال غصونها   مثلَ المليحِ يُطلُّ مِن شبّاكِ

ولشاعرنا المظيم قصيدة فى رثاء بطرس غالى باشا من أبياتها :

فتشتُ ، لمّا لم تجد مقلتى   كفؤاً ، عن الفضل ليبكى معى

فقيل لى : قد سار فى إثره   يَوم دفنّاه ولم يرجع !

لم يقل شيئاً ، فقد أسرف الشعراء فى مثل هذا ، ومنه قول أبي تمام :

ولم أنسَ سعيَ الجودِ خلفَ سريرهِ   بأكسفِ بالٍ ، يستقيم ويطلعُ

وَما كنت أدرى ، يعلم الله ، قبلها   بأن النَّدى فى أهله يتشيّعُ

ولك فى هذه الصُّورة الكثيرة الوجوه والنواحى ما يدلك على اختناق الروح الفنى فى قول شاعرنا :

سار ولم يرجع ... ، ولبعضهم فى هذا الباب :

ثوى الجودُ والكافى معاً فى حفيرةٍ   ليأنسَ كلٌّ منهما بأخيهِ

وقال الحسين بن مطير الأسدى :

ولما مضى مَعنٌ مضى الجودُ والنَّدى   وأصبح عرنينُ المكارمِ أجدعا

قال صبرى :

يانازلاً بَيْنَ وُفودِ البِلَى   آنستَهم يامُوحشَ الأربعِ

وقال شاعر قديم :

أمّا القبورُ فانّهنّ أوانسٌ   بجوارِ قبرِكَ ، والدّيارُ قبورُ

ولأبى بكر بن الصائغ :

لئن أنست تلك القبورُ بلحده — لقد أوحشت أقطارُهُ وقصورهُ

وعلى هذا المنهاج درج البهاء زهير فى قوله يرثى بعض أصحابه :

الدّارُ مِن بعدك قد أصبحت — فى وحشةٍ يا مؤنسَ الدارِ

ولولا القافية وعنادها لقال يامؤنس القبر ، وقد توسع المعرّى فى هـذا المعنى فقال يرثى الشريف الطاهر الموسوىّ :

إن زاره الموتى كساهم فى البلى — أكفانَ أبلجَ مُكرمِ الأضيافِ

قال صبرى :

عينىَ فيـك اليـوم (قبطيّـة) — تروى الأسى عن (مُسْلمٍ) مُوجعِ

والشطر الأول من هذا البيت صورة ناطقة من قول ابن خفاجة الاندلسى :

عَينى بهِ عَـينٌ مجوسيّةٌ — تعبدُ مِن وجنتهِ نارا

ومسلمٌ من رواة الحديث ، وهـذا هو التوجيه عنـد البديعيين ، ومنه قول ابن نباتة المصرى :

مَلك باهرُ المـكارمِ يروى — وَجهُ لُقياهُ عن (عطاء) و(بشرٍ)

ولغيره فيه :

عن (نافعٍ) وَصْلهُ رَوى لى — كما رَوى الهجرُ عن (ضرارٍ)

ومن أجود ما قيل من هذا النوع قول ابن رشيق القـيروانى فى الأمير تميم ابن المعزّ :

أصحُّ وأعلى ما سمعناه فى الندى — من الخبر المأثورِ منذ قديمِ

أحاديثُ ترويها السُّيول ، عن الحيا — عن البحر ، عن كف الأميرِ تميمِ

وقد عدُّوا الغاية فى هذا الباب قول علاء الدين الوداعى :

مَنْ أمَّ بابكَ لم تبرح جوارحهُ — تروى أحاديثَ ما أوليتَ من مِننِ

فالعينُ عن (قُرَّةٍ) والـكفُّ عن (صلةٍ) — والقلبُ عن (جابرٍ) والأذنُ عن (حسنِ)

وبيت صبرى اذا قيس بهذا المقياس وأعفى من عيب التقليـد وقع فى النمط الأوّل والمنزلة العليا من هذا النوع ، وليس هذا بسبيلنا فنحن نريد إطلاق الروح

الفنى وتحريره من أمثال هذه القيود الصناعية التى ذهبت بمجد الأدب ، وأفسدت ما له من قوانين وأحكام . ولقد بلغ من أمر رجال المدرسة البديعية الذين أحدثوا هذه البدع المنكرة فى عالم الشعر أن جعلوا أشعار الفحول من غير فريقهم فى المنزلة الثانية ، وحسبك من هذا العبث أن ترى ابن حجة شيخ علمائهم يبالغ فى التشيّع لفنه حتى ليكاد يقضى لصفىّ الدين الحلّى وابن نباتة على المتنبي فيما وصف به قصيدتين لهما فى معارضة أبى الطيب ، وقد جعلا موضوع هذه المعارضة قصيدتيه اللتين يقول فى مطلع احداهما :

بأبى الشموسُ الجانحاتُ غواربا ... اللابساتُ من الحرير جلاببا

ويقول فى مطلع الثانية :

أرَقٌ على أرقٍ ، ومثلىَ يأرقُ ... وجوًى يزيدُ ، وعَبرةٌ تترقرقُ

فقال صفىّ الدين :

أسبلنَ من فوقِ النُّهود (ذوائبا) ... فتركنَ حبّاتِ القلوبِ (ذوائبا)

وقال ابن نباتة :

ما بتُّ فيك بدمع عينى (أشرقُ) ... إلاّ وأنتَ من الغزالةِ (أشرقُ)

وكل هذا من أجل ذوائب وذوائب ، وأشرق وأشرق ، وهم يسمون هذا النوع الجناس التامّ ويكثرون منه ، فانظر أى شىء من السموّ الفنى فى هذه الصناعة ! وإليك لونين من قصيدة ابن نباتة فتذوّقهما وارجع الى أثرهما فى نفسك لترى أيّهما هو الشعر ، قال :

يَمتارُ من دمعى عليك ذوو البُكا ... فاعجبْ له من (سائلٍ) يتصدّقُ

يا حبذا ليلٌ (نبيعُ) به الكرى ... لكننا (لا عَنْ رِضًى نتفرّقُ)

ما سرّنى أنّ (الكُميتَ) بحثّها ... يحوى السُّقاةُ ، وأنّ فودى (أبلقُ)

هذا هو اللون البديعى أو الصناعى ، فانظر ما يقول بعد هذا وللحكم :

قومٌ لذكراهم على صُحف العلى ... أصلُ الفخار، وكلُّ ذكرٍ مُلحقُ

الملكُ بعضُ ديارهم ، فلينزلوا ... والنجمُ بعضُ جُدودهم ، فليرتقوا

هذا ولا ريب خير اللونين ، وأقوم السبيلين . ولسنا نعادى البديع فى ذاته فهو

عنصر فنى كبير الشأن ، ولكنا نكره أن يكون صناعة فاشية ، وأن يكون له مثل تلك الغلبة وذلك الطغيان . انظر الى قول عبد المطلب جدّ النبي ﷺ :

لا ينزلُ المجدُ إلا فى منازلنا   كالنوم ليس له مأوى سوى المقلِ

فذلك هو « الاستطراد » عند البديعيين ، ومنه قول القاضى الفاضل :

فكأننى ألفٌ ولامٌ فى الهوى   وكأن موعدَ وصلكم تنوينُ

هذه ملحة لا شك فيها ، ولكن أين هى من ذلك الجلال وتلك الفخامة ؟ ومن مُلح القوم فى باب الاستعارة قول ابن رشيق :

بادرْ الى اللذاتِ ، واركب لها   سَوابق اللهوِ ذواتِ المراحْ

مِن قبل أن ترشفَ شمسُ الضحى   ريقَ الغوادى من ثغور الأقاحْ

وقول الوليد بن حيان الشاطبي :

فوق خدّ الوردِ دمعٌ   من عيونِ السحبِ يُذرفْ

برداء الشمسِ أضحى   بعد ما سال يُجفّفْ

ومن مختار ما يقع فى هذا الباب قول مجير الدين بن تميم :

وليلةٍ بتُّ أسقى فى غياهبها   راحاً تسُلُّ شبابى مِن يدِ الهرمِ

ما زلتُ أشربها حتى نظرتُ إلى   غزالةِ الصبح ترعى نرجسَ الظلمِ

كلّ هذا مستحسن ، وجميل أن يقول ابن سكرة أحد غلاتهم :

قِيلَ ما أعددتَ لِلبَرْ   دِ ، فقد جاء بشدّهْ

قلتُ درّاعةُ عرىٍ   تحتها جُبّةُ رِعدهْ

ولكن أين هذا من قول ذى الرمّة :

أقامت بها حتى ذَوَى العودُ فى الثرى   وَلفَّ الثريا فى مُلاءته الفجرُ

وقول الراعى :

هُمُ كاهلُ الدّهرِ الذى يتقى به   وَمنكبُهُ ، إن كان للدّهر منكبُ

انظر الى الاعرابى كيف يتوقر فى شعره فيقول « إن كان للدهر منكب » وتأمل حاله وحال من يجعل من العرى درّاعة ، ومن الرعدة جبة ، وان للمتنبي لمواطن يصغر فيها حتى ليكاد يزدري ، فمن هذه المواطن الذميمة قوله فى سيف الدولة :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبلَ أن تُلقى عليه الجوازمُ

ليس بهذا ومثله بلغ المتنبي ما بلغ من شرف باذخ ومجد عظيم ، وأية قيمة لهذا البيت الذى هو أشبهُ بأشعار النحاة بمعرض قوله فى هذه القصيدة :

وقفتَ ، وما فى الموت شكٌّ لواقفٍ كأنك فى جفنِ الردى ، وهو نائم

تمرُّ بك الأبطالُ كلْمى هزيمةً ووجهُكَ وضّاحٌ ، وثغرُكَ باسمُ

ضممتَ جناحَيْهِمْ على القلبِ ضمَّةً تموتُ الخوافى تحتها والقوادمُ

بضربٍ أتى الهاماتِ ، والنصرُ غائبٌ وصارَ إلى اللبّاتِ والنصرُ قادمُ

قال صبرى :

يا مَنْ سقانى الجمَّ مِن وُدِّهِ هذا ودادى كلُّهُ فا كرعِ

وقال أبو تمّام :

ولقد أتيتك صادياً ، فكرعتُ فى شِيَمٍ ألذَّ من الزُّلالِ الباردِ

وللشريف الرضىّ :

سقانى على القُربِ كأسَ الاخا ء مطــــلولةً بنسيمِ الصَّفا

فهذا كلُّهُ من منبعٍ واحدٍ ، ومن أشهر شعره تلك القطعة الرقيقة التى يقول فيها :

أقصرْ فؤادى ، فما الذكرى بنافعةٍ ولا بشافعةٍ فى ردِّ ما كانا

جرى فى قوله « بنافعة ولا شافعة » على مشهور قول الناس ، وقد سبقه البهاء زهير إلى ذلك فقال :

أرِحْــــنى منكَ حتى لا أرى مَنظركَ الوعرا

فقد صرتُ أرى بُعــــدَ كَ عنّى الراحةَ الكبرى

فما تنفعُ فى الدّنيــــا ولا تشفــــعُ فى الأخرى

ومن هذا القبيل قولهم « الفاعل التارك » ولنور الدين العسيلى فى فاعل على لغة أصحاب الأعمال عندنا :

وفاعلٍ يتركنى عامـــــداً وهو رقّى فى الهوى مالكي

أقول للناس : ألا فاعجبـوا من صنع هذا « الفاعل التارك » !

ومعنى البيت كله من قول المتنبيّ :

ولا يَرُدُّ عليكَ الفائتَ الحزَنُ

قال صبرى يخاطب فؤاده :

سلا الفؤادُ الذى شاطرتَـهُ زمناً حملَ الصبابةِ ، فاخفقْ وحدَكَ الآنَا

الصورة فى هذا البيت معكوسة ، والمعنى غير مستقيم ، فقـد أراد الشاعر أن يقول لقلبه إن القلب الذى كان يشاطرك حمل الصبابة قد سلا ، فأجرى فعـل المشاطرة على قلبه هو ، وأنت ترى أن وقوع الفعل من قِبَـله يُـعفيه من عناء هذا السلوّ ، ويريحه من ذلك العبء الذى كان يحمله ، وإذاً فلا معنى لأن يخفق وحده ، ومعنى البيت على الوجه المستقيم من المعانى المطروقة لاتخاذه صورة الحـكاية التى قلَّ أن يخلو منها شعر الحبّ ، أو تدعها ألسنةُ المحبّين ، فمن ذلك قول بعضهم :

أشـكو الذين أذاقونى محبتهم حتى إذا أيقظونى للهوى رقدوا

وقول الشريف الرضى :

أحذاكَ حرَّ الوجدِ ، غيرَ مُساهمٍ وسقاكَ كأسَ الهمِّ غيرَ مُعاقرِ

وفى معنى شماتة الشاعر بقلبه وقوله (فاخفق وحدك الآنا) يقول عبيـد الله ابن عتبة :

فَذُقْ هجرَها ، قد كنتَ تزعم أنهُ رشادٌ ، ألا فاثأرْ بمـا كذبَ الزعمُ

وللطغرائى فى معنى البيت كله :

يا قلبُ ما لكَ والهوى مِن بعد ما طابَ السلوُّ وأقصرَ العشّـاقُ ؟

أوَما بدا لك فى الإفاقةِ ، والأُلى نازعتهم كأسَ الغرامِ أفاقوا ؟

مَرِضَ النسيمُ وصحَّ ، والداءُ الذى أشكوهُ لا يُرجى له إفراقُ

وهَدَا خفوقُ البرقِ ، والقلبُ الذى تُطوَى عليهِ أضالعى خفّـاقُ

وهذا ابن وكيع يقول فى معنى الشماتة بالقلب :

لقـد شمتُّ بقلبي لا فرّج الله عنهُ

كم لُمتُـهُ فى هواهُ فقال : لا بُدَّ منهُ ؟

قال صبرى :

هلاَّ أخذتَ لهـذا اليوم اهبتَـهُ   من قبل أن تصبحَ الأشواقُ أشجانا

أخذُ الاهبة للامر قبل وقوعه مما كثر القولُ فيه ، ولـكننا من هذا البيت أمام أمرٍ لا تحلّ لمثله عقدة ، ولا تؤخذ له عُـدّ ة ، وقد يستقيم قول بعضهم :

أقول لها ، والدّمعُ يغلبُ صبرَها   أعِدّى لفقدى ما استطعتِ من الصبرِ

قد يستقيم هذا ، وقد يكون مقبولاً كذلك قول ابن المعتزّ :

كلما فَـكّرَ فى الهجرِ بَـكى   وَيحَـهُ يبـكى لما لم يقعِ

فأما أن يأخذ المحبّ عدّته لسلوّ الحبيب أو لغدره فلا معنى له سـوى انتقاض الحب وفساد العلاقة ، ومثل هذا وإن جرى فى القول مجرى الملـح فليس بشىء فى مقام النقد ومعرض البحث والنظر ، ومن هذا العبث قول ابن رشـيق والمعنى فى البيت الأول مسخر للغرض المتمثل فى البيت الثانى :

فـكرتُ ليلة وصلها فى صدّها   فجرت بقايا أدمعى كالعنـدمِ

فطفقتُ أمسحُ مُقلتى فى نحرها   إذ عادةُ الـكافورِ إمساكُ الدّمِ

إن حال صبرى فى هذا البيت لقريبٌ من حال ذلك الشاعر الذى يقول :

ولمّا نزلنـا على زمزمٍ   ونحن نريد طوافَ الافاضـهْ

بكيتُ فقالت : علىمَ البـكا ؟   فقلتُ : على الودّ أخشى انتقاضه

فقالت : ثـكلتكَ مِن عاشقٍ   أتُشمّرُ ذيلك قبلَ المخاضهْ

فقلتُ : صدقتِ ، ولـكننى   أُعلّمُ نفسى طريقَ الرياضهْ

يرى صبرى فى هذا البيت بين الأشواق والأشجان منزلة ، وأن الأولى أخفّ محملاً ، وأيسرُ عناءً ، وإذاً فقد كان قلبه يستطيع أن يتخذ العُدّة والأشـواق وحدها هى الغالبة عليه ، أفهذا من جد القول وصحيح الـكلام ؟ لعـلّ قول الشاعر الحـكيم (لايعرف الشوق إلاّ من يكابده) إنما أُعِدّ لهـذا الذى يقوله شاعرنا العظيم ، وارحمتاه لقيس لُبنى إذ يقول :

فوا كبدى من شدّةِ الشوقِ والجوى   ووا كبدى ، إنى الى الله راجعُ !

وهذا آخر يصف لنا الشوق فيصدق :

دعى اللهُ من هامَ الفؤادُ بحبهِ وَمن كِدتُ من شوق اليه أطيرُ

وانظر الى الشهيد عروة بن حزام إذ يقول لناقته :

متى تجمعى شوقى وشوقك تظلعى وما لكِ بالعبءِ الثقيلِ يدان

هو الشوق منذ العهد الأوّل ، لم يحُل عن طبيعته ولم يتغير ، هو الذى قال فيه مسلم بن الوليد (أغرى بهِ الشوقُ ليلَ الساهرِ الرَّمدِ) وقال فيه أبو تمام :

هذا مُحبّكَ أدمى الشوقُ مُهجتَهُ فكيفَ تُنكِرُ أن تدمَى مآقيهِ ؟

ووصفه فى مكان آخر فقال :

للنّارُ نارُ الشوقِ فى كبدِ الفتى والبينُ يُوقدهُ هوًى مَسمومُ

خيرٌ لهُ مِن أن يُخامرَ صدرَهُ وحَشاهُ معروفُ امرىءٍ مكتومُ

أنا آتيكَ بصبرى نفسه ينقض ذلك القول وينادى أن الأشواق عنصر نارى ، وأنها هى والأشجان بمنزلة واحدة ، فاسمع ماذا يقول فى قطعة أخرى :

يا مَنْ أقام فؤادى إذْ تملكه ما بينَ نارَين من شوقٍ ومن شجنِ

الحمدُ لله ، ظهر الحقّ واستبان السبيل ، ونحن نضع الآن هذه القطعة الأنيقة بين يدى النقد ، وإنا لنرى هذا البيت كثير التطلع فى منهجه ومرماه الى قول أبى جعفر بن البنى :

يا مَن يعذّبنى لمـا تملكنى ماذا تريدُ بتعذيبى وإضرارى ؟

وقد تم المراد فى هذا البيت ، وخلا بيت صبرى من كل شىء ، فهو لا يفيد معنًى فى ذاته ، ولا يعطيك صورةً مستقلةً من نفسه ، وهذا من عيوب الشعر ، وفى النارين والاستعانة بهما على تزيين الكلام وتنميقه يقول أبو نواس :

صَليتُ مِن حبِّها نارَين : واحدةً بَينَ الضلوعِ ، وأخرى بَينَ أحشائى

ويقول الخطيب الحصكفى :

أشكو إلى الله من نارَينِ : واحدةٍ فى وَجنتيهِ ، وأخرى منه فى كبدى

قال صبرى :

تَفديكَ أعينُ قومٍ حولكَ ازدحمت عطشى إلى نهلةٍ من وجهكَ الحسنِ

وفى معنى ازدحام العيون حول هذا المورد العذب يقول الشيخ أبو الفضل بن أبى الوفاء :

على وجنتيهِ جَنّةٌ ذاتُ بهجةٍ ترى لعيونِ الناس فيها تزاحما

ولأبى تمام :

انّ حزني عليَّ ، لا بل عليكا بل على مُهجةٍ تسيل لديكا

أنتَ تُزهى بصورة غدت الأ.... صارُ مِن حُسنها وراحت عليكا

وقال :

لهفَ نفسى عليَّ ، لا بل عليكا أن تجولَ العيونُ فى خدّيكا

وعزيزٌ عليَّ أن تجتنى الأب.... صارُ زهرَ الربيع مِن وجنتيكا

ولعلاء الدين الماردينى :

قد كتبَ الحسنُ على وجهِهِ : يا أعينَ الناسِ ، قفى وانظرى !

فأما حُسْنُ الوجوه وما فيه من ماء هو ريُّ العيون الظماء والقلوب الحائمة ، فليس هذا بأوّل العهد به ، وهذه طائفة من أخباره . قال ابن خفاجة الأندلسى :

أما ترى الماءَ على وجهِهِ يجولُ ، والنارَ على وجنتيه

فوَجْهُهُ رِيّاً كطرفى بهِ وَخَدُّهُ وَقْداً كقلبى عليه

وقال :

تَرَقْرَقَ ماءُ مقلتاىَ ووجهُهُ ويذكو على قلبي ووجنته الجمرُ

ولبعضهم :

أشكو الصَّدَى أبداً وما ء الحسنِ فى خَدّيهِ جارِ

ومن الافتتان فى هذا الباب قول الآخر :

لم تَرِدْ ماءَ حسنكَ العينُ إلاّ شرقَتْ قبلَ رِيّها برقيبِ

وهل أتاك حديث « أفواه المنى » تترشف ذلك الماء ثمَّتَ تصدر ظمأى وأنت تظنها رواء ؟ قال صاحب الريحانة :

ماء الجمالِ فى رياضِ خَدّها وِرْدٌ بأفواهِ المنى مُستعذبُ

ولابن خفاجة الأندلسى :

فكاد يَشربُ نفسى وكدتُ أشربُ خدَّهُ !

ومثله أو قريبٌ منه قول الآخر :

يكاد أن يشربه اذا تبدّى نظرى !

ونحن نختم هذا الباب ببيتين قيل إنهما المهلّبى فى غلام تركى جعله معزّ الدولة قائد جيش سيّره لقتال بنى حمدان ، والشاهد فى قوله (يروق الماء فى وجناته) : قال :

ظبىٌ يروقُ الماءُ فى وَجناتِهِ ، وَيَرِقُّ عُودُهُ

جعلوهُ قائدَ عسكرٍ ضاع الرَّعيلُ ومن يَقودُهُ

قال صبرى :

جَرَّدتَ كلَّ مليحٍ من ملاحتهِ لم تتقِ الله فى ظبىٍ ولا غُصنِ

فاستبقِ للبدرِ بَينَ الشهب رُتبتَهُ تَمْلِكُهُ فى أوْجِهِ عبداً بلا ثمنِ

الظبىُ والغصنُ والبدرُ ، أو الشمسُ حيناً ، هذا هو مَدارُ القول عند الأوّلين إذ يبالغون فى وصف الجمال . جاء صبرى بهذه المجموعة فى البيتين لكيلا يفوته شىء ، وليكون قوله فى البيت الأوّل (جردت كلَّ مليحٍ من ملاحتهِ) متناولاً كل ما يقع فى معناه ، أو يقوم تحت حكمه ، فلو لم يذكر البدر لاضطربت (كلّ) فى مكانها ، وفقدت الشطر الأكبر من قوّتها وسلطانها ، وما أظنّ البراعة فى وصف الجمال ، أو المبالغة فيه على وجه الاجمال ، قد فارقت بيت البحترى الذى يقول فيه :

أعطِيَتْ بسطةً على الناسِ حتى هِىَ صِنفٌ ، والناس فى الحسن صِنفُ

ومن الشعر الجامع فى هذا الباب قولُ بعضهم :

كلُّ حُسنٍ فى البرايا فَهوَ منسوبٌ اليك

وأبلغ من هذين قول عبدالله بن عبدالله :

سلمى : وما سلمى ؟ تَفوقُ المُنى والحسنَ أوصافاً وألوانا

وللبحترى فى المجرى الذى تتبعه صبرى ، وهو عندى فى المحل الثانى :

فهِىَ الشمسُ بهجةً ، والقضيبُ الـ . . . غضُّ ليناً ، والرِّيمُ طرفاً وجيدا

وله :

فى طلعةِ الشمسِ شئٌ مِن ملاحتها   وللقضيبِ نصيبٌ مِن تثنّيها

وقال مهيار الديلمى :

سلا ظبيةَ الوادى ، وما الظبيُ مثلها   وإن كان مصقولَ الترائبِ أكحلا :

أأنتِ أمرتِ البدرَ أن يصدعَ الدُّجى   وعلمتِ غصنَ البانِ أن يتميّـلا ؟!

وهذان شاعران ، هذا يتهم موصوفه بالسرقة من الظبي والغصن ، وهذا يتهم الغزلان بالسرقة من موصوفه ! قال الأول وهو أبوالفتح بن عبد السلام المغربي :

سَرَقَ الجيـدَ واللحاظَ من الظبي ، وَلِينَ القوامِ مِن غُصنِ بانِ

وقال الثانى وهو القطب المـكى :

ما أرَى الغزلانَ إلا سرقتْ   منكَ جيداً والتفاتاً وَحَـدَقْ

ثم خافت ، فتولت شُرّداً   كيف لا يشردُ خوفاً مَنْ سرقْ ؟

أما ما قيل فى البدر وحده ومنزلتـه من الموصوف بالجمال من قبل أن يتناوله صبرى ويضعه فى ذلك المـكان ، فهذا طرَفٌ منه ، قال عبدالله بن المعتز :

كِدْتُ أقولُ البدرُ شِبْهٌ لها   أجملها كالبـدرِ ؟ حاشاها !

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى :

وبى أغيدٌ مِن حُسنهِ البدرُ خائفٌ   على نفسهِ ، والنجمُ فى الغربِ مائلُ

نريد أن نقترب من غرض صبرى ، ففى هذا البيت أن البـدر خائف على نفسه وترجمة هذه العبارة فى بيت صبرى (واستبق للبدر بين الشهب رتبته) أى انه خائف فاعطه الأمانَ ، فبقى أن يكون عبداً ؛ أو عبداً بلا ثمن ! واليك ما يقوله أحد الشعراء :

نفى النومَ عنى ، يا لقومى ، مهفهفٌ   غلامٌ ، ولـكنّ الهلالَ غلامُـهُ !

لعلك تقول أين الغلام من العبد ، وهل الهلال كالبـدر ؟ ليس لك أن تقول هذا ، ولـكنى مواتيك فذاكرٌ لك قول القاضى محي الدين بن عبد الظاهر :

وأنتَ تعظُمُ عنـدى   أن يُمسىَ البدرُ عبدَكْ !

سنقول وأين موضع (بلا ثمن) من الشعر القديم ؟ الجواب عند البهاء زهير ، قال :

لكم الرُّوحُ والبدنْ لكم السِّرُّ والعلنْ
أنا عبدٌ ملكتمو هُ ، ولكنْ بلا ثمنْ !

قال صبرى من قطعة أخرى :

يا آسىَ الحىّ ، هل فتّشتَ فى كبدى ؟ وهل تبيّنتَ داءً فى زواياها ؟
أوّاهُ مِن حُرَقٍ أودتْ بمعظمها ولم تزل تتمشّى فى بقاياها

يقال فتّش الشيء وفتّش عنه ، فقوله (فتشت فى كبدى) خطأٌ لغوى ، وقد ورد هذا الفعل على وجهه الصحيح فى غير ما موضع من الشعر ، قال المتنبي :

طلبتَهُمُ على الأمواهِ حتى تخوّفَ أن تُفتّشَهُ السّحابُ

وقال أبو الحسن التهامى :

ولربما فتّشتَ بعضَ عطائهِ فوجدتَ فيهِ السّيّدَ البُهلولا

ولأحد الشعراء :

يا ويحَ قلبٍ ما خلا مِن شُغلهِ بصبابةٍ ومحبّةٍ مُذ كانا
لو فتّشوهُ ، لما رأوا لسوى الهوى فيهِ ، ولا غيرِ الغرامِ مكانا

وفى هذه الزوايا التى ذكرها صبرى يقول البهاء زهير :

ويميلُ بى نحوَ الصّبى قلبٌ رقيقُ الحاشيهْ
فيهِ مِن الطّربِ القديم ...... بقيّةٌ فى الزاويهْ

ولناصح الدين الأرّجانى :

تأمّلْ تحت ذاك الصُّدْغِ خالاً لتَعلمَ كم خبايا فى الزوايا !

فأمّا تلك البقايا الواردة فى البيت الثانى فحسبك من قديم ذكرها ما نسوقه اليك ، قال الشاعر :

وما أبقى الهوى والشّوْقُ منى سوى رُوحٍ تَرَدَّدُ فى خيالِ

وقال آخر :

لم يُبقِ مِن كبدى شيئاً أعيشُ بهِ طُولُ الصّبابةِ ، والبيضُ المطابيلُ

ولأبي بكر بن دريد :

انّ الذى أبقيتَ من جسمهِ يا مُتلفَ الصبِّ ، ولم يَشعرِ
صُبابةٌ لو أنّها قطــــرةٌ تجولُ في جفنيكَ لم تَقطُرِ

وقال البهاء زهير :

لك الحيــاةُ فانى أموتُ لا شكّ عِشقا
لم يبقَ منىَ الاّ بَقيّـةٌ ليس تبقى

وقال :

لم يَبقَ غيرُ حشاشةٍ مِن مهجتى ، وأخافُ أنْ لا !

وما أكثر الشبه بين البيت الثانى من هذه القطعة وبين قول المتنبي يذكر خروجه من أرضٍ قطعها :

حتى وصلتُ بنفسٍ مات أكثرُها وليتنى عِشتُ منها بالذى فَضَلا

لشاعرنا الكريم أبيات من جيّد شعره فى معنى الوداع ناجى فيها قلبه ، لا يدرى أهو إن حُمّ الفراق ناصره ، أو هو مُسْلِمُهُ فخاذله ، ووَصفَ ساعةَ البين يعصف بالأحباب ، وأنها قطعةٌ من العذاب ، وأنت تراه يجود بروحه فداءً لمن يرفق به فيمحو هذه الساعة الشديدة الهول من صحيفة المقدور ، قال :

أَتُرَى أنتَ خاذلى ساعةَ التو ديعِ يا قلبُ فى غدٍ ، أم نصيرى؟
وَيْـكَ قُـلْ لى متى أراكَ بجنبى راضياً عن مكانك المهجورِ ؟
ساعةَ البينِ ، قِطعةٌ أنتِ قُدَّتْ للمحبّينَ مِن عذابِ السعيرِ
لا تَحينى - رُوحى الفداءُ لِماحِيـ ...كِ غداً من صحيفةِ المقدورِ

يناجى الشاعر قلبه فى البيت الأول مناجاة الحاضر معه ، ثم ينظر فلا يراه ، وينصت ليسمع جوابه فلا يجد سوى صداه ! هو فى البيت الثانى غائب عن مكانه المهجور لا يعطف عليه ، ولا يرضى عنه فيرجع اليه — هذا هو التدلّه ، وانّه لشفيعٌ ووجيهٌ لمن يُصاب به فيخالف هواك ، أو يعدل بك عن السبيل ، هو التدلّه ، فان أبيتَ فهو التلاعب البيانى ما للشاعر المتصرّف فى فنون الكلام منه بُدٌّ ، ولا لك عليه من سلطان وهو يأخذك به — أفاق صبرى بعد البيت الأول من ذلك التدلّه ، أو هو قد جرى على منهاجه فى هذا التلاعب ، فاذا به يسأل قلبه

متى أنت راجع ؟ وما تصنع القلوب والجنوب بلاقع ؟ جرى صبرى فى هذا على سُنّة الأولين ، فوضع قلبه بين قلوبهم ، وضمّ جنبه الى جُنوبهم ، وهذا هو المتنبى يقول :

أنظعنُ يا قلبُ معْ مَن ظعنْ حَبيبين ؟ أندُبُ نفسى إذنْ !
وَلمْ لا تُصابُ ، وحربُ البسو س بَينَ الجفونِ ، وبينَ الوسنْ ؟!
وهل أنا بَعدكما عائشٌ وَقد بان قلبى ، وبان السكنْ ؟

وللأبيوردى :

ظعنوا ، فما لكَ لا تفارقُهم يا قلبُ إن ظعنوا ، وإن حطّوا ؟

وما أشبه صبرى بابن ميّادة إذ يقول :

فوالله ما أدرى ، أيغلبنى الهوى إذا جدّ جِدُّ البينِ ، أم أنا غالبهْ

وفى معنى البيت الثانى يقول صفىّ الدين الحلى :

هجرتْ بَعدك القلوبُ الجسوما حين أمست منك الدّيارُ رُسوما

وأقربُ من هذا الى غرض صبرى قول ابن المعلّم :

سألتْ جِسمىَ عن ساكنهِ ومِنَ الجهلِ سُؤالُ الطّللِ

ومما يُنسب الى غردد الموسوس :

فلما تولّوْا ولّتْ النفسُ فيهمُ فقلتُ ارجعى! قالت: إلى أين أرجعُ ؟
إلى جسدٍ ما فيهِ لحمٌ ولا دمٌ وما هو إلاّ أعظمٌ تتقعقعُ

وللبوريني :

منازلُ هذا القلب كانت أواهلاً وما هى من بَعدِ الفراقِ طلولُ !

فأما ساعة البين وانها قطعة من العذاب أو أشدّ ، فمن الشائع المتواتر ، ومنه قول أبى بكر الزبيدى :

ما خلقَ اللهُ من عذابٍ أشدَّ من وقفةِ الوداعِ !

وقول أبى تمام فى الأبيات الثلاثة :

أما الهوى فهو العذابُ فانْ جرتْ فيهِ النوى ، فأليمُ كلِّ أليمِ

***

قالوا الرحيلُ فما شككتُ بأنها نفسى عن الدُّنيا تريدُ رحيلا

* * *

أظلَّهُ البينُ حتى أنه رجلٌ لو مات من شغله بالبينِ ما علما !

وقال احمد بن عبد ربه :

يا سقيمَ الجفونِ من غير سقمٍ بين عينيكَ مَصرعُ العشّاقِ

انّ يوم الفراقِ أصعبُ يومٍ ليتنى متُّ قبلَ يومِ الفراقِ

ولبعضهم :

والله ما فارقتهم لكننى فارقتُ قلبى

وللبهاء زهير :

أنت الحياةُ ومَن تَفا رقهُ الحياةُ فكيف حالُه ؟!

فى البيت الرابع من أبيات صبرى معنى يبدو كأنه طريف ، فهو يبذل روحه أو (جائزة) لمن يمحو ساعة الفراق من صحيفة المقدور ، وعلى هذا الوجه فهو يؤثر أن يموت قبل أن تحين هذه الساعة ، وهنا يلتقى هو واحمد بن عبد ربه فى قوله (ليتنى متُّ قبلَ يوم الفراق) ويبقى له بعد ذلك محو الساعة من الصحيفة ، واقتطاعها من الغد أو من الزمن ، وهذا شاعر قديم يجاوز هذا الحدّ فلا يريد الا أن يزول الغد كله من مجموعة الدهر وجريدة الايام ، قال :

قالوا الرحيلُ غداً ، عدمتكَ يا غدُ !

ومن الصُّوَرِ الواردة فى هذا الباب قول البحترى :

يا يومُ عرّجْ ، بل وراءكَ يا غدُ قد أجمعوا بيناً ، وأنتَ الموعدُ

ومنها قول كلثوم بن صعب ، والشاهد فى البيت الثانى :

دعا داعيًا بينٍ ، فمن كان باكياً معى مِن فراق الحى ، فليأتنى غدا

فليتَ غداً يومٌ سواه ، وما بَقى من الدّهر ليلٌ يحبسُ الناسَ سرمدا

لِتبكِ غرانيقُ الشبابِ فاننى إخالُ غداً من فرقةِ الحيِّ موعدا

وهذه صورة أخرى فى آخر لابن المعتز ، قال :

طوَّلَ فى أيلولَ شهرُ الصيامْ وما قضينا فيهِ حَقَّ المدامْ

والله لا أرضى عن الدهر ، أو يسرق شهرَ الصوم فى كل عامْ !

فأنت تأخذ من جملة هذه الصور أن صبرى لم يبتدع شيئاً فى أمر ذلك المحو الذى أراده ، وهو جهدُ مارمى اليه فى تلك القطعة ، وأحب أن يذكر له ويؤثر عنه .

وهذه قطعة أخرى من شعره ، قال :

نمسى تذكرنا الشبابَ وعهدَهُ حسناءُ مُرهفةُ القوامِ فنذكرُ
هيفاءُ أسكرها الجمالُ ، وبعضُ ما أوْفى على قدرِ الكفايةِ يُسكرُ
تثبُ القلوبُ الى الرءوسِ ، إذا بدت وتُطِلُّ من حدَقِ العيونِ وتنظرُ
وتبيتُ تكفرُ بالنُّحورِ قلائدٌ فاذا دنتْ مِن نحرها تستغفرُ
وتزيد فى فمها اللآلئ قيمةً حتى يسودَ كبيرَهنَّ الأصغرُ

تأنّق الشاعر فى صياغة هذه القطعة الفنية الرائعة وتلوينها ، واستعان على تأدية أغراضه فيها بأسبابٍ لطافٍ ، ووسائلَ ما فى براعتها وحسن اتساقها من خلاف ، وانما يتمشّى النقد فى هذه القطعة على الأغراض والمعانى ، وإن كان قوله (هيفاء) فى البيت الثانى بعد قوله (مرهفة القوام) فى البيت الأوّل من فضول الكلام ، وما أرى البيت الأ صورة من قول المتنبي :

وفتّانةِ العينينِ ، قتّالةِ الهوى إذا نفحتْ شيخاً روائحُها شبّا

ولقد بدأ الشاعر القطعةَ بتذكُّر الشباب وعهده ، ومابرح هذا التذكر يستطير رنينه فى أشعار الماضين ، ويتجاوب صداه فى نفوس المتأدبين ، قال منصور النميرى:

ما تنقضى حسرةٌ منّى ولا جزَعُ اذا ذكرتُ شباباً ليس يُرتجعُ

وقال المعرّى :

ولقد سلوتُ عن الشبابِ كما سلا غيرى ، ولكن للحزين تذكُّرُ

وهذا من الأغراض العامّة والمواطن المباحة ، وليس فى هذا البيت من الصوَر الفنّية الخاصّة أو المعانى المولدة ، ما هو من النظر بموضع أو من النقد بسبيل ، وموضع ذلك فى البيت الثانى حيث يقول الشاعر (هيفاء أسكرها الجمال) وما أبرح ما لاقت النفوس من هذا الشراب الذى أسكر الشعر والشعراء ، فألهمه اغنيّةَ الحبّ ، وعلمهم كيف يردّدون أنغامها الروحية الصافية على معازف الفنّ ، قال البحترى فى معنى ذلك السّكر :

ويومَ تثنّت للوداع ، وسلّمت بعينين موصول بلحظهما السِّحرُ
توهّمتها ألوى بأعطافها الكرى كرى النوم ، أومالت بأعطافها الخمرُ

وقال المتنبي :

وغضبي من الادلال ، سكرى من الصبي شفعتُ اليها من شبابي بريق

ومن قول ابن هاني :

منعوكِ من سِنَة الكرى ، وسَرَوْا ، فلو عثروا بطيف طارقٍ ظنوكِ
ودعوكِ سكرى ، ماسقوكِ مدامةً لمّا تمايلَ عِطفُكِ اتَّهموكِ !

ولبعضهم :

يرنحها سُكرُ الشباب ، فتنثني كما اهتزّ ممطورٌ من الأيكِ مائدُ

وزاد جمال الدين بن مطروح على كل هذا فقال :

نشوانُ ، ما شرِبَ المدامَ ، وانما أضحى بخمرِ رُضابهِ مُتنبّذا

قال صبري فى البيت الثالث :

تدبُ القلوبُ الى الرؤوس ، إذا بدتْ وتُطِلُّ مِن حَدَقِ العيون وتنظرُ

حدّد الشاعر مرمى تلك الحركة التى تأخذ القلوب اذا بدت موصوفته بقوله (تُطلّ وتنظر) وهذا معنىً فاسد ، لأن القلب لا ينظر من العين ، ولسنا فى مقام البحث العلمى ، فحسبنا شهادة الشعر ، قال بشّار :

يزهّدني فى حُبّ عبدةَ مَعشرٌ قلوبهم فيها مخالفةٌ قلبي
فقلتُ دعوا قلبي وما اختارَ وارتضَى فبالقلب لا بالعين يُبصرُ ذو اللبّ
وما تُبصرُ العينان فى موضعِ الهوى ولا تَسمعُ الأُذنان الاّ مِن القلبِ

فان قيل إن بشّاراً أعمى ينتصر لنفسه ، فهذه أقوال طائفة من المبصرين حاول المعرّى أن يتعلق بها فنفيناه ، قال الشريف الرضى :

إذا توجّسَ كان القلبُ ناظِرهُ والقلبُ ينظرُ ما لا ينظرُ البصرُ

أغار عليه البهاء زهير فقال فى المعنى :

إني عشقتك ، لا عن رؤيةٍ عرَضَتْ والقلبُ يُدرِكُ ما لا يُدرِكُ النَّظرُ
فَتِنتُ منكَ بأوصافٍ مُجرَّدةٍ فى القلب منها مَعانٍ ما لها صُوَرُ

وقال حسن بن محمد البوريني من شعراء الريحانة :

أحوّلُ وجهي حين يُقبلُ عامداً مخافةَ واشٍ بيننا ورقيبِ
وفي باطني — والله أعلمُ — أعينٌ تُلاحظُه في أضلعٍ وقلوبِ

ولصاحب الريحانة :

وتنظرُه من قلبيَ الصبِّ أعينٌ عليها لِمَحْنَيِّ الضلوعِ حواجبُ

ولِمَ هذا كلُّه ؟ أما كان كافياً أن يقال (قلوبُ العاشقين لها عيون ؟) ولقد أبصرت القلوب التي جعلها صبري تثب الى الرؤوس بشهادته هو ، وليس بعد هذا كله من دليل على فساد المعنى الذي جاءنا به ، وانظر مايقول أحمد السكيواني الشاعر الدمشقي في المأخوذين بسلطان الجمال :

قلوبهمْ كلُّها عيونٌ وكلُّ أجسامهم قلوبُ !

لو أنصف صبري لأعفى القلوب من ذلك الوثوب ، أو لأطلقها من تلك القيود التي احتجزتها وراء العيون ، ولسنا نكتم شهادة ذلك الشاعر الذي يُوهم قوله أن شاعرنا على شيء من الصواب ، وهذا ما لا يكون إلاَّ على أضعف وجوه التأوّل وأدقّ مدارج الاستنباط ، ذلك هو شهاب الدين بن رضوان الغرناطي ، قال :

يا مَن اختار فؤادي سكناً بابُهُ العينُ التي ترمقهُ
فتحَ البابَ سُهادي بعدكم فابعثوا طيفكمُ يغلقهُ !

جعل العين باب القلب ، وهذا وصفٌ صحيح في أكثره وهو يحتمل تجوّزاً أن يقال إنّ وثوب القلوب الى الرؤوس لتطلّ من حدق العيون وتنظر انما هو في حكم من يرى أمام داره منظراً حسناً أو غير حسن من المناظر التي تثير النفوس فيهرع الى الباب لينظر عن قرب ، ولكن هل يستقيم هذا المثل والوصف جارٍ على القلوب ؟

تلك إحدى الصورتين ، فأما الأخرى فحركة القلب في ذاتها وصلتها بالشعر القديم ، وليس من هذه الصورة ما قيل في القلوب تطير شوقاً أو فزعاً ، ولكنّ منها قول أبي تمام :

مَشتْ قلوبُ أناسٍ في صُدورهم لمّا رأوكَ تُمشّي نحوهم قَدَما

البيت في معنى الفزع ، ولكن حركة القلوب فيه أشبهُ بها في بيت صبري ، فهي تمشي هنا وتثب هناك ، وبين المشي والوثب ما ترى من تجاور وقرب . ومن هذا النوع قول المتنبي :

أصبحَ حُسّادُهُ وأنفسُهم يُحدِرُها خوفُهُ ويُصعِدها

وقوله فى الخيل :

تُجاذبُ فرسانَ الصباحِ أعنّةً كأنّ على الأعناقِ منها أفاعيا

بعزمٍ يَسيرُ الجسمُ فى السرجِ راكباً به، ويسيرُ القلبُ فى الجسمِ ماشيا

ومنه قول ابن المعتزّ يمدح :

فما ليثُ غابٍ يسلبُ الجيشَ بأسَه بعشيةٍ وثّابٍ على النهى والزجر

الى أن يقول وهو الموضع :

بأجرأ منه حَدّ بأسٍ وعزمةٍ اذا ما ارتقى قلبُ الجبانِ الى النحرِ

وهذه صورة أخرى من قوله تكشفُ لك عن اتجاهٍ آخر لهذا النّوع الذى تراه ممثلاً واضحاً فى بيت صبرى ، قال :

لو تستطيعُ قلوبُهم نفذتْ أجسامَهم ، فتعانقتْ حُبّا

قال صبرى :

وتبيتُ تكفرُ بالبخورِ قلائدٌ فاذا دنتْ مِن نحرها تستغفرُ

هذا ولا خفاء معنى دقيق هو من أبعد أسرار الفن غوراً ، وأشدّها تعذراً وامتناعاً ، تناوله شاعرنا القدير فصوّر لك فيه كفر القلائد واستغفارها ، ولك أن تقول إن الكفر لا يمحى بالاستغفار ، وأن الايمان هو المطلوب فى هذا المقام ـ ذلك من أحكام القول وشرائطه ، وما بك من شطط حين تقولها ، ولكن دع هذا ناحية ، واذهب صُعُداً فى معنى البيت ، انك من هذا فى المطلب الأجل والشأن الأعظم ، أنت منه بين صورتين دقيقتين : صورة الكفر وصورة الاستغفار ، ولعلك تحزن معى لمجىء هذه الآية الفنية الرائعة بعد قول مهيار :

كفرتْ وُجوهَهمُ البدورُ وآمنت لأكفهم أيدى السحابِ ، فكفّرتْ

جاء مهيار بالكفر والايمان معاً ، وجاء به وبالعقوق جميعاً أبو بكر ابن القوطيّة الاندلسى إذ يقول فى السوسن والورد :

كأنما ارتضعا خلفَىْ سمائهما فأرضعتْ لبناً هذا ، وذاك دما

جيشانِ قد كفرَ الكافورَ ذاك وقد عقّ العقيقَ احمراراً ذا ، وما ظلما

نتعلم من هذا أن الكفر قديم فى باب المفاضلة بين الأشياء ، فما هو من شاعرنا ببدع ، وإنا لنرى حُسناً كثيراً فى قوله تستغفر على أنها كلمة مستقلة لا يحكمها ضابط ولا يسيطرُ عليها نظام ، وما هذا الحسن الكثير إلا ترجمة همس الحلى ووسواسة تلك الترجمة البديعة فاذا أنت منها فى لغة فصيحة ، واذا الاستغفار قائم فى هذه اللغة ، وفى هذا الهمس أو الوسواس ، يقول العجاج :

تَسمعُ للحَلْىِ إذا ما وَسْوَسَا والنجَّ فى أجيادها وأجْرَسَا
زفْزَفَةَ الرِّيحِ الحَصادَ اليَبِسَا

ويقول حاتم الطائى :

إذا انقلبتْ فَوْقَ الحشيّةِ مَرَّةً ترنَّمَ وَسْوَاسُ الحُلِىِّ ترنما

وقد جرى أبو تمام والبحترى فى هذا المضمار على غِرارَيْهما من حيث الصناعة ، فقال الأوّل :

وإذا مشتْ تركتْ بقلبكَ ضِعفَ ما بحُليِّهَا مِن كثرةِ الوسواسِ

وقال الثانى :

إذا هِجْنَ وسواسَ الحُلِىِّ تولّدتْ بنا أريحيّاتُ الجوى والوساوسِ

وأخذ شهاب الدين الحاجبى معنى بيت أبى تمام فقال (حَلْىٌ يُوسوسُ فى صدور الناس) وأكثرُ اللفظ من القرآن الكريم على طريقة الاقتباس ، ذلك هو الاستغفار عند شاعرنا ، غفر الله له وأحسن اليه ، قال :

وتزيدُ فى فمها اللآلىءُ قيمةً حتى يَسودَ كبيرَهُنّ الأصغرُ

معنى حسن ، ولكنه غير جديد ، قال ابن النبيه :

وما كُنتُ أدرى قبل لؤلؤ ثغرِها بأنّ نفيساتِ اللآلى صغارُها

ومما أعمل فيه شاعرنا فكره ، وراضه من الأغراض والمعانى قوله :

ولمّا التقينا قرّبَ الشوقُ جُهْدَهُ شجيَّينِ فاضا لوعةً وعتابا
كأن صديقاً فى خلالِ صديقهِ تسرّبَ أثناءَ العناقِ وغابا

يفيض لوعة ، أو يذوب شوقاً ، أو ما كان من هذا بمنزلة ، انما هو من أنضاء القول ، وأخلاق الكلام ، وقد وصفوا الشكوى والعتاب بالرقة ، وأفرغوا عليهما

صفة الذوبان ، فجاء شاعرنا يجري هذا الوصف على الأشخاص ، والمتحول سهل والمسافة قريبة . وقد تناول أبو تمام رقة الشكوى فقال :

كادت لعرفانِ النوى ألفاظُها ... مِن رقةِ الشكوى تكون دموعا!

وقال آخر :

لو كُنتَ ساعةَ بيننا ما بيننا ... وشهدتَ كيف نُكرِّرُ التوديعا
أيقنتَ أن من الدموعِ محدِّثاً ... وعلمتَ أن مِن الحديثِ دموعا!

ومما ينسب إلى جحظة البرمكي :

ورَقَّ الجوُّ حتى قِيلَ هذا ... عِتابٌ بينَ جحظةَ والزَّمانِ!

نريد أن ننظر الى اللغة فى البيت الثانى قبلَ أن نلمس المعنى ، ونحن نرى أن فى قول الشاعر «خلال صديقه ، وأثناء العناق» موضعاً للتأمل ، فخلال لُغة منفرَج ما بين الشيئين ، وهى من الديار ما حوالى حدودها وما بين بيوتها ، ومن السَّحاب مخارج الماء ، ولسنا نجد بين هذه الصور صورة واحدة تُلائم ما ذهب اليه صبرى فى ذلك الوصف حتى مع قوله انَّ الصديقين فاضا وقوله تسرَّب ، وقد جعل أثناء ظرفاً فجرى فى ذلك على طريقة العابثين باللغة من جماعة الكتاب ، وأثناء الشيء قُواه وتضاعيفه وطاقاته ، وَاحدها ثِنْيٌ ، والسبيل أن يقال فى أثناء ذلك ، أى فى غضونه أو فى فترةٍ منه ، وقد قرأت فى مجموعة شعر صبرى للأديب المعروف (محمد صبرى) أن أديبنا الكبير السيد مصطفى صادق الرافعى يردّ المعنى القائم فى هذا البيت الى قول بشار :

فبتنا ولو أنا تُراقُ زجاجةٌ ... من الخمرِ فيما بيننا لم تَسرَّبِ

وأنه يُنكر صورة هذا العناء يجرى بين صديقين ، وبعد أن خالفه صاحب المجموعة فيما ذهب اليه قال إن صحّ أن هذا المعنى مأخوذ من أحد وجب ردّه إلى (مونتين) الفيلسوف الفرنسى الذى قال فى موقف عناق (وما كنت أدرى أكان هو أم أنا) !

صدق الأديب (محمد صبرى) فيما تحدَّث به من بُعد العلاقة بين بيتَيْ صبرى وبشار ، فليس المعنى واحداً فيهما ، وأصحُّ ما يقال أن بيت بشار يمهد للمعنى الذي أفرغه صبرى فى ذلك البيت ويهيئ له الخاطر ، وأكثرُ منه تمهيداً له

وإعانةً عليه قول ابن الرومى :

أُعانقهُ والنفسُ بعدُ مشوقةٌ إليهِ ، وهل بعدَ العناقِ تَدانِ ؟

وألثمُ فاهُ كى تزولَ حرارتى فيشتدّ ما ألقى مِن الهيمانِ

كأنّ فؤادى ليس يَشفى غليلَهُ سوى أن يرى الرُّوحين يمتزجانِ

وقد أنكر الأديب محمد صبرى على الرافعى ما أثاره من الشبهة حول ذلك العناق ولكنه لم يدفع هذه الشبهة التى ما تزال قائمة بشاهد لغوىّ أو دليل شعرىّ ، فكان معنى ذلك أنه لا يرى مانعاً من وقوع العناق بين الصديقين - من الرجال - على الصورة الواردة فى البيت ، وليس هذا هو الوجه ، فالصديق صفة تطلق على المرأة كما تطلق على الرجل ، ومن ذلك قول جميل :

كأنْ لم نحاربْ يا بثينَ لو انها تَكشّفُ غُمّاها وأنتِ صديقُ

وقول ابن المعتز :

برغمِ البينِ ، لا صارمتُ شرّاً ولا زالتْ وإنْ بعدتْ صديقا

فأمّا أن الشعر العربى خالٍ من ذلك المعنى ، وأنه اذا كان صبرى قد سُبق اليه فلا يكون سابقه سوى ذلك الفيلسوف الفرنسى — أمّا هذا فبعيدٌ عن الحق والصواب ، وهذه طائفة من الشواهد : قال ابن المعتز ، ونسبه بعضهم الى خالد الكاتب :

كأننى عانقتُ ريحانةً تنفستْ فى ليلها الباردِ

فلوْ ترانا فى قميصِ الدُّجى حسبتنا فى جسَدٍ واحدِ

وقال ابن عبدوس :

لا ، والمنازلِ من نجدٍ وليلتنا بُعَيْدَ إذ جسدانا بيننا جسدُ

كم رامَ فينا الكرى من لطف مسلكه عيناً ، فما انفكّ لا كفٌّ ولا عضدُ

وقال ابن بشر الكاتب :

ولم نزلْ ، والظلامُ حارسُنا جسمينِ مُستودَعَينِ فى جسمِ

ولابن عبدون :

وما أنسَ ليلتنا والعناقُ قد مزجَ الكلَّ منّا بكلّ

وهذا صالح بن موسى يستعين بالحمى على تصوير هذا المعنى بلون آخر فيقول :

لى سيّدٌ ما مثله سيّدٌ تصدّت الحمّى لهُ فاشتكى
عانقتهُ عند موافاتها فلم تجدْ ما بيننا مَسلكا !

أبَعْدَ هذا كله يقال إن المعنى غريب عن الشعر العربى ، وانه لا شبيه له الا فى قول صاحبنا الفرنسى (وما كنت أدرى أكان هو أم أنا ؟) فأين كان الأديب محمد صبرى مِن كل هذا ؟ بل أين هو مِن قول الشاعر :

أنا مَن أهوى ، ومَن أهوى أنا نحن روحانِ حللنا بَدَنَا

وقول الآخر :

بكمُ اتحدتُ هوًى ، فلوْ حييتُكم قلتُ السلامُ علىَّ إذ أنتم أنا

لا أخشى أن أتهم بالمغالاة فى تلمّس المآخذ اذا أنا اتخذت ناحيةً أخرى فى هذا المجرى وزعمت أن المعنى الذى أتتبّع مواقعه وأتمثل صوره قد يتيسر انتزاعه من هاتين الصورتين على ما بينهما وبينه من بُعدٍ فى ظاهر الحال ، وهذه إحداها ، قال الشاعر :

وتحدّرتْ مِن كأسه فى ثغرهِ كالشمسِ تغربُ فى هلالٍ من قمرْ

فأما الثانية فقولُ الآخر :

أقولُ والكأسُ على فيهِ قد تصوّبتْ كالكوكبِ الثاقبِ
ذا كوكبٌ يغربُ فى كوكبٍ وَيلى على الطالعِ الغاربِ !

لم يذكر صبرى أىّ الصديقين تسرّب فى الآخر ، فجاء الوصف على هذه الصورة مشوّشاً ، بل هو يوهم أن هذين الصديقين شخصان آخران غيره هو وصاحبه ، واذاً تكون الصورة وصفية محضة ، أى أنها لا تفيد معنى الأمر الواقع على حدّ ما أراده الشاعر .

قال صبرى فى معنى عقوق الاخوان والبُقيا عليهم :

اذا خاننى خِلٌّ قديمٌ وعقّنى وفوّقتُ يوماً فى مقاتله سَهمى
تعرّضَ طيفُ الودّ بينى وبينه فكسّرَ سهمى ، فانثنيتُ ولم أرمِ !

المعنى غير مستقيم فى البيت الأول لما اشتمل عليه من الخطأ اللغوى فى قوله « وفوّقت فى مقاتله » إذ معنى فوّقَ السهمَ جعل له فوقاً وهو موضع الوتر منه ، وقد أتى الشاعر بهذه الكلمة فى موضع سدّدْتُ أو صوّبتُ ، والحكم فى ذلك أن يقال إلى مقاتله ، لا فيها ، فالخطأ ظاهرٌ ، وهو آتٍ من طريق الوهم ومجانبة التثبّت ، وعندى أنّ تعرّض طيف الودّ فى البيت الثانى مما يستفاد من قول البحترى :

حبيبٌ نأى ، إلاّ تعرُّضَ ذِكرةٍ   له ، أو مُلِمّ طائفٍ مِن خيالهِ

وفى معنى البيتين يقول الشريف الرضىّ يعاتب أخاه :

تهضَّمَنى مَن لا يكون لغيرهِ   مِنَ الناس إطراقى على الهُونِ أو غَضِّى

أُفوِّقُ نبلَ القولِ بينى وبينَهُ   فيؤلمنى مِن قبل نَزْعى بها عِرضى

وأرجعُ لم أُولِغْ لسانىَ فى دمى   ولم أرمِ أعضائى بنهشى ولا عَضِّى

شفعتُ إلى نفسى بنفسى ، فكفكفتْ   من الغيظ واستعطفتُ بعضى على بعضِ

ولآخر فى المعنى :

فداويتُه بالحلمِ ، والمرءُ قادرٌ   على سهمهِ ما دامَ فى كفّهِ السَّهمُ

وقال أبو عبد الله بن الفخّار المالقى :

إذا ما خليلٌ نبا مرّةً   وقد كان فيما مضى مُجمِلاَ

ذكرتُ المقدَّمَ مِن فعلهِ   فلم يُفسدِ الآخرُ الأوّلا

وللشريف الرضى فى معنى التعرُّض :

وإن ناكرتنى خِلّةٌ مِن خلالهِ   تعرّضَ قلبى يفتديها من الحقدِ

الأمير (عمر طوسون)

لشاعرنا الكبير قصيدة وجّهها إلى صاحب السموّ الأمير (عمر طوسون) أيام الحرب البلقانية بين تركيا القديمة ودولة اليونان ، يذكر فيها نجدته العالية ، وحميته المأثورة ، قال فى مطلعها :

لك الامارةُ ، والأقوامُ ما برحتْ   بكلّ عالى الذُّرى فى الكون تأتمرُ

يقال ائتمر الأمر امتثله ، وبه أمرَ نفسه ، وائتمر فلاناً شاوره ، وبفلانٍ همَّ به ، ومنه فى القرآن الكريم (إنَّ الملأَ يأتمرون بك) ولم يرد ائتمر به بمعنى اقتدى أو اتَّبع أمره ، فالاستعمال فاسد فى البيت كما ترى ، والمعنى قريب من قول لبيد فى معلَّقته :

ولـكلّ قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها

وبعد هذا يقول صبرى :

لو لم تَرِثْها لما ألقتْ أعنَّتها إلاَّ إليكَ خِلالٌ كلُّها غُرَرُ

غريبٌ منحى الشاعر فى هذ البيت الخادع ، والحقُّ أنه قد خُدِعَ فى إيراده على هذا الوجه ، إذ كان مراده القول إن الأمير حفظه الله جمع بين الامارة التى ورثها عن بيته العظيم وبين العظمة الخاصة المستفادة من اجتماع خلال الخير والمعروف فيه فأخطأ المراد ، وفصَلَ بين الموروث والمكتسب على وجه التفريق ، فجعل الأوّل قائماً ، وترك الثانى معلقاً ، وانظر إلى الشريف الرضى إذ يُفصح عن هذا الغرض بقوله :

قد زاده اللهُ على عظم الخطرْ مكارماً ذات حُجولٍ وغُررْ

ومن قوله فى هذا المعنى :

لو لم يكن عالى الأصولِ ، فقد وَفى شرفُ الجدودِ بسؤددِ الأجدادِ

الجدود جمع جدّ ، وهو الحظ والاقبال والعظمة ، ولأبى تمام فى معنى البيت على الوجه المستقيم :

وهل يُساميكَ فى العلا ملكٌ صَدرُكَ أولى بالرحبِ من بلدهْ ؟

أخلاقُكَ الغرُّ دون رهطك أثْ . . . . رَى منه فى رهطه وفى عددهْ !

نعلم من هذا أن شاعرنا لم يُرزق التوفيق فى هذا البيت ، وانه أخذ المعنى من الأقدمين ، قال :

يا ابن الألى لو أطلوا مِن مضاجعهم يوماً عليك ، لقالوا : إيهِ يا عمرُ !

أعدتَ أيامهم فى مصر ثانيةً حتى توهمَ قومٌ أنهم نُشِروا

ومررتَ سيرتَهم ، حتى كأنهمُ اذا خطرت بارضٍ مرّةً خطروا !

معنى البيت الأول مأخوذ من قول الشريف الرضيّ فى الملك بهاء الدولة :

لو أن عينَ أبيكَ اليوم ناظرةٌ تعجبَ الأصلُ مما أثمرَ الطرفُ !

ويصحّ أن يُردَّ الى قول أبي تمام فى محمد بن يوسف الثغرى :

رأىُ الحميدَينِ ألقحتَ الأمورَ به مَنْ ألفحَ الرأىَ فى يوم الوغى نَتجا

لو عايناك ، إذنْ قالا ، وما ظلما أبرحتَ ، أيسَرُ ما فى العرق أن يَشِجا

وللشريف الرضيّ فى معنى البيتين الثانى والثالث :

رأيتُ فتى فى كفهِ سِمةُ الندى وفى وجههِ شبهٌ من الأبِ والجدّ

إذا ما احتبى فى الحىِّ وامتدّ باعهُ رأيتَ أباه حين يحكم أو يُجدى

وقد وقع هذا المعنى فى صور أخرى منها قول ابن نباتة المصرى :

ظعن الكرامُ الأوّلون وأقبلت أيامُهم ، فكأنهم لم يظعنوا

وفى شرف الأبناء يقول البحترى ، وهو أوسع معنى وأبعد أثراً :

وكم أنافت من الأبناء مكرمةٌ مشهورةٌ ، تدعُ الآباءَ حُسّادا

قال صبرى :

لله درّك ، كم نبّهتَ من هِممٍ تُثنى على أهلها الآصالُ والبُكرُ

وكم تعهّدتَ جَرحَى من أسود وغًى إن يَكشرِ الدهرُ عن أحداثه كشروا

ليس فى البيتين معنى جديد أو أثر للنشاط الفكرى الذى يجب أن يثور ويطرد فى النفس الفنية الطامحة : فلله درّك ، وأسود وغًى ، ويكشر الدهر ، كل هذا من الصور التى ذهبت نضارتها مع الذاهبين الأوّلين ، فاذا لم يكن بدٌّ من استعمالها وجب أن يكون الى جانب كلّ صورة منها شىء جديد من المعانى المولدة ، والأغراض الفنية التى تخرجها من دائرة الجمود الى دائرة أخرى من الحركة والتصرف . وما أبعد ما بين قول الشاعر — كم نبهت من همم — وبين بقية البيت الأول ، فالسّياق الفنى مُعطل فى هذا البيت على أنكر الحالات وأسوأ الوجوه ، والوحدة المعنويّة التى كان ينبغى أن تقوم فيه وتنهضُ به لا موضع لها ولا وجود ، وليس الشعر أن تأتى بصورة الفعل أو هيئة الحال جامدة كثيفة منقطعة الصلة عمّا بعدها من الكلام كقوله : نبهت من همم ، بل عليك أن تُرينى كيف تهبّ هذه الهمم من رقادها ، وكيف كانت وهى نائمة ، فى صورة فنية رائعة ، لأعلم

أنك شاعر وأنك تقول شعراً ، فأما أن تقول لى — تُثنى على أهلها الآصال والبُكر — فانصراف عن الشأن ، وخلط مىء بين ضرب وآخر من ضروب الكلام ، قال :

مُستنجداً من بنى مصرٍ أُولى شمم اذا رأوا ثلمة فى حوضهم جبروا
مُستهمياً هامياً، والنِّيلُ فى وجلٍ من أن تجود بهِ أيمانُكم حذرُ

نقصر النقد على البيت الثانى ، ففى معنى قوله (مستهمياً هامياً) يقول أبو تمام فى محمد بن يوسف الثغرى يذكر إمداده إياه بماله وجاهه وجرّ المنفعة اليه :

أنضرت أيكتى عطاياكَ حتى صار ساقاً عُودى ، وكان قضيبا
ممطراً لى بالمالِ والجاهِ ما ألـ .... قاكَ إلاّ مُستوهباً أو وَهوبا

ويفسر أبو تمام ذلك فيقول :

فاذا ما أردتَ كنتَ رشاءً وإذا ما أردتَ كنتَ قليبا

فأمّا قوله فى البيت الثانى للأمير الجليل : ان النيل من أن تجود به أيمانكم حذر ، فيقع تحت حكمين اثنين من أحكام النقد ، حكم الغلو يجاوز الحدّ فيمجّه الذوق والعقل ، وحكم المدح يضلّ السبيل فينزلق الى الضدّ ، ومن الأول قول المتنبي : يا من إذا وهب الدّنيا فقد بخلا . وقوله :

إنكَ مِن مَعشرٍ اذا وهبوا ما دُونَ أعمارهم ، فقد بخلوا

ومن ذلك قول أبى سعيد الرستمى فى الصاحب بن عبّاد يهنئه بدار بناها بأصبهان :

ووالله لا أرضى لكَ الدهرَ خادماً ولا الغيثَ مُمتناباً ، ولا البحرَ نائلا
ولا الفلكَ الدوّار داراً ، ولا الورى عبيداً ، ولا زُهرَ النجومِ قبائلا

وقول شهاب الدين محمود الخفاجى فى الأمير محمد بن منجك ، وفى البيتين من فساد اللغة ما ترى :

قد بشرتك بعصرَ بعضُ مَعاشرٍ لم يعلموا الأقوالَ فى تأويلها
مصرٌ أقلُّ ندَى أياديكَ التى مِن فيضِ نائلها أصابعُ نيلها

أما المعنى القائم فى وجل النيل وحذره فمنتزع من قول المتنبي فى ثياب أبى العشائر ، قال :

مُستحيياً مِن أبى العشائر أن أسحبَ فى غير أرضهِ حُلَلَهْ
أسحبُها عنده لدى ملكٍ ثيابُهُ مِن جليسهِ وَجِلَهْ

وللمتنبي يخاف على نفسه من كرم ممدوحه :

قد لعمرى أقصرتُ عنكَ ، وللوفـ . . . . ـدِ ازدحامٌ ، وللعطايا ازدحامُ
خِفتُ إنْ صرتُ فى يمينكَ أن تأ خذنى فى هِباتِكَ الأقوامُ !

ومن باب المدح يضلّ السبيل فينزلق الى الضدّ ، ما يستفاد من جود الأمير الجليل (عمر طوسون) بالنيل ، فهذا الجود الذى لا تستطيعه نفسه الكريمة ، ولا تحب من يستطيعه أو يحدّث به نفسه ، وهو الذى علّمنا كيف نحبه وأمرنا أن نبخل به كل البخل — هذا الجود الفظيع المخزى ليس مما يُحبّ أو يُمدح صاحبه . وما أضلّ المتنبي رأياً وأشدّه ذهولاً وغفلة إذ يقول فى هذا الباب لسيف الدولة :

كريمٌ متى استُوهبتَ ما أنتَ راكبٌ وقد لقِحتْ حربٌ ، فانك نازلُ

وإذ يقول لكافور :

فقد نَهبَ الجيشَ الذى جاء غازياً لسائلكَ الفردِ الذى جاءَ عافيا

ليس هذا الذى يذكره المتنبي من الفضائل فيصدق ما أجراه عليه أو ما أراد أن يُجمّله به من ثناء ومدح . ومن جنونه فى هذا الباب قوله فى أبى شجاع فاتك :

تُمسى الضيوفُ مُشهّاةً بعَقْوَتِهِ كأنّ أوقاتها فى الطّيبِ آصالُ
لو اشتهتْ لحمَ قاريها لبادَرَها خرادلٌ منه فى الشّيزَى وأوصالُ !

انما يعرف وجه الأمر ويجرى على حكم الصواب مَن يقول :

يجودون للراجى بكلّ نفيسةٍ لديهم سوى أعراضهم والمناقبِ

قال شاعرنا :

حتى تفاهمتْ الأرواحُ وادّكرتْ ما بينها الأهلُ والخلاّنُ والاسَرُ
وآذنَ البِرُّ بالسُّقيا وما برحتْ منهم ومنك صنوفُ البِرّ تُنتظرُ

وحرّكت كلَّ كفٍّ بالندى بِقَـةٌ حتى تعجبتْ الأنهارُ والغُدرُ

يكثر الناس من ذكر التفاهم ولا وجود لهذه الكلمة فيما نعلم من كلام الأقدمين ، شعراً كان أو نثراً ، وقد راجعنا ما عندنا من المعاجم فلم نجدها فى مظانّها ، وما نحسبها إلا من مخترعات كُتّاب الصحف ، وليس لتعارُف الأرواح أو لتفاهمها كما يقول الشاعر بالمعنى المعروف اليوم لهذه الكلمة من محلٍّ يقبلها أو يتسع لها فى مثل هذا المقام ، وقد ازدحم الشطر الثاني من البيت بالأهل والخلان والأمر ازدحاماً لا معنى له ولا فائدة فيه ، ففى الأهل على حدة غناء ، وما بعد الأمر من زيادة تُطلب أو علاوة تضاف ، وليس الوجه أن يدّكر المصريّون ما بينهم على حد قول الشاعر الكبير فحسب بل وما بين اخوانهم الترك من الأواصر السياسية وغيرها ، وهذا ما أراده ولكنه لم يقله . أمّا تعجّب الأنهار والغُدر فى البيت الثالث فليس ببعيد من قول المتنبي :

فلم نرَ قبل ابن الحسين أصابعاً إذا ما هطلن استحيَتْ الدِّيَمُ الوُطفُ

قال صبرى :

والناسُ إن قام يستسقى الكريمُ لهم سحائبَ الفضل بشرٌّهم فقد مُطروا

لا يعدو هذا البيت ما قيل فى الاستسقاء وهو كثير ، فمنه البيت المشهور :

وأبيض يُستسقى الغمامَ بوجههِ ثِمَالُ اليتامى ، عصمةٌ للأرامل

وقول الفرزدق : خليفة الله يُستسقى به المطر — ومنه قول البحترى :

مَلِيُّون أن تُسقى البلادُ غِياثَها بأوجههمْ حتى تسيلَ فجاجُها

وقول الرقاشى فى آل برمك :

أُصبتُ بسادةٍ كانوا نجوماً بهم نُسْقَى اذا انقطع الغمامُ

قال صبرى :

يأبى عُلاه (سعيدٍ) أن يشابهه إلا (ابنُ دوحته) إن قام يفتخرُ

ما زال يحمده رائيك مدّكراً والأصلُ بالفرع إن حاكاه يُدّكرُ

هذا هو ختام القصيدة ، وقد رأينا أن نعفى هذين البيتين من النقد ، وإن كان معناها شائعاً فى هذا الباب من الشعر ، ولهذه القصيدة من شرف موضوعها

وجلال ذلك المقام الرفيع الذى وُجّهت اليه ما يجعلها أميرة شعر صبرى وسيدة قصائده ، حفظ الله للاسلام والشرق أميرنا المعظم (عمرطوسون) وبارك فيه وفى سلالته الطاهرة .

معارضة ياليل الصبّ

أقريبٌ مِن دنفٍ غدُهُ ؟ فالليلُ تمرّدَ أسْوَدُهُ
والتفتْ تحت عجاجتهِ بيضٌ فى الحىِّ تؤيدهُ
حربٌ عندى لمسعّرها شوقٌ ما زلتُ أردّدُهُ
هل مِن راقٍ لصريعِ هوًى ؟ هل مِن آسٍ يتعهدهُ ؟
حتى مَ يساورهُ كمدٌ يُبلى الأحشاءَ تجدّدُهُ
والى مَ يصارعهُ ألمٌ إن همَّ يقومُ ويُقعدهُ ؟
فى القصرِ غزالٌ تُكبرهُ غزلانُ الرّملِ وتحسدهُ
صفرتْ كفى منه ومضَى وقد امتلأت منى يدُهُ
كم صُغْتُ التّبرَ له شركاً وقضيتُ الليلَ أنضّدهُ
وأشاورُ شوق ، بل أدبى هل أقصرُ ، أم أتصيّدهُ
مولاىْ ! أعيذك مِن ضرمٍ لا يَرحمُ قلباً مُوقدهُ
أدركْ بحيانك مِن رمقٍ ما بات هواكَ يهدّدهُ
قد بان الحبُّ لذى عينينِ .... ن ، وهذا الشوق يؤكدهُ
(شوق) ! جوّدْ فى الشعروقل آمنتُ بأنك أوحدهُ !

عارض شوق وصبرى وولى الدين يكن والأميرنسيب أرسلان قصيدة الحصرى هذه (يا ليل الصبّ متى غده ؟) فقال الأول فى مطلع قصيدته :

مُضناكَ جفاهُ مَرقدهُ وبكاهُ ورَحّمَ عُوّدُهُ

وقال ولىّ الدين :

الحسنُ مكانتكَ معبدهُ واللحظُ فؤادى مَعْمدهُ

وقال الأمير نسيب :

مُضناكَ عَصاهُ تَجلدهُ هل أنتَ بعطفكَ مُنجدهُ ؟

فنحن نرى أن هذه المطالع الثلاثة لم يلمس واحدٌ منها ذلك المعنى الذى استهل به الحصرىّ قصيدته ، وأن صبرى تناول هذا المعنى قائماً فى بعض صوره اللفظية بلا تحرج ولا احتياط ، ثم جرى على هذا النهج فى كثير من أبيات قصيدته ، حتى لقد يُخيل الى من يجهل أحكام المعارضات الشعرية أن تنازُعَ الأغراض والمعانى ممـا يُطالب فيها ، أو مما يباح لأصحابها ، وليس هذا بحقّ ، قال الحصرى من قصيدته :

رَقدَ السُّمارُ ، وأرّقهُ أسفٌ للبيـنِ يُردّدُهُ
وغداً يقضى ، أو بَعدَ غـدٍ هل مِن نظرٍ يتزوّدُهُ ؟
نَصبتْ عيناىَ له شركاً فى النّومِ فعزَّ تَصيُّدُهُ
لم يُبقِ هواك له رمقاً فلتبكِ عليهِ عُوَّدُهُ
خدّاكَ قد اعترفا بدمى فعلى مَ جُفونُكَ تجحدُهُ ؟

هذه أبيات خمسة سُقناها على غير ترتيبٍ لنذلك على ما لها من الصلة من جهة اللفظ والمعنى بقول صبرى :

حَربٌ عندى لمسعّرها شوقٌ ما زلتُ أردّدُهُ
هل مِن راقٍ لصريع هوًى هل مِن اسٍ يتعهّدُهُ
كم صُغتُ التّبرَ له شركاً وقضيتُ الليـلَ أنضّدُهُ
وأشاورُ شوقى ، بل أدبى : هل أقصرُ ، أم أتصيدُهُ ؟
أدركْ بحياتك مِن رمقى ما بات هواكَ يهدّدهُ
قد بانَ الحبّ لذى عينينِ ، وهذا الشوقُ يؤكدُهُ

ولقد ضاق الوصف على شاعرنا وهو يذكر الليـل فى الشطر الثـانى من مطلع قصيدته فلم يزد على قوله (فالليل تمرّد أسوده) ثم عزّ عليه أن يترك هـذا السواد قائماً وحده ، فعمد إلى مذهب البديعيين وجاءنا فى البيت الثـانى بقوله (بيضٌ فى الحىّ تؤيّده) ثم أوحت اليه كلمة (تؤيده) فى هذا الشطر وكلمة (مجاجته) فى الشطر الأول من البيت ، أن يجعلها حرباً مُقامة عليه ، واذا بالغبار ينجلى فى البيت السابع عن

(غزال القصر) فنحن نشهد اذاً صورةً مزوّدةً تنبىء بالعجز عن ضبط الغرض ، وتصوير العاطفة قائمة فى حدود الفنّ باتزان ، مقبلة على شأنها فى هُدًى وعرفان ، يقول صبرى فى غزال القصر :

صفرتْ كفى منه ومضى وقد امتلأتْ منّى يدهُ

ما زال الشعراء قبلنـا يلوكون هـذه المُضغة الجـافة ، مضغة فراغ الأيدى وامتلائها . فمنهم الشريف الرضىّ يقول فى رثاء صديق له :

فرغتْ يدى منه ، وقد رجعت به أيدى النّوائبِ والخطوب مِلاءَ

وله فى غـيره :

راحت وفودُ الأرضِ عن قبرهِ فارغة الأيدى ، مِلاءَ القـلوبْ

ولابن المعتز :

ما فى يَدِى منه غيرُ عضّ يدى وربَّ بختٍ فى الحبّ مبخوسِ

ومِن قول بعضهم — قد كنت أحسبُ أنى قد ملأتُ يدى — وللبهاء زهير :

ما لقلبي منـكَ يا بدْ رُ سوى خُفّىْ حُنَـيْنِ

ويَرى الحُسّادُ أنّى منكَ ملآنُ اليدينِ

قال صبرى :

كم صُغتُ التّـبرَ له شركاً وقضيتُ اللّـيْلَ أنضّدُهُ

وأُشـــاورُ شوقى بل أدبى هل أقصِرُ أم أتصـيّدُهُ؟

لا معنى لهذه المشاورة بعد مدّ الشراك ونصب الحبائل ، وما أكثر هؤلاء الصيادين عندنا ، ولـكن يأبى أدبنا الا أن يزيد سوادهم وإلا أن يـكون لـكل مائة (خِراش) غزال واحد أو ظبيةٌ واحدةٌ ! قال الشريف الرضى :

كم قد نَصبتُ لك الحبائلَ طامعاً فنجوت بعد تعرّضٍ لوقوعِ

وتركتنى ظمآنَ أشربُ غلـــتى أسفاً على ذاك اللّمى الممنوعِ

وقال ابن الوردى :

وربَّ غـــزالةٍ طلعتْ بقـــلبى وهو مرعاها

نَصبتُ لهـــا شِباكاً مِن لُجَـــينٍ ثمّ صِدْناها

هذه شباكٌ من فضة ، فأما شركُ التبر الذى بات شاعرنا ينضّده والمراد به الذهب فانك واجده فى قول الأمير منجك (باشا) على لسان من يحبه :

لا تنقضى لكَ حاجـةٌ عندى بشعرٍ أوْ طَرَبْ
إن رُمْتَ صيدى فى الهوى فانصبْ شراكاً مِن ذهبْ!

قال صبرى :

قد بان الحبُّ لذى عينينِ وهذا الشَّوْقُ يؤكّـدهُ

فى البيت نكاية شديدة للذوق الفنى السليم وموضعها قوله (لذى عينين) فان هذه الكلمة الخشنة فى روحها ومغزاها تجعل البيت قطعة من الكلام الجدَلى وليس هذا بموقعه ، وليس الشاعر وهو يأخذ فى مثل هذا الجدل قد أنصف المنطق فى قوله : وهذا الشَّوْقُ يؤكّده ـ فان الشَّوْقَ دعوى والدعوى مفتقرة الى البيّنة . وانظر ما يقول الأبيوردى :

ومِن بيّناتِ الشَّوْقِ أنى على النّوى أموتُ لذكراهُ مراراً وأُبعثُ

ومن قول الشيخ الشبراوى :

قضيّةُ الشَّوْقِ فى فؤادى بُرهانُها بالضنى مُسَلَّمْ

نأخذ من هذا أن شاعرنا الكبير أقام الدعوى مقام البيّنة ، وهو الذى مارسَ القضاة طويلاً ، وعرف من أمره ما لا نعرف ، ولقد أكثر الشعراء من ذكر بيّنات الحبّ وشهوده ، فمن ذلك قول بعضهم :

سأعدُّ ما ألقى ، فان كذّبتِنى فسلى الدموعَ ، فانها لا تكذبُ

وقول أبى المواهب البكرى :

لا أذوقُ الكرى ، وَسَلْ أنجُمَ اللّيْـ ـلِ ، وهذا السّقامُ مِن بيّناتى

واليك شهود المتنبي ، قال :

شيبُ رأسى ، وذلّتى ، ونحولى ودموعى على هواك شهودى

الحياة والموت

إن سئمتَ الحياةَ فارجعْ الى الأر ضِ تَنَمْ آمناً من الأوصابِ

تلك أمٌّ أخى عليك من الأمِّ التى خلفتك للأتعابِ
لا تخَفْ ، فالمماتُ ليس بماحٍ منكَ إلا ما تشتكى من عذابِ
كلُّ مَيْتٍ باقٍ وإن خالفَ العذ ... وانُ ما نُصَّ فى غضون الكتابِ
وحياةُ المرء اغترابٌ فانْ ما تَ ، فقد عادَ سالماً للترابِ

هكذا قال صبرى فى الحياة والموت ، وتعدّ هذه القطعة من أجود شعره وأشهره . وأكثرُ ما يأخذُ الأدباء منها ما ورد فى البيت الأخير من اغتراب المرء فى الحياة ، ورجوعه سالماً الى التراب ، وإن نسبَ غيرُ واحدٍ من الأدباء هذا البيت الأخير الى المرحوم مصطفى نجيب بك، ولعلك مُدركٌ ما فى النقد من فائدة حين ترى أن شاعرنا الكبير لم يزدنا شيئاً من عنده ، وأن الناس قد يؤخذون من قِبَل أنفسهم فى كثير من الأمور ، وأن المقاييس الصحيحة للأدب والموازين العادلة للأدباء لم تقم الى يومنا هذا فى بلادنا وبين قومنا ، وما أبرحَ ما تجد الفنون والصناعات من أناس لو أنهم أوتوا أو رُزقوا المعرفة لتبينوا أنهم خاطئون .

وبعد فان أظهر ما يبدو لك من عيوب هذه القطعة قول الشاعر فى أواخر الأبيات الأول : الأوصاب ، والاتعاب ، والعذاب ، فان هذه الثلاث مؤتلفةٌ معنى وإن اختلفت لفظاً ، وما برح الرؤساء من أرباب الصناعة يتحامون ذلك . وما أعلم أيجدُّ شاعرنا أم يهزل فى قوله — إن سئمت الحياة فارجع الى الأرض — لا أعلم أين هو من الخصلتين فما كل من يسأم الحياة بميت ، ولا كل من يحبها ويرغب فيها بناجٍ من الموت ، أتظنه يشير بالانتحار ويحرض عليه ؟ هذا ما أفهمهُ مكرها وإن لم يرده وأين الذى يسأم الحياة أو يملّها ؟ أيغرّه قول زهير :

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ، ومن يعشْ ثمانينَ حولاً — لا أبا لكَ — يسْأمِ !

على أن زهيراً لم يسأم الحياة ، وإنما سئم تكاليفها ، وقد أغنانا المتنبي عن مثل هذا التفسير بقوله :

واذا الشيخُ قال أفٍّ ! فما ملّ حياةً ، وإنما الضعفَ ملاّ

ان ذلك النوم المريح الذى يريده صبرى فى البيت الأول هو بعينه ما تراه فى قول المعرّى :

ضجعةُ الموتِ رقدةٌ يستريح الـ .... جسْمُ فيها والعيشُ مثلُ السهادِ

وانظر ما يقول فى هذا المعنى :

أخفى المنازلِ قبرٌ يُستراحُ به وأفضلُ اللبسِ فيما أعلمُ الكفنُ

* * *

لعمركَ ما الدنيا بدارِ إقامةٍ ولا الحيُّ فى حالِ السلامةِ آمنُ

* * *

اذا عُدّتْ الاوطانُ فى كل بلدةٍ لقومٍ سُجوناً ، فالقبورُ حصونُ

* * *

متى أنا للدارِ المريحةِ ظاعنٌ فقد طال فى دار العناء مُقامى ؟

ولبعضهم :

جزى اللهُ عنّا الموتَ خيراً فانه أبرُّ بنا مِن كُل برٍّ وأرأفُ

يُعجّلُ إنقاذَ النفوسِ من الأذى ويُدْنى مِن الدار التى هى أشرفُ

وهذه أبيات أُخَر لشيخ المعرة تُريك من أين أخذ صبرى معنى البيت الثانى :

والتربُ نَقليه ظلماً ، وهو والدُنا وكم لنا فيه مِن قُربى ومِن رحمِ

* * *

نفضتَ عنّى تراباً ، وهو لى نسبٌ وذاك يحسب من قطعِ الفتى الرّحِما

* * *

ووالدُنا هذا التراب ، ولم يزل أبرّ يداً من كلّ منتسبيهِ

يؤدّى إلى من فوقهُ رزقَ ربّهِ أميناً ، ويعطى الصَّوْنَ محتجبيهِ

* * *

أتعلمُ الأرض ، وهى أمٌّ خفّ زمانٌ فما ازدهاها

بأىّ جُرمٍ ، وأىّ حُكمٍ سُلّطَ ليثٌ على مَهاها ؟

قال صبرى :

لا تخفْ فالمماتُ ليس بماحٍ منكَ الا ما تشتكى مِن عذابِ

لا أقول إن هذا البيت يكثر من الالتفات الى قول الشريف الرضىّ :

فان لم يكن فرَجٌ فى الحياةِ فكم فرجٍ فى انقضاء العُمُرْ

ولكنى أقول إنه يُلتقى فى فم المعرى حيث يقول — العيش داءٌ وموت المرء عافيةٌ — ولقد قال المتنبى قبله : كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا — والمعرى يردد هذا المعنى :

إذا غدوْتُ ببطنِ الأرضِ مضطجعاً فثمَّ أفقدُ أوصابى وأمراضى

* * *

اذا تطفئَتْ فى الثرى أعينٌ فقد أمنتْ مِن عمًى أو رمَد

قال صبرى :

وحياةُ المرء اغترابٌ فان ما ت ، فقد عادَ سالماً للترابِ

وقال أبو السعادات الحسينى :

نحن فى دارِ غربةٍ كلَّ يومٍ يتقضَّى جيلٌ ، ويحدثُ جيلُ

وكأنَّا فى ذاك ركبانُ : ركبٌ مزمعٌ رحلةً ، وركبٌ قفولُ

أمَّا المعرّى فيقول مردداً هذا المعنى فى صور مختلفة :

قد طال سيرى فى الحيا ة ، ولى ببطن الأرض منزلْ

* * *

فان تكُ هذى الدارُ منزلَ ظاعنٍ فدار مُقامى عن قليلٍ اوافيها

* * *

إنَّا ضيوفُ زمانٍ ما قِراهُ لنا الاَّ المنايا ، ونحن الآن فى اللُّهَنِ

جمع لُهْنَة ما يتعجله الانسان من الطعام يتعلل به ، ـ هذا فى معنى الغربة ، والعودة الى الوطن ، أمَّا فى معنى قوله : عاد سالماً ، فقد قال بعضُ الأوائل : رجعنا سالمينَ كما بدأنا — على أن ثمة غربةً أخرى بعد الموت هى ولا ريب شرُّ الغربتين ، فيا ويح الانسان ، وما أشدّها عظة أن يقول فيه لشيخنا المعرّى إذا مات :

لعلّ إناءً منه يُصنعُ مَرّةً فيأكلُ فيه مَنْ أرادَ ويَشربُ

ويُحملُ من أرضٍ لأخرى ، وما درى فواهاً لهُ بعد البِلى يتغرّبُ !

وانظر ما يقول فى من يُقيم لنا البيوت ويرفع القصور :

لعلَّ مفاصلَ البناء تضحى طِلاءً للسَّقيفةِ والجدارِ

أرى بعد هذا أن قطعة صبرى وكلّ ما قيل أو يقال فى معناها مغالطةٌ ظاهرة للنفوس ، وقد تكون تعزيةً نافعة لبعضها ، فان طبائع الحياة وحقائق الموت أشدّ قوّةً وأعظم سلطاناً من أن تذعن لأمثال هذه المغالطات ، وقديماً قيل - كفى بالموت نأياً واغترابا .

الشباب والمشيب

لم يدرِ طعمَ العيشِ شُبّا نٌ ، ولم يُدركهُ شِيبُ
جهلٌ يُضِلُّ قُوَى الفتى فتطيشُ ، والمرمى قريبُ
وقُوًى تخورُ اذا تشبَّـ ـتَ بالقُوَى الشيخُ الأريبُ
بَيْنَا يقالُ كَبَا المغفـ ـلُ ، إذ يقالُ خَبَا اللبيبُ
أوّاهُ ، لو عَقَلَ الشبا بُ ! وآهِ ، لو قدرَ المشيبُ !

هذه إحدى آيات صبرى ، وإنا لنرى الصورة العامة فى هذه الأبيات تُنبىء باختلال كبير فى التصوّر ، وشطط غير متقارب الحدود فى وصف الحياة ، وكيف تكون فى الشبّان والشيب . ولو صدقت هذه الصورة لخربت الدنيا ، وسقط العالم فى مهاوى الفناء . وماذا تريدُ من شباب ضالّ ، ومشيب عاجز ؟ إنّ شاعرنا الكبير يُحبّ الكلام لذاته ، ويتصرّف فيه على هواه ، ولئن ذهبنا نصانعه ونقول معه إن الشباب ضلال محض وجنون صرف ، وأن المشيب عجز خالص وجمود بحت ، أَتُرانا نستطيع الاعتداء على سنن الحياة فنزعم أنّ ضعف الهرم - الضعف التامّ الذى يصفه هو - يُعقب قوّة الشبيبة ونشاطها مرة واحدة . وفى يوم واحد ؟ كلاّ إنك لتعلم أن بين شرّة الشباب ووهن المشيب فسحة كبيرة من العمر ، ومسافة غير قليلة من الزمان ، فاذا العقلُ والمقدرة ، وإذا السداد والمضاءُ والقوّة المدبرة ، ولسنا نستعين بالشواهد الشعرية على إثبات فساد هذا المذهب وتعسف شاعرنا الكبير فيه ، ولكنا نستشهد التأريخ ، حوادثه وأبطاله من الفريقين - الشبان والشيب - ومن كل هذا نعلم أن الصورة القائمة فى هذه الأبيات ليست من الحقائق العامة كما أراد الشاعر أن تكون ، وهى لا تصدق الاّ اذا أجريناها مجرى الحكاية

الخاصة فى تمثيل حياةٍ بعينها لشخصٍ معين ، وإنك لترى هـذه الحياة ماثلة فى الشخص الذى تستفيده من قول أبى العتاهية :

دَبَّ فِىَّ الفناءُ سِفْلا وعِلوًا ... وأرانى أموتُ عُضواً فعضْوًا

ذهبتْ جِدَّتى بطاعةِ نَفْسى ... وتذكرتُ طاعة الله نِضْوًا

هذا حكمنا على الصورة العامـة فى الأبيات من الناحيـة الوصفية للحياة ، فأما الناحيـة الفنية فيهـا ، فأنت ترى أن قول الشاعر — لم يدر طعم العيش — فى البيت الأول مما لا معنى له ولا طعم فى مثل هـذا المقام ، فالعهدُ أن يقال هـذا فى لذة العيش أو ما ينافيها ، لا فيما ينبغى له من أدب ، أو يُكرهُ فيه من شطط وازورار .

وليس من جديد يُستفاد فيما تحمله أبياتُ صبرى من صفةِ الشباب فى غروره وقوته وحال المشيب فى اتئاده وضعفه ، قال العتبى :

قالت : عهدتكَ مجنوناً ، فقلتُ لها : ... إن الشبابَ جُنونٌ برؤهُ الكِبَرُ

وقال بهاء الدين العاملى :

قُواكَ وَهَتْ عِندَ وقتِ المشيبِ ... وما كان من دأبها أن تهى

وباينتَ نفسك لما كبرت ... فلا هِىَ أنتَ ، ولا أنتَ هِى

وإن ذُكرت شهواتُ النفوس ... فما تشتهى غيرَ أن تشتهى

وانظر ما يقول أبو العلاء :

سُقياً لأيامِ الشبا ... بِ ، وما حَسَرْتُ مَطيَّتيا

أيامَ آمُلُ أن أمسَّ الـ ... فرقدَينِ براحتيَّا

فالآنَ تعجز همتى ... عمّا يُنال بخُطْوَتيَّا

جهنم — وأين تقام ؟

يا ربِّ ! أينَ تُرى تُقامُ جَهنمٌ ... للظالمينَ غدا ، وللأشرارِ ؟

لم يُبقِ عفوُكَ فى السَّماواتِ العلَى ... والأرضِ ، شِبراً خالياً للنارِ

ياربِّ أهلنى لفضلكَ واكفنى ... شَططَ العقولِ وفتنة الأفكارِ

ومرُ الوجودَ يشفُّ عنكَ لكي أرى غضبَ اللطيفِ ورحمةَ الجبارِ
يا عالمَ الأسرارِ ! حسبي محنةً علمي بأنك عالمُ الأسرارِ
أخلِقْ برحمتك التي تسعُ الورى ألاّ تضيقَ بأعظمِ الأوزارِ

فى البيتين الأول والثانى من هذه القطعة التى رفعها صبرى الى الله فى معرض الثقة وحسن الظن ما لا ينتظم فى سلك الأدب الدينى ، ولا يلائم النظام الشرعى الذى ينبغى لكل مؤمن أن يتقيد به ويرعاه – يرى الشاعر أن لا مكان لجهنم تقام فيه ، بل هو قد اطلع فلم يجد شبراً واحداً يتسع حتى لموقدٍ واحدٍ صغير من مواقد هذه النار – انّ هذا من شاعرنا لكثير ، وما هو من الثقة وحسن الظنّ بسبيل ، إنا لنؤمن معه بسعة عفو الله ورحمته ، ونعلم أنه يؤمن معنا بأن (منطقة جهنم) قائمة بأقطارها الواسعة ، وحدودها المترامية ، لا ينقصها ذلك العفو شيئاً ، ولا تطوى هذه الرحمة منها جانباً أو بعض جانب ، ذلك أن من الذنوب ذنوباً لا يعفو الله عنها ، ولا يرحم جناتها – يؤمن شاعرنا الكريم بهذا إيماناً صادقاً ، فما باله يأخذ هذه الناحية ، وماله وهذا المسلك الوعر ؟ لقد أكثر الشعراء قبله من ذكر رحمة الله وعفوه ، فما بلغ أحد منهم حيث يقول أبو نواس :

تَكَثَّرْ ما استطعتَ من الخطايا فانك بالغٌ رَبّاً غفورا
ستبصرُ إن وَردتَ عليه عفواً وتلقى سيّداً مَلِكاً كبيرا
تَعَضُّ ندامةً كفَّيْك مما تركتَ مخافةَ النارِ السرورا

هذا ولا ريب أقربُ الى حسن الأدب وسلامة العقيدة من قول صبرى ، ولأبى نواس فى هذا الباب شعرٌ كثيرٌ منه قوله :

يا كبيرَ الذّنبِ عفْوُ الله .... هِ مِن ذنبِكَ أكبرْ

* * *

يارِبّ إن عظمت ذنوبى كثرةً فلقد علمتُ بأنّ عفوكَ أعظمُ

* * *

ومما ينسب الى عبيد سيفان العكلى :

يا ربّ قد حلَفَ الأعداءُ واجتهدوا أيمانهم أنّنى من ساكنى النارِ

أيحلفون على عمياء ؟ ويحهمُ ما ظنّهم بعظيم العفو غفّار ؟

ولعبد الرحمن بن عماد الدين الشامى :

إن قيل أىُّ سفينةٍ تجرى بلا ماء وليس لأهلها من زادِ ؟
قُل رحمة الرحمن مَنْ أنا عَبْدُهُ تَسَعُ العبادَ فمن هو ابنُ عماد ؟

وانظر أدبَ المعرّى وحكمته إذ يقول :

تـخشى جهنمَ دمعةٌ من تائبٍ فتبوحُ وهى شديدةُ الايقادِ

يذهب صبرى مذهب المتصوفة فى قوله :

وَمُرُّ الوجود يشفّ عنك لكى أرى غضبَ اللطيفِ ، ورحمةَ الجبّارِ

فهو يريد ان يرى الله ، ولكن لغير ما يريدون هم ، القوم يطلبون المشاهدة لذاتها ، أما شاعرنا فيريدها ليشهد نوعاً خاصاً من الجمال ، وحالة بعينها من العظم والجلال ، هو يريد أن يرى الغضب قائماً فى اللطف ، والرحمة ماثلة فى الجبروت ، وإذ كنا فى مقام التصوّف فلا مناص لنا من القول أن أدب القوم ينكر هذه العلة ويسىء معاملتها ، ثم ان هذا الذى يريده الشاعر هو من شأن الصفات الالهيّة وآثارها الشائعة فى هذا الكون . أما الذات وشهودها فشأن آخر ومطلب مستقل . ومن الاضطراب الظاهر فى البيت قول الشاعر — ومر الوجود يشفّ عنك — فالعقل والعلم الالهى على اتفاق فى أن هذا الوجود بنوعيه من كثيف أو لطيف لا يقوى على أن يحجب الله جلّ شأنه ، بل هو كما قال العارفون مرآة قدرته ، ومظهر صفاته ، ولعل ورود ذكر الحجب فى أقوال الذين طلبوا المشاهدة من عشّاق الذات العليّة هو الذى جرّ شاعرنا إلى هذا الاضطراب ، ولو علم — رحمه الله — أن القوم لم يعنوا بهذه الحجب سوى ما يكون على القلوب من أغشية أو أكنّة لاستقام له الأمر ونجا من هذه السقطة ، وما أراه فى قوله — غضب اللطيف ورحمة الجبار — ببعيد من قول صاحب البردة :

ولن يضيق رسولَ الله جاهُكَ بى إذا (الكريمُ) تحلّى باسمِ (منتقمِ)

فأمّا قوله :

يا عالمَ الأسرارِ ! حسبى محنةً علمى بأنك عالمُ الأسرارِ !

فشبيهٌ بقول ابن عمّار فى المعتضد :

قنعتُ بما عندى مِن النِّعَم التى   يفسّرها قولى : قنعتُ بما عندى !

عرف صبرى أدبَ الثقة بالله وحدَها بعد الذى كان من شطط وفتنة ، فقال فى ختام كلمته :

أخلقْ برحمتكَ التى تسع الورى   ألاَّ تضيقَ بأعظمِ الأوزارِ

جولةٌ عجلى فى بعض شعره

يقول صبرى من قطعة فى الرثاء :

ألا يا تجارَ العصرِ هل فيكم امرؤٌ   يبيع على صرعى الهمومِ عزاءَ ؟

يقال باعه الشىء وباعه له ومنه ، فأمّا يبيع عليه فليس من لغة العرب ، وإنما يقال باع عليه القاضى إذا باع على كرهٍ منه ؛ فهو خطأ من شاعرنا ، وبيع الصبر أو نحوه ليس من المخترعات الفنية ، فقد أكثر الأوّلون من عرض هذه البضاعة وطلبها ، كما أكثروا من ذكر البيع والهبة والاعارة ونحو ذلك ، قال عبد المحسن الصّورى :

هلمّوا اسألوا عن سُلوّ يُباع   واستخبروا عن كرًى يُكترى

هل الناسُ مثلى ؟ وإلاّ فما   أشدَّ القلوبَ ، وما أصبرَا

ومن المشهور قول بعضهم :

ألا موتٌ يُباعُ فأشتريهِ   فهذا العيشُ ما لا خيرَ فيهِ

وقال البحترى :

وما سرّنى أنّ قلبى أُعيرَ   عزاءَ النفوسِ وسُلوانها

وللمتنبى :

وَهبْتُ السُّلوَّ لمن لامنى   وبتُّ من الشّوْقِ فى شاغلِ

وقال الشريف الرضىّ :

وخُذِ النَّوْمَ مِن جفونى فانى   قد خَلعتُ الكرى على العشّاقِ

وقال التهامى :

خليليَّ هل من رقدةٍ أستعيرها ؟ لعلى بأحلام الكرى أستزيرُها

وللشمردل بن شريك اليربوعى :

وكنتُ أعيرُ الدَّمعَ قبلكَ من بكى فأنتَ على من مات بعدكَ شاغلهْ

ولصفىّ الدين الحلى :

واقترضنا منها الدموعَ ، فقالت : كلُّ قرضٍ يجرُّ نفعاً حرامُ

وللعباس بن الأحنف :

يا أيها الرجلُ المعذِّبُ نفسهُ أقصرْ فانَّ شفاءكَ الإقصارُ

نزفَ البكاءُ دُموعَ عينكَ فاستعرْ عيناً لغيركَ دمعها مدرارُ

مَن ذا يعيركَ عينَهُ تبكى بها أرأيت عيناً للبكاء تُعارُ ؟

ومن المقايضة فى صورة البيع قول صاحب الكبد المقروحة :

ولى كبدٌ مقروحةٌ ، مَن يَبيعنى بها كبداً ليست بذاتِ قروحٍ ؟!

أباها علىَّ الناسُ ، ما يشترونها ومَن يشترى ذا علةٍ بصحيح ؟

وقال ابن خازن الكاتب :

وَافى خيالكِ ، فاستعارت مقلتى من أعينِ الرقباءِ غُمضَ مُروَّعِ

وأظنُّهم فطنوا ، فكلٌّ قائلٌ : لو لم يَزُرْهُ خيالُها لم يهجعِ !

قال صبرى بعد البيت المتقدم :

إذا دلنى منكم على مثلهِ فتى خلعتُ عليهِ ما يشاءُ جزاء

يريدُ من يبيع العزاءَ فلا معنى لقوله على مثله ، ولا ندرى لِمَ يقصر جزاء من يدلّه على ما يخلع ؟ لعله استبقى سواه مما يملك ليكون ثمناً للعزاء يؤديه الى التاجر (. . .) قال :

يخالهم الرائى سُكارى من الأسى فيبكى عليهم رحمة ووفاء

وقال الله تعالى (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد)

وللمتنبي :

عَليـلُ الجسم ، مُمتنعُ القيامِ شَديدُ السكرِ مِن غيرِ المدامِ

وله :

أفيقا ! خُمارُ الهمّ بَغّضنى الخمرا وَسُكرى من الأيام جَنّبَنى السكرا

ولبعضهم : (سكرانُ من خمر الفراق معذّب) . وقال مهيار الديلمى :

لا سَكرةُ البلوى ببابلَ بعدكم تصحو ، ولا ليـلُ البلابل يُصبحُ

قال صبرى :

لو انّ قلوبَ الناس طوعُ إرادتى قلبتُ الأسى فى بعضهنّ (هناء)

ولو طاوعتنى كلّ عينٍ قريحةٍ لما ذابَ بعضُ الشاكلينَ بُكاء

ندع قوله (هناء) فى البيت الأول معلقة ونضع جانبـاً قوله : طوع ارادتى ، وطاوعتنى فى هذا البيت والذى بعده ، وننظر الى المعنى من حيث هو ، فالشاعر يريد فى البيتين أن يكون رحيماً بالناس فيفرغ الصبر على ذوى القلوب الجريحة ، ويمسك الدمعَ أن يسيل من عيونهم ، ولكنه يميل من مراده مأخوذاً بقوةٍ لا نعلم ماهى ، فاذا هو يخص بهذه الرحمـة بعضاً من الناس ، واذا هو يصغر ويتضاءل فيـدعك حائراً لا تدرى كيف تجمع شطريه ، وتؤلف بين رأييه ، ولِمَ يكون بعض الناس أولى بالرحمة من بعض والمصاب واحد ، وباعث الرحمة فى نفسك هو ما تجـد من ألم المصـابين وتحسّ من عذابهم ؟ وما كان لمن يريد أن يصيب بعض الناس برحمتـه ويصرفها عن الكثيرين منهم أن ينزع الى أن تكون له الولاية على كل القلوب والعيون كما هو الحال فى البيتين ، ولقد كان الأمر يستقيم له - وهذا شأنه - لو انه طلب أو تمنى أن يكون الصبر فى يده فيسكبه برداً وسلاماً على قلوب من يشاء من صرعى الأحزان وجرحى الهموم ، وليس هذا ثم ينتهى الأمر ، فقد نسىَ الشاعر نفسه ، وتجرّد فى هذين البيتين عن شاعريته ، بل هو قد فعل ذلك وجرى عليه وهو يستهل كلمته يسأل التجار عن بائع الصبر ، ويطلب أن يدلوه عليه ! أىّ صبر هذا الذى ينشده صبرى الشاعر العظيم ، واذا كان الصبر لا يؤخـذ من فم الشاعر ويرتشف من بين شفتيه فمن يأخذ اذاً وأين يوجـد ؟ ولِمَ لا تكون قلوب الناس وعيونهم وكلّ جوارحهم وقواهم حيث يحبّ ، وكيف يشاء ؟ نريد التلطف ، ويأبى لسان النقد الا أن يقول « بلادة » - ورحم الله صبرى ، وما أبعده فى هذه القطعة عن نفسه . قال من قطعة أخرى غرامية :

أبثُّكِ ما بى ، فإنْ ترحمى   رحمتِ أخا لوعةٍ ماتَ حُبّا
وأشكو النوى ، ما أمرَّ النّوى   على هائمٍ إن دعا الشوقُ لبَّى
وأخشى عليكِ هُبوبَ النسيم   وإن هو من جانبِ الرّوض هبّا
واستغفرُ اللهَ مِن بُرهةٍ   من العمرِ لم تلقنى فيك صبّا
تعالىْ نجدّدْ زمانَ (الهناء)   وننهبْ لياليَهُ الغُرَّ نهبا
تعالىْ أذقْ بك طعمَ السلام   وحسبى وحسبك ما كان حربا !

فى البيت الأول رَجُلٌ مات ، وشأن من مات أن يقول ما قال شرف الدين ابن عبد العزيز الانصارى :

ذُبتُ شوقاً ، فعالجونى بقربٍ !   مُتُّ عشقاً ، فحنّطونى بقُبْلة !

أقول الجدّ ، إنى لا أعرف ما هذا الموت الذى يكثر الشعراء من ذكره وادّعائه ، فصبرى يموت ويُبعث فى بيت واحد ، والمتنبى يموت مثله ويُبعث فى بيته الذى يقول فيه :

فلم أرَ بدراً ضاحكاً قبلَ وجهها   ولم ترَ قبلى ميّتاً يتكلَّمُ !

والأبيوردى يموت مراراً ويبعث مراراً فيما يقول :

ومن بيّنات الشّوق أنى على النّوى   أموتُ لذكراها مراراً وابعَثُ !

أما صاحبنا البهاء زهير رحمه الله فيقول :

أنا الذى متُّ حقاً   تعيش أنتَ وتبقَى

أعلم أنهم يريدون معنى الموت وأثره قائمين فى صورة أخرى من الحياة المريضة أو المعطّلة إلى حدٍّ ، ولكنى لا أحبّ أن يشيع هذا الصدأ الأكّال فى الشعر وأن يكون كأمرٍ لا بدّ منه فى كلّ موطن من مواطن العنف الوصفى لحالات الحب أو ما يشابهه ، ولقد استلذّ جرير هذه النغمة — أو سخر بها وهو أقرب — فقال :

كاد الهوى يوم سلمانينَ يقتلنى   وكاد يقتلنى يوماً بنعمانِ
وكاد يقتلنى يوماً بذى خشبٍ   وكاد يقتلنى يوماً بسلمانِ !

ذكروا عن الأصمعىّ أنّ أعرابياً سمع جريراً ينشد هذين البيتين فقال : هذا رجل أفات من الموت أربع مرات فلن يموت أبداً ! وبعد ، فليس فى البيت الثانى

من أبيات صبرى سوى مرارة النوى وتلبية الشوق اذا دعا ، وهل ترك الأوائل من هذا شيئاً لقائل ! لقد قدّمنا من قبل ألواناً كثيرة من هذه المرارة ، وهذا مثال مما قيل فى هذه التلبية وهو حسبك — دعانى الهوى فيه فلبّيتُ طائعا — يقول صبرى :

وأخشى عليك هبوبَ النسيم وإنْ هو مِن جانب الروض هَبّا

إمّا أن تكون هذه الخشيه التى تأخذ شاعرنا خشيةً مطلقةً باعثها الحنان ورقة القلب فهى إذاً من النوع الذى يُستفاد من قول حطّان بن المعلّى :

وإنما أولادنا بيننـــا أكبادُنا تمشى على الأرضِ

لو هبت الريحُ على بعضهم لامتنعتْ عينى من الغمضِ

وإما أن تكون حالاً من الغيرة التى يولع بها الحبُّ ، فهى لا تعدو حال ابن هانى فى قوله :

أغارُ عليه أن تجاذبَهُ الصّبا فضولَ بُرودٍ ، أو ذُيولَ غلائلِ

ويقول ابن سهل الاسرائيلى فى المعنى :

وَجْهٌ أرقُّ من النسيمِ ، يُغيرُنى مَرُّ النسيمِ بحسنهِ وهُبوبُهُ

وعلى كلا الوجهين فلا جديد فى البيت ، ولك أن تضم الى هذا القديم قول الشاعر :

خطراتُ النسيم تجرح خدّيْـ ـهِ ، ولمْسُ الحرير يُدمى بَنانَهْ !

وفى القطعة مآخذ أخر تصرفنا العجلة عنها ، قال صبرى :

يا وامضَ البرقِ كم نبّهتَ من شجنٍ فى أضلعٍ ذهلتْ عن دائها حينا

فالماءُ فى مُقَلٍ ، والنارُ فى مُهجٍ قد حار بينهما أمرُ المحبّينا

لولا تذكرُ أيام لنـا سلفت ما بات يبكى دماً فى الحىّ باكينا

يا نسمة ضمّخت أذيالها سحراً أزهارُ أندلسٍ هُبّى بوادينا

ذلك شعرٌ هرم ، عليه وسمٌ من الأيام والقِدم ، ولقد جُنُّوا بالبرق فهو يضحك لهذا الجنون ، ويعجب كيف صار حديث الأجيال وذكر القرون ، فأما الماء والنار فبئست الصلة ، ولا كان الجوار ! لقد قال الأولون — عفا الله عنهم — ما جاوز الحد ، فما بال شاعرنا الكريم يأبى الا أن يزيدنا ؟ قال الشريف الرضى :

الماءُ فى ناظرى ، والنارُ فى كبدى إن شئت فاغترفى ، أو شئتِ فاقتبسى

وقال :

إذا تلفتُّ فى أطلالها ابتدرت للعينِ والقلبِ أمواهٌ ونيرانُ

وقال أبو الطريف شاعر المعتمد العباسى :

واحربًا من فراقِ قومٍ هُمُ المصابيحُ والحصونُ
والأُسدُ ، والمزنُ ، والرواسى والأمنُ ، والخفضُ ، والسكونُ
لم تتنكر لنا الليالى حتى توفتهمُ المنونُ
فكلُّ نارٍ لنا قلوبٌ وكلُّ ماءٍ لنا عيونُ

وفى حدّ ما قيل فى هذا الباب كثرةً قولهم فى النسمات وأذيالها ، ومن ذلك قول ابن معتوق :

وتنفّسَ النّسرينُ عن عبقٍ منه بأذيالِ الصَّبا عطرُ

وقول سيف الدين بن المشدّ :

وصَبًا مرت من قاسيونَ ، فسكّنتْ بهبوبها وصَبَ الفؤادِ البالى
خاضت مياهَ النّيرَبينِ عشيّةً فأتتك ، وهى بَليلةُ الأذيالِ

قال صبرى من قطعة أخرى :

يا مقرَّ الغزال قد صحّ عندى الـ ..... يومَ أنى اقتحمتُ منكَ عرينا

ينظر شاعرنا فى هذا الى قول ابن منجك :

بىَ ريمٌ كناسهُ المرّانُ ما لقلبى من ناظريهِ أمانُ

أو إلى قوله وهو أقرب :

أفديكَ ظبيًا أرتجى .... كَ وأتّقى سطواتِ باسكْ
تخشى الأسودُ مهابةً من أن تمرّ على كِناسكْ

كلمة الختام

ينزع صبرى فى شعره الى طريقة الكتّاب ، وهم على تصرفهم فى مذاهب القول وفنونه ، وتأنقهم فى أحكام الصناعة ، قلما تسمو بهم منازلهم الى مَن فوقهم من

الشعراء المبرّزين ، وهو يسير على قدمهم فى تناول الصّوُر والمعانى وتلوينها بعد أن يجاد سبكها ، وتحكم صياغتها ، وانّ منها لَمَا يكون لغيرهم ، وانك لتجد فى جديدهم من حلاوة ولذة ما يكون كالرشوة لك على إجازة ما تناولوا من ذلك القديم ، وقد امتدح شيوخ الأدب هؤلاء الكتاب وأثنوا عليهم ، فقيل انهم (دهاقين الكلام) ومن رؤسائهم ابراهيم بن العباس الصولى ، والحسن بن وهب ، ومحمد بن عبدالملك الزيات ، وسعيد بن حميد ، فمن قول ابراهيم فى الفضل بن سهل :

لسهلِ بنِ فضلٍ يدٌ   تقاصرَ عنها المثَلْ
فباطنها للنّدى   وظاهرُها للقُبَلْ
ونائلها للغِنى   وسطوتُها للأجَلْ

ولابن الزيّات :

قامَ بقلبي وقعدْ   لمّا نفى عنّى الجلَدْ
يا صاحبَ القصر الذى   أسهرَ عينى ، ورقدْ
واعَطشى الى فمٍ   يمجُّ خمراً مِنْ بَرَدْ!

وله :

ما أعجبَ الشّىءَ ترجوهُ فتُحرمهُ   قد كنتُ أحسبُ أنى قدملأتُ يدى !

ذلك حيث ينزع صبرى ، وانه على ما ترى من أمره لشاعر ، وانما أنت منه بين بيتين ان شئت فقولُ البحترى :

ولربما عَثَرَ الجوادُ ، وشأوُهُ   متقدّمٌ ، ونبا الحسامُ القاطعُ

واذا شئتَ فقولُ المعرّى :

والإنسُ مثلُ نظام الشعر ، كم رجلٍ   يُفدَى بجيشٍ وكم بيتٍ بديوانِ

رحم الله صبرى ، وغفر لنا وله ، وهذا مارثيتُهُ به :

صدَعتَ قُوى الحدثانِ ، فانهاض كلكلُ   وَخفّ من الأعباء ما كنتَ تحملُ
تحوّلتَ ترتادُ المنازلَ سمحةً   فطابَ لك المرتادُ والمتحوَّلُ
ديارٌ تُجافيها الهمومُ ، وجيرةٌ   كهمّكَ ، لا جافٍ ، ولا متنقّلُ
تناهتْ خطوبُ الدهرِ عنكَ مروعةً   وولّتْ على أعقابها ، وهى جُفّلُ

لكَ المعقلُ الرامى على الدهر، إن هوتْ ... شماريخُ راسٍ ، أو تزلزلَ معقلُ

اذا احتلَّهُ ذوالضعفِ، لم تُغنِ عندهُ ... سلاهيبُ جُردٌ ، أو مغاويرُ بُسَّلُ

ترى الأرضَ ما لاذتْ به فى مفاضةٍ ... من الأمنِ ، تُضفيها السماواتُ من علُ

تُشيرُ ، فيستخذى بها كلُّ طامحٍ ... ويعنو لهــا جبَّارُها المتوغّلُ

سواءٌ عليها مستبــدٌّ وعاجزٌ ... وسِيَّانِ فيها ذو سلاحٍ وأعزلُ

* * *

أمنزلَ (اسماعيلَ) جوُّكَ طيّبٌ ... وواديكَ مأمونٌ ، وجارُكَ مُجْمِلُ

نزيـلُكَ عصرٌ للأعاريبِ كابرٌ ... وضَيْفُكَ جيلٌ للنوابغِ أمثلُ

هوى القائدُ المقدامُ فيكَ ، وغالنا ... لدَى الكرِّ ما جرَّ السلاحُ المفلَّلُ

ضجيعُكَ مجدٌ للممالكِ باذخٌ ... وأنتَ لمُلكِ (الضادِ) مثوًى ومنزلُ

يلوذُ بكَ (التاجُ) المعفَّرُ ضارعاً ... ويهفو حوَاليكَ (السريرُ) المعطَّلُ

أرى دولةَ الآداب زُلزِلَ صرحُها ... وباتت صياصيها العُلَى تتهيَّلُ

ودُوِّعَ من أبطالها كلُّ مِحْرَبٍ ... وطاحَ المرجَّى للحفاظِ المؤمَّلُ

فتى البأسِ ، لا ربُّ السلاح اذا انتحى ... ولا هو بالوانى ، إذا نابَ مُعضلُ

فما كان من صُنعٍ جميلٍ حمِدْتُهُ ... على الدَّهرِ إلاّ صُنْعُهُ هو أجملُ

حمى سُؤددى بالغيبِ ، فارتدَّ مُوعدى ... وأقصرَ عنى ذو النَّمِيم المضلِّلُ

فأصبح (ذو التاجينِ) قد نابَ رأيهُ ... وأصبحتُ ما فى جانبى متعلَّلُ

كبا الجِدُّ بالواشى الخَيَّبِ سعيُه ... وطاح بمزجيهِ الحديثُ المهلهلُ

وما كان إلاّ أن ضننتُ بذمتى ... كما ضنَّ قبلى بالدروع (السموألُ)

لئن بزَّ أعلامَ البلاغة قائلاً ... فأبلغُ مما قال ما كانَ يَفعلُ

مِنَ القومِ ، سادُوا بالروائعِ جُوَّلاً ... تُسايرُها منهم صنائعُ جُوَّلُ

إذا القولُ لم ينصرهُ خُلقٌ مهذَّبٌ ... فلا تكُ من أنصارهِ حينَ يُخذَلُ

إذا ما التمسنا الصَّبرَ ، نرجو ثوابَهُ ... أبتْ أنفسٌ منا مجازيعُ ثُكَّلُ

هَوَى السَّابحُ الضافى الجناحين، وارعوى عَن الأمـدِ الأقصَى الأغرُّ المحجَّـلُ
أقولُ (لإسماعيلَ) إذْ خَفَّ ركبُهُ وأزعجهُ داعٍ مِن البين مُعجِلُ
عليكَ سلامُ الفاضلين مُباركاً فإنكَ أنت العبقرىُّ المفضَّلُ
مَضَى الشِّعرُ يهوى فى رحالك، وانطوى سَنـا الوحى فيهِ، والبيانُ المفصَّلُ
وإنك إذ تَفْتَنُّ فى معجزاتهِ لذُو بيِّنـاتٍ بالأعاجيبِ مُرسَلُ
كأنَّ التماعَ البرقِ فَيْضُ شُعاعهِ إذا اسْتَنَّ فى إيمـاضهِ يتهلَّلُ

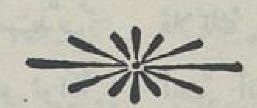
***

ذوى الرَّوضُ، حتى ما مُحبِّيهِ ناضرٌ وأقفرَ، حتى ما يغنِّيه بلبلُ
إذا هاجهُ سِربٌ مِنَ الطيرِ ناعبٌ تداعى به سِربٌ يُرنُّ ويعولُ
يُناشدُ أنفاسَ الصَّبا، يستزيرُها فتـأبى، ويستسقى الغمامَ فيبخلُ
إذا مادَنتْ مِنْ جانبيْـهِ، تنكبتْ تَحيدُ، ومرَّتْ خِفيةً تتسللُ

***

سكتَّ، فما يَزْهَى البلابلَ بالضُّحَى مِراحٌ، ولا يغشى الخمـائلَ أخيَـلُ
لصوْتكَ حادى الدَّهر، إنْ شفَّهُ الونى وهاديهِ، إن أعيَـا على الركبِ مَجهلُ
ولن تنقضَ الأجيالُ ما أنتَ مورثٌ وإنْ جَـلَّ ما تمتـاحُ منـهُ وتبذلُ
يزيدُ ويؤتى فضله كلُّ معتفٍ وإنْ لجَّ مِتلافٌ وأفرط مُجزلُ
لجيلِكَ فيها نِعمةٌ لم يَجُدْ بها على قومهِ ذو النعمةِ المتطوِّلُ
تظلُّ إذا استسقتْ أساكيبَ جُودِهِ تُعَلُّ بمعسولِ النِّطافِ وتُنهَلُ
إذا ما ذكرنا الأولين لواجبٍ مِنَ الحقِّ نقضيهِ، فذكرُكَ أوَّلُ

أحمد محرم





الفردوسى الشاعر الفارسى

ان الاحتفال بمرور ألف سنة على حياة الفردوسى شاعر الفرس الشهير ومؤلف (ملحمة الشاهنامة) فى هذه الأيام قد طبق الخافقين فقام الناس وقعدوا لتكريم رجل فى الشرق من نوابغ الشعراء وجاء الاساتذة والدكاترة من اطراف أميركة الشمالية الى بلاد ايران لحضور المهرجان الذى تقيمه طهران احتفاءً بمولد كبير شعرائها .

والشاهنامة هى الملحمة البديعة التى بقيت أشبه بالياذة أوميروس دستوراً للادب الفارسى وقد عنى الدكتور محمد آغا أوغلو أستاذ الفن الاسلامى فى جامعة مشيغان الاميركية ومدير القسم الشرقى فى متحف الفنون الجميلة فى مدينة ديتروبت بهذا الشاعر وتعريفه للغرب بما نشره من المقالات فى الصحف الاميركية جرائد ومجلات وهو صديق الدكتور النظامى وطنينا وصديقنا لطفى السعدى رئيس معاينة الأمراض الداخلية فى جامعة هاربر (ديتروبت) وكاتب البحوث المفيدة فى مجلات أميركة عن الطب العربى وفنونه وأعلامه فرافقه الى بلادنا واقترن بفتاة مهذبة فان سكتت الصحف عنه فقد نطق فضله بآدابه . . وان أهملنا نحن ذكر علمائنا أحياءً وأمواتاً فنشكو أمرنا الى الله الذى يلهمنا معرفة قدر الرجال الذين يجب الاحتفال بهم وهذه كلمتى فى الفردوسى .

توطئة

اتصل العرب بالفرس من زمن قديم ووقفوا على آدابهم واقتبسوا من آثار أفكارهم وبنات أقلامهم . فالفرس أمة قديمة اشتهرت بآثارها وشعوبها وآداب لغاتها كما تدل العاديات المكتشفة والتواريخ المنقوشة على الصخور وفى بطون الاوراق والآجر ، من ذلك كتاب كليلة ودمنة الذى نقله الينا ابن المقفع من الفارسية المعروفة بالبهلوية وهو مشهور ومعروف بأدب القصة وحسن المغزى واجادة السياحة .

ونبغ من الفرس أطباء مثل ابن سينا ، ونحاة مثل سيبويه ، وشعراء مثل بشار بن برد وبديع الزمان الهمذانى ،ولغويون مثل الكسائى والفراء وأبى عبيدة ، وكتاب مثل ابن قتيبة، ومؤرخون كالبلاذرى والدينورى والثعالبي،ومترسلون كالخوارزمى، وجغرافيون كالاصطخرى وابن خرداذيه ،وفلاسفة كالفارابى والغزالى واخوان الصفا وفقهاء مثل أبى حنيفة النعمان ، ورواة مثل حماد،وكلهم كانوا من رجال النهضة ولهم مؤلفات وكتب هى مرجع الطلاب ومنتجع الأدباء ولبعضهم آثار أقلام بلغتهم الفارسية مما لامحل لتفصيله ولطالما اقتبس شعراؤنا من المعانى الفارسية وتحدى كتابنا ومؤلفونا أساليبهم ونقلوا أفكارهم وافتخروا بنتاج عقولهم .

نشأة الفردوسي وشاهنامه

كان العصر الذهبي للآداب الفارسية بين القرنين العاشر والحادى عشر للميلاد فأزهرت العلوم والفنون ولا سيما الشعر فنبغ فيه كثير من الشعراء والكتاب والعلماء وبينهم الشاعر العبقرى (الفردوسى) الذى أفقت شهرته وذاع صيته وتناقل الناس آثار أقلامه وبنات أفكاره .

(فالفردوسى) هو نصير الدين الطوسى نسبة الى مدينة (طوس) الفارسية التى أنجبته فوُلد فيها سنة ٩١٦م (٣٠٤ هـ) واشتهر بعبقريته وجودة قريحته وقوة بادرته فى النظم فنال منزلة عظيمة فى عيون القوم وأقبلوا على منظوماته ولا سيما (الشاهنامة) الملحمة الطويلة التى صرف ثلاثين سنة فى تأليفها فضمنها تاريخ ملوك ايران منذ أول عهدهم الى زمن خسرو ابرويز واسترسل فيها الى وصف أساطيرهم وخرافاتهم وخيالاتهم مما يتعلق بأخلاقهم وعاداتهم حتى أجاد ما شاءت بلاغته فى تصوير أصول الدول وشؤونهم والشعب ومزاياه وسرد الحوادث أجمل سرد ببلاغة ورشاقة حتى كانت ملحمته هذه ستين ألف بيت من الشعر الفارسى المتين فكانت أبلغ ما نظم بالفارسية بل جاءت حداً فاصلاً بين الشعر الفارسى الصرف والشعر الفارسى الملمع بالكلام العربى الكثير الشائع إذ ذاك .

وقدمها الفردوسى الى السلطان محمود ابن سبكتكين الغزنوى فذهب المؤرخون فى خبر هذه التقدمة الى رأيين :

الأول — أن السلطان الغزنوى كافأه بدينار عن كل بيت فنال ستين ألف دينار وذلك فى أوائل القرن السادس للهجرة .

فرأى الفردوسى الجائزة كبيرة وكان لم يسبق له عهد بمثلها قبل ذلك فاستولى على عقله خبال أدّى الى اختلاله فمات من ليلته لشدة ذهوله .

والثانى — أنه لما قدم ملحمته هذه للسلطان المذكور لم تنل هديته الحظوى لديه فأساء معاملته وفرّ الى بغداد وهجاه بقصيدة بليغة . فاضطر السلطان الى استرضائه باستقدامه اليه نادماً على تسرعه بعدم تكريمه واجازته ، فلم يلبّ الفردوسى طلبه بل مات غريباً عن وطنه وترك ابنة وحيدة له نزل فيها ضيق ذات اليد فأصبحت فقيرة يتيمة .

فلما نمى خبره الى الغزنوى وعرف ما هى عليه ابنته من الحاجة والفاقة أجازها على منظومة أبيها الآنفة الذكر بمال كثير ، على أنها لكبر نفسها وابرّها بوالدها أرجعت اليه المال آبية التمتع بعد أبيها بمال حظر عليه فى حياته ، فعجب السلطان منها .

عناية الغرب بالشاهنامة

ولما وقف الافرنج على آداب الفرس وعصرهم الذهبي فى ذلك العهد كتبوا مؤلفات عنهم واعتنوا بدرس الشاهنامة وترجمتها والوقوف على أفكارها مع أن جيران الفرس من العرب وغيرهم لم يحفلوا بها ولا احتفوا بها تلك الحفاوة الواجبة لما فيها من البدائع والأفكار الشرقية والصور الخيالية وحسن الانسجام والرصف .

وممن اعتنى بها فى القرن الماضى جول موهل المستشرق الالمانى المتوفى سنة ١٨٧٦ م . فطبعها فى باريس بغاية الضبط والدقة والترتيب فى سبعة مجلدات ضخمة ونقلها الى الفرنسية وذيلها بالحواشى والتفاسير فجاءت آية فى الابداع ووقف الأوربيون على أفكار الفردوسى وحسن تصرفه بالمعانى وسرد الأخبار .

وجاء بعده المستشرق الروسى نيكولا خانيكوف المتوفى سنة ١٨٧٩ فكتب فى آداب الفرس وشعرائهم وأفاض فى وصف الفردوسى وشاهنامته هذه لأنه كان قنصل دولته الروسية فى تبريز فعرف الفارسية وتعمق فى فهمها حتى كشف حقائق غامضة عن الشاهنامة .

وعقبه آخرون فى هذه الدروس من المستشرقين مثل ادورد برون الانكليزى الشهير فوضع كتاباً انجليزياً فى تاريخ آداب اللغة الفارسية ونوابغ الشعراء والكتاب

والأدباء على اختلاف طبقاتهم وفيه تفصيل وافٍ عنهم وعن شاعرهم الفردوسى وملحمته الى غير ذلك مما لا محل للافاضة فيه بهذه اللمعة .

شاهنامة تركية

ولما كان الشىء بالشىء يُذكر نشير هنا الى منظومة تركية لناظمها الفردوسى الطويل باسم الشاهنامة فى عهد السلطان بايزيد العثمانى بلغ عدد أبياتها المليون أو أكثر على قول أحدهم تحدى فيها الناظم شاهنامة الفردوسى فانتقى منها ثمانين مجلداً فأهداها الى السلطان المذكور فلم يجزه عليها بشىء فغادر البلاد العثمانية الى خراسان آسفاً على ما أصابه من الفشل .

هذا ما رأيت الآن ذكره باختصار من درس مطول لى فى شعراء الفرس بكتابى « التذكرة المعلوفية » ذكرى لهذا الاحتفال والسلام ؟

زحلة (لبنان) عيسى اسكندر المعلوف



أبولو والشعراء

قرأت أخيراً فى مجلتكم تحت هذا العنوان كلاماً ، أحسب أن لى الحق فى التعليق عليه ، على الأقل باسم ماترددونه كثيراً من تسامحكم الأدبى ، وافساح المجلة لما قد يوجه اليكم من النقد ! وعلى غير عادة أحتفظ بنسخة أخرى من هذه الكلمة اذ أننى لا أثق كثيراً بما يذيعونه عن تسامحكم وترحيبكم بالنقد .

وأظنكم تعترفون معى أنكم فى بعض ما كتبتم قد وصلتم إلى مستوى أعلن أسفى وعجزى معاً عن مجاراتكم فيه ، فان أخلاقى التى يطيب لكم الآن — فقط —

أن تغمزوها ، تأبى علىّ الهبوط إلى مستوى الشتائم القـذرة التى هى فى متناول كل الأقلام ، ولا يشرفكم ، كما أنه لا يشرف أى إنسان ، أنه يستطيع صف عشرات من هذه الشتائم بعضها بجانب البعض ، كما أننى أعتقد أنها ليست جزءا من البرنامج الواسع الذى تسعى (أبولو) فى تحقيقه ، فهذا على ما يبدو لى أول درس فى برنامج جديد ، أو الدرس الثانى فقد كان لزميلكم « صالح جودت » فضل الابتكار !

وأنا أستعير بعض سماحتكم وترفعكم ، فأتسامح وأترفع عن التعليق على هذه الشتائم ، وأبيح لكم ولمن تبيحون لهم صحيفتكم ، أن تتناولونى بشتم جديد على حساب الأخلاق الفاضلة إذا عنّ لكم ، فحينما تصل المسألة إلى تبادل كلمات « الصفاقة » ومثل سيد قطب ، والحاجة إلى عرفان الأدب الاجتماعى ، حينما تصل المسألة الى تبادل مثل هذه الكلمات تخرج من الأدب والمجلات الأدبية إلى مجال آخر يتسع لهذه الألفاظ !

ويبقى إذن بعد هذا أمران قد يكونان « أنظف » من تلك القذارات وهما أن مجلة (أبولو) عرفتنى للناس ، وأننى أتظاهر بمظهر المقصود المرجو الذى يهم الأدباء اراؤه و نقده .

فأولاً أريد يا سيدى أن تذكر ، وأن يذكر كذلك أولئك الذين يتبرعون بمعونتكم كلما ظهر لكم خصم أن أول قصيدة نشرتها لى « أبولو » لم أكن قد أرسلتها اليها ، ولكنها نقلتها عن « الأهرام » . وصحيفة الأهرام ، ولا شك ، توزع أعداداً لا تقل عما توزعه أبولو !

وأود أن تذكروا كذلك أنها لم تكن أول قصيدة بالأهرام ، كما أنه قد سبقها ما نُشر منذ عام ١٩٢٤ بالبلاغ اليومى والأسبوعى وكوكب الشرق والوادى والمصوّر وسواها من الصحف التى لا يقلّ ما توزعه عن مجلة أبولو الواسعة الانتشار !

وأثقل عليكم بأن تتذكروا أننى لم أنشر فى أبولو الا ثلاث قصائد بعد ذلك ثم امتنعتُ عن النشر ، مع تكرار طلبكم لبعض المقطوعات ، وقد رأيت لأشياء خاصة لاحظتها فى جوّ « أبولو » ألاّ أنشر فيها شيئاً ، كما منعتنى هذه الأشياء نفسها أن أقبل الانضمام إلى جماعة أبولو — مع تكرار دعوتكم لى أيضاً — أظنكم تنكرون ذلك بعد ما صرحتم أنتم به أمام بعض الاخوان ومنهم زميلنا عبدالعزيز عتيق .

وإذن فالفضل الذى تريدون أن تعرفوه لأبولو علىّ ، آسف لأننى لا أستطيع أن أتشرف به .

بقى أننى أتظاهر بمظهر المقصود المرجوّ الذى يهم الأدباء آراؤه ونقده وما أريد أن أقص عليكم شيئاً من الخارج ، ولكننى أريد أن أذكركم بعدة حوادث وتصريحات لكم شخصياً ، وأنا متنازل عنها إذا خطر لكم أن تصدروا عنها بلاغاً رسمياً كالبلاغات التى نشرتموها فى كلمتكم الأخيرة تقولون فيه « غير صحيح بالمرة » فهذه خطة لا تكلف أصحابها شيئاً !

أريد أن تذكروا أنكم رجوتم فى إلحاح - أن أكتب دراسة لديوانكم (أطياف الربيع) وأنكم أرسلتم لى الكتاب فى أثناء طبعه « ملزمة ملزمة » لدراسته ، ولكنى لم أستطع أن أنهض بهذه المهمة .

وأن تذكروا كذلك أنكم طلبتم مثل هذا الطلب — فى تلميح هذه المرة — عند إعادة طبع ديوانكم الأول « أنداء الفجر » فاعتذرت لكم بأننى أفضل الكتابة بعد ظهوره فى الصحف ، وإن كنت لم أستطع أن أنهض بهذه المهمة كذلك .

وأن تذكروا انكم عرضتم علىّ مرات أن أقوم بدراسة لمؤلفاتكم واكتب عنها محاضرة كالتى ألقيتها عن العقاد ، وبعض هذا العرض كان مرات أمام زميلنا « فايد العمروسى » فى دار مجلة أبولو ، حتى لقد هممت أخيراً أن ألبى هذه الرغبة الملحّة وأن أدرس آثاركم جميعاً وأخذت فعلاً فى هذه الدراسة على كثرة ما يصرفنى عنها .

وأن تذكروا أيضاً انكم أشرتم الى أن أكتب دراسة عن « الألحان الضائعة » لزميلكم الصيرفى لتطبع بالكتاب ، وأن هذه الاشارة كانت لزميلنا عبدالعزيز عتيق وقد أبلغنى إياها ، وعبدالعزيز أصدق منى ومنك على أقل تقدير فى هذا الموضوع ! ولابد أنك تذكر يا دكتور حكاية الاعلان الذى كنت قد نشرته عن مجلتكم «أبولو» فى الأهرام ، فاذا بى أجده فى مجلة « الامام » منشوراً بامضائى وتذكر اننى غضبت لهذا التلاعب ، وقلت لك : إننى لست من عشاق الامضاءات الذين يوقعون على كل ما هبّ ودبّ لتنتشر أسماؤهم . وتذكر ، ولا شك ، ما حاولت أن تسترضينى به من أنكم تعتزون بمثل هذا التشجيع الكريم وتودون تكرار الكلمة ، وأن هذا هو الذى حملكم على إعادة نشرها بامضائى ، ويمكنك أن تستعين بذاكرة الزميل محمود حسن

اسماعيل » إذ الظاهر يا دكتور أن الصيف وحالة « أبولو » التى بسطتها لمعالى وزير المعارف تؤثر على ذاكرتك وأعصابك فى هذه الأيام .

***

وبعد هذا يا سيدى الدكتور فانى كنت أود لك ، ألا يخونك قلمك فتهوى إلى مثل هذا المستوى ، وأن تظل مالكاً لأعصابك ، متظاهراً بما ظللت تتظاهر به من التسامح والبعد عن المهاترات .

ومهما كان أثر كلمات « معركة النقد » وما خشيتم أن تحدثه من تعويق لكم فى مطالبكم أمام معالى وزير المعارف ــ كما صرحتم لبعض الزملاء ــ فانه لم يكن ذلك فى حسابى ولم أرم اليه ، ولم يكن يجمل بكم أن تفتعلوا هذا الانفعال ، وأنا لا زلت أتمنى لكم هدوء الأعصاب وانتظام الميزانية لخير الأدب ، ومعونة وزارة المعارف والسلام عليكم ورحمة الله ؟

سيد قطب

***

(لا يا دون كيشوت[1] ! نحن لن نحجم عن نشر أدبك البارع فهو فريدٌ فى طرازه وقد ينتفع به سرفانتس آخر ، وإن كنا نحجم طبعاً عن نشر ما هو أخصُّ لأنه يهمنا أن لا نُفسد عليكَ مظهرَ البطولة التى فتنتكَ أنتَ وزميلك السيد فايد (سانشكوبانزا) . . . .

حقيقةً نحن آثمون فى أن ننسب اليك أيها البطل طبيعةَ الصفاقة ، فانما هى شجاعتك الباهرة فى قلب ما نظنه نحن حقائق ، لأن . نظرك الثاقب يرى غيرَ ما نرى وقلمك الجرىء يؤمن بمذهبك الحكيم : « إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت » ! . . وما الحياء فى مذهبك الحكيم إلاَّ نوعٌ من الرذائل القديمة ، وما الصدق المألوف فى فلسفتك الجديدة إلاَّ هذرٌ فى هذر ، ولا شك فى أنك مصيبٌ فى كل هذا بدليل انتصاراتك الباهرة وآخرها معركة الطاحونة الشهيرة ! ولعلها ما جملتك تمرح فى الأوصاف النقية التى تزدان بها رسالتك المهذبة الأصيلة .

---

(١) تطلب سيرة دون كيشوت بالعربية من المطبعة السلفية بشارع اللبودية بالقاهرة .

إنّ مجلة « الأسبوع » الغراء ميسورةٌ وكذلك عدد « أبولو » الماضى فليراجعهما القرّاء ليروْا إذا كنَّا تجنَّينا عليك فى شىء ، أو أننا بعد حلمٍ طويلٍ وبعد تنبيه صريحٍ لك دافعنا عن شرفنا فحسب ازاء تفننك المدهش فى اختراع الاتهام . ولكن عذراً لغباوتنا ، إذْ كان يجب أن نقدّر على أىّ حال أن اتّهامك لا مرية فيه ، وأنّ مجرد تنازلك لاتهامنا بأخسّ التّهم هو تشريفٌ أكيدٌ لنا ! ألستَ دون كيشوت العظيم ؟ !

نحن لم نطلب منك أيها العزيز أن تكتب شيئاً مطلقاً عن أى مؤلَّف من مؤلفاتنا فنحن لم نحلم أبداً بمثل هذا الشرف من تلقاء أنفسنا ، ولكنك أنتَ العظيمُ الذى تفضَّلتَ بعرض ذلك ، وألححتَ فيه تكراراً ، ونمَّقتْ لنا أحاديثُك ما شاء كرمك من تقاريظ كثيرة لدواعٍ نبيلةٍ أنت أدرى بها ، ولكننا لغباوتنا وسخافتنا لم نعرف كيف ننتفع بهذا الفضل ، كما لم ننتفع بتلك التقاريظ الكثيرة والدراسات التى تحت أيدينا ممن يدعون غروراً أنهم أفضلُ منك . . .

كذلك لم نطلب منك أيها العزيز أن تكتب شيئاً عن « الألحان الضائعة » وقد خانتك ذاكرتك تماماً وفاقاً لقانونك الأدبىّ الجديد ! لقد صدر هذا الديوان بعد أن كشفتَ عن شخصيتك النبيلة فى مجلة « الأسبوع » على أثر اعتقادك بأن كلاًّ من « الإمام » و « أبولو » قد انتهى أمرُهما ، وكلُّ ما وقع منا أننا رجونا صديقنا الشاعر عبدالعزيز عتيق أن يوافى « الأهرام » بتصديرنا للألحان الضائعة من باب التنويه بهذا الديوان الجديد قياماً بالواجب نحو زميل نابه . ولكن لابدَّ أننا غير صادقين ما دمتَ أنت تقول ذلك أيها البطل !

نحن لا نمنّ عليك يا دون كيشوت فالمنُّ ليس من خصالنا ، ونحن نقرُّ بصراحة أنك كمعلمك الشهير من أصحاب الفضل على الجميع وليس لأحدٍ فضلٌ عليكما أبداً ! وصحيح أن مجلة « أبولو » نشرت قصيدة لك عن « الأهرام » وعُنيتْ بالتنويه بها تنويهاً فنياً استأهل تنازلك لشكرنا بعد أن كان شعرك مغفلاً فى البيئات الأدبية ، ولكن من حقك طبعاً إلغاء هذا الشكر ففروسيتك تقضى بذلك الآن بعد أن انقضى الزمنُ الذى كنا نتوسط لك فيه بالخير عند رئيس تحرير « الأهرام » وهذه (أبولو) عرفت بأدباء يقال إنهم أفضل منك كثيراً ، ولكن هذا القول هو بلا شك هراء فى هراء !

وأما عن ترشيحك فى « جمعية أبولو » أيها العزيز لخلوّ مركز أحد شعراء

الشباب فأمرٌ اعتيادى لم نذكره لك إلا مرة ، وأكبرُ معناه تسامحنا واحترامُنا لشتى البيئات الشعرية ولا نعرف له معنى بعد ذلك ، ومع هذا فتفسير دون كيشوت لابدّ أن يكون هو الأرجح والأصوب ... واذا بُلِّغ دون كيشوت شيئاً بصفته محرراً فى جريدةٍ محترمةٍ كما يبلَّغ غيره (وجميعُ محرريها بحمد الله من أصدقائنا) وجبَ أن نعتبر احترامه هو الأصل ، وأما الجريدة العظيمة فتابعة له كما يقضى بذلك المرسوم الكيشوتى! ولابد أن يكون هو المقصود لذاته دائماً فهو ربّ الشأن أولاً وأخيراً !

وأما عن كلمتك فى « الأهرام » عن مجلة « أبولو » فصحيح أننا قلنا إننا نعتز بها ما دامت من صديق ، وقلنا ذلك باخلاص أكيد وتقدير لمحبتك الظاهرة لنا ، ويؤسفنا أننا كنا مخدوعين فى ذلك أو على الأقل برهنا على أننا لسنا أهلاً لطراز صداقتك الغالية وفلسفتك الأخلاقية العالية التى تجعلنا نرى العالم كالجمجمة المنخوبة على رأى استاذك الجليل الذى تعمل لحسابه ضدّنا . ولو أن لنا بعض النفوذ لاقترحنا على وزارة المعارف التى أصبحتم من رجالها الأفاضل أن تسند اليكم تدريس مذهبكم العبقرىّ الجديد فى « الأخلاق » فى الجامعة فليس أقل من ذلك جديراً ببطلنا دون كيشوت !

وأما عن توجّهنا الى صاحب المعالى وزير المعارف فلا شأن له بحملاتك العبقرية ومعاركك الدموية ، فهما أصابنا منها فلا حرج علينا اذا قابلنا معاليه مجروحين مثلومين ، فمَن نكون نحن بجانبك يا دون كيشوت ؟! ولكننا بحمد الله غير مثلومين ، فى شىء وقد تعففنا عن الكشف عن جراحاتك — جراحات البطولة طبعاً !

وبعد ، فثق أيها العزيز أن كل من خبرك خبرة كافية بل كل عاقل لا يحمل لك غير الشفقة وحبّ الخير ، ونرجو من عظمتك أن تتنازل فتعدّنا بين العقلاء وحينئذ نجعل هذا الردّ آخر ما بيننا وبينك ، فحرامٌ أن نقسو عليك ونشدّ أذنك أكثر من اللازم أو أن نشغل القراء بقصص بطولتك ومغامراتك بينما نريد اجتذابهم الى الشعر والأدب الحىّ ، وإن كانت شخصية دون كيشوت ومعاركه بلا شك أمراً خطيراً فى هذه الدنيا المقلوبة . وما نود أن نتدلى فنشرح حقائق هذه المعارك الوخيمة وعناصر بطولتك تفسيرا لما نعتّه بالقاذورات ونحوها ، وتيسيراً لشرّاح أدبك فى المستقبل ، وفى مقدمتهم الشاعر الناقد صالح جودت الذى خصصته باشارتك فان لنا فى الأدب رسالة غير كل هذا ، والسلام — المحرر) .



تكريم زكى مبارك

أشرنا من قبل الى تكريم الدكتور زكى مبارك فى القاهرة تكريماً باهراً لاصداره كتاب (النثر الفنى فى القرن الرابع) الذى لا يُعَدُّ كتابَ العامِ فحسب بل الكتاب الممتازَ من طرازه منذ أعوام . وقد أبت الاسكندرية إلاَّ أن تساهمَ فى الحفاوة بنبوغه الأدبى فأقامت له (جماعة الأدب المصرى) حفلةً شائقةً فى مسرح نادى موظفى الحكومة مساء يوم السبت ٨ سبتمبر الماضى ، وانما قامت بهذا الواجب الذى اشترك فيه أكثر من شاعر لثلاثة اعتبارات : أولها أن مؤلّف الكتاب أديبٌ مصرى ممتاز ، وثانيها أنه لم يفته فى كتابه نقد جانب هام من الأدب المصرى فى ذلك العصر ، وثالثها أنه عالج كذلك نقد الشعر والمقارنة بينه وبين النثر الفنى فاستأهل من أجل هذا حفاوة الشعراء بفضله .

وقد كان طابعُ الحفلة الاخلاصَ الشديدَ والصدقَ الأكيدَ والاعجابَ الصحيحَ ، وهى صفاتُ المخلصين من أصدقاء الأدب .

وكان أوّل المتكلمين فى هذه الحفلة الباهرة الأديب على محمد البحراوى سكرتير (جماعة الأدب المصرى) فأشار الى أن التكريم هو نوعٌ من النقد وأن المؤلف لا يُكرَّم إلاَّ بعد أن يكون النقدُ الأدبى قد انتهى من تصفيته والحُكم بوجوب تكريمه . ثمَّ تكلَّمَ عن أدب زكى مبارك وشمائل تصنيفه الجليل والمعيَّنة الحقَّة ، واغتباط (جماعة الأدب المصرى) بالنيابة عن أدباء الاسكندرية بتنظيم هذا الاحتفال .

والقى بعده الشاعر عِثمان حلمى قصيدةً عصماء جاء فيها :

ما على القائلين أحسنتَ عيبٌ لمجيدٍ ، والعيبُ عند مَلامهْ

غيرَ أنَّ الحسودَ آلَمُ قلباً مِنْ فؤادِ المحسودِ رغمَ سقامهْ



الدكتور زكي مبارك وسط لجنة المحتفلين به من الأدباء في الاسكندرية قبل ابتداء الحفلة

ما له لا يَرَى الضياءَ بطرفٍ أظلمَ الحقُّ فى دُجَى إظلامِهْ
دونَه لو رأى الضياءَ كتابٌ تتجلَّى الجهودُ فى أحكامِهْ
هو ذخرُ الأديبِ لو شاء ذخراً وهو يكفى لو كان كلَّ حطامِهْ
كرِّمُوا النابغين فى الشرقِ حتى يتجلَّى بانيهِ مِنْ هدَّامِهْ

ثم ألقى بعده الأديب على حافظ من أعضاء الجماعة ومن رجال التعليم خطبة قيمة تكلم فيها عن حياة مؤلف (النثر الفنى) فى الأزهر وفى الجامعة المصرية وفى جامعة باريس ، الى أن قال : « وقدَّم الى السوربون رسالة لنوال الدكتوراه فنالها بتفوُّق يشهد له بالنبوغ ، وكانت رسالته الأولى من نوعها وهى كتاب (النثر الفنى) الذى يجلّ الوصف عن حصر معانيه بل يقصر البيان عن تبيان محاسن مراميه ... ذلك كتابٌ سلخ المؤلفُ سبعَ سنين فى تأليفه هى من أنضر أيام حياته ، وكلُّ أمله أن يصوغَ لعالم الأدب درَّةً ثمينةً فى تاريخه فبذل جُهدَ الجبابرة ودأبَ على مواصلة العمل دون كللٍ أو مللٍ حتى وُفِّقَ الى نوال ما كان يصبو اليه » .

وتبعه الشاعر عبدالمعطى حجازى سكرتير لجنة الاحتفال فألقى قصيدة ممتعة طويلة .

ثم ألقى بعده الشاعر محمد فضل اسماعيل قصيدة رائعة فى تقدير المحتفل به ، ثم تبعه الدكتور أبوشادى باستعراضٍ شاملٍ لموادّ الكتاب ومزاياه معرّفاً بمكانته الأدبية الفذّة .

ثم تكلم الأديب كليم أبو سيف سكرتير لجنة القاهرة الذى لم يتمكن سابقاً من حضور حفلة العاصمة بسبب مرضه ، فكانت كلمته آية فى الوفاء لصديقه المحتفل به ونفاذاً الى معانى أدبه .

وأخيراً تكلم المؤلف الفاضل فشكر أدباء الاسكندرية وعدَّ حفاوتهم الكريمة كما عدَّ من قبل حفاوة أدباء القاهرة به مؤاساة روحية له فى كفاحه الطويل لخدمة الأدب . ونوّه بفطنة الشعب المصرى الذى لا يفوته تقدير المخلصين العاملين إن عاجلاً أو آجلا كما يدلّ تاريخ نهضته الوطنية . ومما زاده غبطة أنه لا يعرف من الخطباء السكندريين سوى سكرتير الجماعة ، فرابطة هذا الاحتفال إذن رابطة أدبية محضة عنوانها الاخاء الأدبى الخالص ولو على غير معرفة شخصية بحضرات الأدباء المحتفلين به .

وقبل انتهاء الحفلة قدم سكرتيرها بالنيابة عن أدباء الاسكندرية الى المحتفل به لوحة

فنية كتبَ فيها اسمَ المحتفل بالخط الكوفي الأديبُ محمد حلمي مدرس الرسم بمدرسة طاهر بك الاميرية بالاسكندرية ، كما قدَّم اليه الطبعة الفرنسية والطبعة العربية من كتابه مجلدة تجليداً فاخراً ، قائلا إن (جماعة الأدب المصري) لم تجد أجمل ولا أكرم منهما هديةً لائقةً بالاهداء اليه . وفي يوم الاحد ٩ سبتمبر أعدَّ الأديب اسماعيل برعي وليمة غداء شهية لأدباء العاصمة عند الشاطىء حيث استوحى الدكتور زكي مبارك ذكرياته الشعرية العزيزة في قصيدته « بعد فراق الشاطىء » المنشورة في ديوانه .



البشبيشي الشاعر

فقدتْ أسرةُ (أبولو) في هذا الشهر (سبتمبر) عضواً من خيرة أعضائها الشباب ألا وهو الشاعر محمد أبو الفتح البشبيشي صاحب قصيدة « في ليلة ... » (أبولو ، م ١ ، ص ٧٧٤) التي كأنما كان يرثي فيها نفسه المتطلعة الطموحة ويرثي معها حظَّ النبوغ في هذه الدنيا . وهذه النزعة الحزينة منعكسة كذلك في ترجمته لمرثيةٍ عن شكسبير (أبولو ، م ١ ، ص ١٠٠٨) .

وقد كانت لوفاته رنّةُ حزنٍ عميقٍ في (ندوة الثقافة) ، ولا عجب ففضلُ المرء لا يقاسُ بسنهِ ، وإن النبوغ المبكر المقترن بالأخلاق الفاضلة والفكر الرّزين لما يُحسّ فقدانه بألمٍ ممضّ عميقٍ .

وفي مجلدَيْ (أبولو) الماضيين نماذج مختلفة من شعر البشبيشي تتجلى فيها القوةُ والجراءةُ ، وهي كافية لأن تدحضَ ما يقوله جزافاً بعضُ شيوخ النقاد من أن شعر الشباب فجٌّ وبعيدٌ كلَّ البعد عن عناصر الإرضاء ، فالحقيقةُ أن ما يظهر لشعراء الشباب في هذه المجلة يتسم بالنضوج ، بل كثيرٌ منه يبتدىء حيثما انتهى شعرُ فريق من شعراء الشيوخ ، وهي حقيقةٌ يعترف بها كلُّ ناقدٍ مستقلٍّ نزيهٍ

بعيدٍ عن التيارات العدائية الموجَّهة الى (جمعية أبولو) ومجلتها ، وهى تيارات ما كان يجوز وجودُها لولا الأنانية التى تجنى على جميع مظاهر الحياة فى مصر وتُضحك العالم منا !

ولذلك أنجرَّأ فى الوقت الذى أعزِّى فيه آل الفقيد الكريم بالنيابة عن « ندوة الثقافة » فأشير عليهم بطبع مجموعةِ شعره تذكاراً لهذا الأدب اليانع الذى اختطفته قسوةُ المنية اختطافاً قبل الأوان وفجعتنا فيه ؟

محمد عبد الغفور
(مراقب ندوة الثقافة)

الشعر الفرنسى الحديث

فى مقالةٍ شائقةٍ للأديب الناقد دافيد جاسكوين استرعى انتباهى ماذكره عن التوجّه القوىّ فى الشعر الفرنسىّ الحديث الى استمداد النَّبع الشعرىّ من عناصر اللاعقلىّ irrational وتحويلها الى أدبٍ إنشائىٍّ . وقد يكون هذا الأدب أحياناً متَّسقاً فى نشيد غنائىٍ مختار الألفاظ الموسيقية ، ولكنه غالباً يتابع الأخيلة التى تفاجىء الشاعر مدفوعةً بقوة اللاَّبيد فيصوِّرها بالالفاظ الشعرية التى توحيها ارتجالاً فى غير تعمُّدٍ للاختيار ، وهكذا تأتى كحُلمٍ متوالٍ حتى يبلغ غايته الطبيعية . وهذا يفسر ماتحتويه هذه القصائد الجديدة المطبوعة من أخيلة الشهوة والموت والنار ونحوها ، كما يُفسِّرها نظمها الفطرىّ الحرّ الذى يجعل الشعر فنّاً طليقاً لاصناعةً مقيدةً ؟

عبد الفتاح فرحات

ذكرى بلاكوود

فى السادس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٣٤ تُوفّى الأديب الناقد والناشر الاسقوسىّ الشهير وليم بلاكوود الذى اشتهر بحملاته على الشاعر الوجدانى العظيم

وليم كيتس فى (مجلة بلاكوود) حتى أنه نُسِبَ الى تلك الحملات القاسية الأثر السيء البليغ على صحة كيتس فعاجلته المنيةُ فى شبابه ، وقد أشارَ الى ذلك شيلى فى قصيدته « أدونيس » .

ولـكن بلاكوود ـ برغم جريرته هذه ـ كان كثير الحصافة فى آرائه النقدية ، وكان عظيم التشجيع للناشئين من المؤلفين والشعراء ، فكان ينشر لهم الـكثير من التصانيف والدواوين التى كان يعدّها شيوخ النقاد فى لندرة فجة لا تستحق النشر ولا الالتفات اليها ، والتى كان يتبين هو محاسنها بروحه الفنية الحرة . وبذلك خدم الحركة الأدبية فى بريطانيا أعظم الخـدمات فى القرن التاسع عشر ، فتنوسيت إساءته العظيمة الى كيتس بجانب تلك الحسنات الباهرة التى أخرجت الى عالم الادب عشرات من الادباء الموهوبين المغمورين . ومن أجل هذا كان قدوةً صالحةً ووجب على محبي الادب الذين طالما نعموا بحسناته تلك أن يحيوا الآن ذكراه لمناسبة مرور قرن على وفاته ؟

أحمد محمد مظهر

رسائل النقد

أُخذ على كتاب « رسائل النقد » مآخذ طفيفة لم تمسّ الصميم ولم يتعرض ناقدٌ لمادته : مِن ذلك أنّ ماورد بالفصل الأول يخالف الوقائع . أقول أولاً إننى لم أسردها سردَ الحقائق ولـكن سُقتها سياقَ القصة ، وثانياً ُذكر فى مقدمة الـكتاب انها خيال فى حقيقة ، وثالثاً كيف تـكون هذه المحادثات الطويلة حقيقية ؟ فهل يمكن أن يذكرها أحد أصحابها ؟ وهل يفهم بالبداهة عنها إلا أنها خيال ؟ ورابعاً يفهم الأديب أن هناك جوهراً وعرضاً فالعرض هـو الصبغة القصصية الساذجة كالمحادثات والوقائع التافهة والتواريخ المتعلقه بالوقائع التافهة ، والجوهر هو الحالة النفسية والعلمية التى كان عليها العقاد فى ذلك الوقت أو فى شرح نشأته الادبية . قد يحسب بعض الادباء أن تاريخ مقابلة شكرى والعقاد له خطره إذ يميط عن العلاقة الادبية بينهما . وليس للتاريخ ذلك الخطر . والأجدر بالتفات الباحث الناقد هو أنّ ديوان شكرى الاول ُطبع سنة ١٩٠٨ وديوان العقاد سنة ١٩١٦ ، فشكرى هو السابق والعقاد يتأثر خطاه

ويقلده . وأمام مآخذ العقاد الكثيرة من شكرى التى أوردتها فى كتابى يرى الناقد نفسه حيال أمرين : الأول أن يسلم بسطو العقاد عليه وهو الواقع ، والثانى أن يتسامح ويتغابى فيقول إنه تأثر به وانفعل بفنه وأفاد منه .

وأمّا أن يقول الناقد إن العقاد ليس بتلميذ شكرى ولم يسرق منه لأنه لم يعرفه معرفة شخصية الا بعد صدور ديوانه الأول فدفاع مردود بداهة ، فانى أسلم بداهة بأن العقاد لم يعرف شكرى فى السنة التى عينتها بل عرفه فى سنة أخرى بل لم يعرفه مطلقاً ولم تقع بينهما جفوة ... فهل هذا يدفع عن العقاد تهمة السطو ؟!

وانه لواضح لكل أديب فنان أن الفصل الأول فنى محض لم أرد به ذكر ماضى العقاد الأجوف من حيث يبعد عن مقصدى تنقصاً له وإقذاعاً ، وانما أوردته على سبيل قصة فيها نداوة وهوادة عليه أردت بها تحليل نفسه والمازنى فاقتصرت من حياة العقاد على أقل قدر ، إن لم يكن حدث فى السنة التى عينتها فقد حدث فى غيرها ، وانسقت الى ذكر المازنى لارتباطهما معاً . وأفاجىء القارىء بأن ما ذكرته عن المازنى قد أخذ من فم العقاد نفسه ! وبرهانى فى يدى وهو أن العقاد يشفع تنقصه المازنى ونيله منه (وذلك فى مجالس عامة ينقل الينا حديثها بعض أصحابنا) بذكر أمور لا يعرفها إلاّ هو والمازنى وأخصّاؤهما : منها قول العقاد عنه ما ذكرته فى « رسائل النقد » ، ومنها ادّعاؤه أن المازنى يأخذ حديث العقاد إذا تحادثا فيصوغه مقالاً يفخر به ، وأن صديقاً لهما يبحث عن كل مقال يكتبه المازنى فيجد له أصلاً فى الكتب الأجنبية وأنهم يسمونه من أجل ذلك « قلم المباحث المازنية » ، ونسب اليه مثالب أخرى لا أستصيب ذكرها . فأنا أخذت إذن من فم العقاد صفة المازنى ، حتى كتب المازنى مقاله واعترف بفضل شكرى عليه واساءته إلى شكرى وندم عليها ، وانه لخلق نبيل وهامة نفس سرية . وأما إنكار شكرى فضله على العقاد فقد أراد به نفى سعاية الساعين بينهما الذين اغتنموا هذه النهزة لمآرب لهم أخر .

وأمّا بعض الحدّة التى وردت فى كتابى فكيف لا يصفح عنها كلٌّ من استوعب هذه القصة وفطن إلى حرمان الأدب العصرى من آثار شكرى بسبب تلك الحملات الأثيمة ؟

رمزى مفتاح

عبد الرحمن شكرى

لا يستطيع الأديبُ كتمَ اعجابه بالشاعر عبد الرحمن شكرى لمناسبة ما كتبه فى الصحف متبرئاً من أىّ فضل له على زميليه العقاد والمازنى حتى ولا فضل « عريف القرية المفضول » ناسباً لهما وحدهما خلود الذكر والعلم السابق والمواهب الأصيلة الخ . الخ .، معلناً أنه تنحّى عن الاشتغال بالأدب نحو سبعة عشر عاماً زهداً فى الجوّ الأدبى المتشبّع بالكيد .

ومن الظلم أن توصَف هذه الروح بالضعف فانما هى روحٌ متصوّفةٌ ساميةٌ وقد لحظتُ ما يماثلها عند الشاعر خليل مطران : فبقدر ما كان المرحوم شوقى بك يتحدث لنا فى مجالسه عن فضل مطران العظيم على الشعر العصرى وعلى جميع الشعراء النابهين كان مطران يتبرأ من ذلك كلَّ التبرؤ ، وحتى من أىّ فضل له على تلاميذه ، حتى ليكاد بجملك تتخيل أنه هو وحده المدين بالفضل للجميع !

ومهما يكن من شىء فهذه الروح المتجردة المتصوفة أفضل عندى ألف مرة من روح الادعاء والكبرياء المصطنعة التى سمّمَتْ الجوّ الأدبى ، وخلقت الضغائن والحزازات ، وعملت على تسخير قوى الشباب للتطبيل والتزمير حول هذا الأديب أو ذاك بدل الأدب الانشائى الجدير بكرامتهم . أمّا نقادُ الأدب ومؤرخوه الأُمناء فيعرفون جيداً ما هو فضل شكرى وما هو فضل مطران على الأدب العصرى وعلى زملائهما وتلاميذهما وما أثرهما البعيد فى تكييف الثقافة الشعرية الحديثة ، وإنْ تبرّءا هما من هذا الفضل وعكسا الآية .

وبعد ، فلا يحسن بنا السكوت على ملاحظة أبداها شكرى بشأن الكيد فى الجوّ الأدبى ، لأنى أعتقد أن هناك من البيئات الأدبية ما يترفع عن ذلك كبيئة (أبولو) وبيئة (جماعة الأدب المصرى) ، وان من الخسارة الأدبية العظمى أن يستمرَّ شكرى على هذا التنحّى الذى لم يبق فى اعتقادى أىُّ موجبٍ له ؟

على محمد البحراوى

* * *

(نلاحظ مع كثير من السرور أن من نتائج النقاش حول شكرى والمازنى والعقاد أن عادت أخيراً المودة بينهم الى سابق عهدها. وقد فهمنا أنّ شكرى لن يحجم

عن نشر شعره الحديث متى وجد أنَّ الظروف مواتية لذلك ، ولعل هـذا يتحقق فى المستقبل القريب . وهو يلاحظ أنه أولى بالأدباء والنقاد أن يقتلوا شعره القديم دراسةً ونقداً قبل أن يطالبوه بنشر شعره الحديث ، وهو يرى أنَّ الأديب المحترف أوْلى بأن يُقدَّم على الأديب الهاوى لأنه أقدر من الثانى على خدمة الأدب . وقد كان شكرى وما يزال محباً للعقاد والمازنى برغم ما حدث بينهم ، فمن اللياقة إذن أن نقفل باب النقاش حولهم مادام قد انتهى الى هذه النتيجة السارة التى يغتبط لها جميعُ محبي الأدب والتى نرجو من ورائها الخير للأدب ذاته ، ويسرنا كثيراً أن يكون لنا أثر فعّال فى بلوغ هذه الغاية الجيدة — المحرر) .



أبولو ودفنى

(دَفْنى هى الحوريَّةُ الحسناء التى أحبَّها أبولو إلـهُ الشعر ، وقد تبعَـها فلما أدركها استحالت الى شجرة الغار [1])

أبولو

لستُ للصدِّ يا مُملِّكُ أهـلاً	يا حياةَ الفُنونِ ! ياحُسْنُ ! مَهْـلاً !
رَ معانيكَ ، فامنحْ الشعرَ وَصْلاَ	ها أنا عبدُكَ الذى يُنْشِدُ الشعْـ
لهفتى كالصلاةِ مَغزًى وأصْلاَ	أنا لهفـانُ يا جمالُ ، ولـكنْ
نى على سِرِّكَ المَصُونِ المُعَلَّى	لا تَخفْ يا جَمالُ ! لستُ سوى الحا

(١) عن ديوان (فوق العباب) الذى يطبع الآن.



(أبولو ودفنى — من تصوير الرسام دي جلن W.G. De Glehn فى الاكاديمية الملكية بلندن)

كيف تخشى تهافُتى ؟ كيف تأبا   نى حبيباً ؟ وهل ترَى الصدَّ سهلاً ؟
كلُّ إعجابىَ الذى أنتَ تخشا   هُ ورُوحى عواطفٌ تتملَّى
قد يرَاها الجُهَّالُ معْنًى سقيماً   ومِنَ الغَبْنِ أن تُطاوعَ جهْلاً
كم أباحُوا الحرامَ باسمِ حلالِ   وأباحوا عجائبَ الظُّلْمِ عدْلاً
لا تُصِخْ يا جمَالَ (دَفْنِى) اليهمْ   أو تَذَرْ هذه العواطفَ قتْلَى
هى دُنيا النّفاقِ يا حُسْنُ لا تَرْ   ضَى عن الفنِّ مخلصاً مُستقِلاً
عابداً فيكَ عبقريّتَكَ العُظْ   مَى ، ومستوحياً سناها الأجلاَّ
تَدّعى لهمتى إباحيّةَ الجـــــا   نى وتنْسَى لها خــــداعاً وختْلاً
كلُّ شوْقى إليكَ يا حُسْنُ ألحا   نٌ وأنتَ الخُلُودُ نُوراً وظِلاًّ
كلُّ شوْقى إليكَ معْنًى مِنَ الفَنِّ عزيزٌ ، ومِنْ جَنى النّحْلِ أحْلَى
ليسَ فيهِ خُشونةٌ أوْ ضلالٌ   بل هو (الذّوْقُ) ما بَنى الكونَ قبْلاً

قاطفاً منك للوجودِ نعيماً في نشيدٍ مِنَ القداسةِ يُتلى

دفى :

لا تَنَلْني الآ لتتويجك الفخْـ ـمِ، ودَعْني أحولُ كالغار شكلا!
نحنُ للفنِّ، غير أنّا نُعادَى كعدوَّين أشبعا الفنَّ قتلا
نحنُ في عالمِ الحياةِ غريبا نِ، فيا بؤسَ أهلِها اليومَ أهلا!

أحمد زكي أبو شادي



الزورق الحالم

(القصيدة الاولى من الديوان الموسوم بهذا الاسم وهو الآن تحت الطبع)

إلى الضفافِ البعيدهْ يا زورقي الذهبيّ
إذهبْ بروحي السعيدهْ لِوَكرِها الأبديّ
على نجومِ الوجودْ !

***

سَكرتُ مِن جام شِعْرِ يَرِفُّ بين شِفاهي
وتِهتُ مِن فيض سِحرِ يهفو كوحيِ الإلهِ
بالنورِ والظلِّ يضفو في حُسنهِ المتناهي

***

مالتْ عليَّ برأسٍ مُكلَّلٍ بالنُّضارِ

وعربدتْ عند صدرى ... بجمهم الأسرارِ
تَجُنُّ حُبِّي بقلبي ... وغاب عنى اصطبارى

***

قبَّلْتُها بعيوني ... في ثغرِها الرفّافِ
وقلتُ لمَّا تلاقتْ ... أبصارُنا في الطوافِ:
هاتي شفاهَكِ ! هاتي ! ... وَقرِّبي ، لا تخافي !

***

الشِّعْرُ منكِ دَفوقُ ... والشِّعْرُ قلبي الخفوقُ
والشِّعْرُ شعرٌ جميلٌ ... والشِّعْرُ وَجْهٌ طليقُ
والشِّعْرُ ثغرٌ نديٌّ ... أذوقُه فأفيقُ

***

الى الضفافِ البعيدَهْ ... يا زورقي الذهبيّ
اذهبْ بروحي السعيدَهْ ... لوكرِها الأبديّ
على تخوم الوجودْ !

***

يا حُسْنَ ليلِ الوصالِ ... ـ لو أنّ وصلاً يدومْ ـ !
عانقتُ جسمَ الجمالِ ... فيه ، وشِمتُ النعيمْ

***

يا زَورقي قد تعبنا ... وما بلغنا الضِّفافْ
والموتُ أنَّى ذهبنا ... يرنو ولسنا نخافْ !

***

الموتُ ؟ هل هو إلا ... نومٌ هنيٌّ عميقْ ؟
يُعانقُ الرُّوحَ ليلا ... فلا تَنِي أو تفيقْ !

***

يا موتُ جئنا نُغنّي إليكَ فوق العُبابِ
وقد أطلنا التمنّي فلا تُطِلْ في الغيابِ

***

الحُسْنُ والشِّعرُ عندى في زورقى والغرامْ
كلٌّ تقدَّمَ يُهدِى أشواقَهُ للحِمامْ

***

يا موتُ فاهبطْ إليها جَذلانَ، وقتَ الأصيلْ
وابسمْ وردِّدْ عليها لحنَ الفناء الجميلْ !

***

الى الضفافِ البعيدهْ يا زورقى الذهبىّ
اذهب بروحى السعيدهْ لوكرِها الأبدىّ
على تخوم الوجودْ !

***

خلصتُ مِنْ ذكرياتى ودَّعتُ آلامَ حُبّى
سِيَّانِ عندى حياتى والموتُ ما دمتِ قُرْبى

***

زَوْرَقُنا مِن نُضَارْ شِراعُنا مِن شُعاعْ
غرامُنا مِثلُ نارْ مشبوبةٍ فى يَفاعْ

***

الموجُ يُنشدُ شعرى فى نغمةٍ عبقريَّهْ
وفُوكِ يَلثمُ ثغرى فى لهفةٍ أبديَّهْ !

***

والشمسُ ترنو الينا مِن وكرِها فى الشَّفَقْ
غَيْرَى ، تَصُبُّ علينا شُعَاعها ، كالحُرَقْ !

* * *

يا شمسُ ! لا تَحسدينا ، إنَّا سنمضى هباءْ
ونعمةٌ تحتوينا مصيرُها للفناءْ !

* * *

هذا الضياء ، اذا ما هجمتِ يهربُ منَّا
وزورقُ الشعرِ إمَّا نهوينِ يَغرق حُزْنا

* * *

الى الضفافِ البعيدهْ يا زورق الذهبيّ
اذهبْ بروحى السعيدهْ لوكرِها الأبديّ
على تخوم الوجودْ !

* * *

يا زَورقًا فى الدُّموعْ لغيرِ قصدٍ يسيرْ
سئمتُ منكَ النزوعْ إلى خفىِّ الأمورْ

* * *

أرهقتَنى بالنواحْ أسقمتَنى بالخيالِ
أثخنتنى بالجراحْ سلَّمتنى للجهالِ

* * *

علَّمتنى ما الغرامْ سلَّحتنى بالبيانِ
صَيَّرتَنى فى الأنامْ رَبَّ الهوى والحنانِ !

* * *

كلِفتُ بالحسنِ ، أرعَى أطيافَهُ ظمآنا

وهِمْتُ بالثغرِ ، أسعى اليه آناً فآنا !

* * *

يا زورقي لستُ أدري علامَ أهوى الشفاهْ

لئِنْ تبيَّنْتَ سِرِّي كشفتَ سِرَّ الحياهْ !

* * *

إحلمْ كما شئتَ ، إني يا زورقي بِتُّ أحلمْ

وبِتُّ أرقبُ حَيْنِي وخاطري يترنَّمْ !

* * *

إلى الضفافِ البعيدهْ يا زورقي الذهبيّْ

إذهب بروحي السعيدهْ لوكرِها الأبديّْ

على تخوم الوجودْ !

مختار الوكيل

ملك

يا ملاكَ الرحمةِ في الأرضِ مَنْ علمكَ القسوةَ ؟ مَنْ علَّمكْ ؟

نبعَ حنانٍ كنتَ بين الورى مَن ذا الذي بالظلم غذَّى دمَكْ ؟

أصميتني ظلماً بسهمِ الهوى عُدني حناناً واحبني بلسمَكْ

عُهدتَ بالعطفِ ، ولو للعدى فكيف تغدو قاتلاً مغرمكْ ؟

أخوك هاروتُ مضى ، والذي ألهمه سحرَ الورى ألهمكْ

طِلَّسمُ هاروت دراه الورى وأنت لمَّا يكشفوا طِلسمكْ !

* * *

برزتَ في الحسنِ لنا آيةً باهرةً ، جلَّ الذي هندمَكْ

أفرغكَ الخالقُ في قالبٍ للحسنِ قد مازَ به ميسمَكْ (١)

---

(١) الميسم : الحسن والجمال

صبَّكِ جسماً من شعاع الضحى | وشقَّ من إصباحه مبسمكْ !
وزاد للبدر سنى نورِهِ | وصاغه وجهاً به تممكْ
بهرت بالحسن ، فمن ذا رأى | جمالكِ الفذّ ، وما أعظمكْ ؟
(فينوسُ) لو شامتك يوماً هوتْ | ساجدة ترغب أن تخدمكْ !

***

ظلت بك الألبابُ فى حيرةٍ | مشدوهةً تجهد أن تفهمكْ
هل كنتِ فيها ملكاً مُنزَلاً | مِن نوره رب الورى جسَّمكْ ؟
أم أنت من فردوس جناتهِ | أنموذجاً من حورها قدّمكْ ؟
أم من عذارى الجن من عبقرٍ | للناس شيطان الهوى استقدمكْ ؟
ما زلت معنى من معانى السما | لم تلق بين الناس مَن ترجمكْ !
حيّا بك الشعر فهما انطوى | للشعر وحيٌ عاد فاستلهمكْ !

سنقافورة : صالح بن على الحامد العلوى



الذروة

(عن ديوان « فوق العباب » الذى يطبع الآن)

ضَجرى زلَّتى وزُهدىَ مَرْباً | وَهُدَى أرتجيهِ أو أتقيّاً
يا إلهى ! دُنياىَ حُسْنٌ بلا حـ | ـدٍ ، اذا ما عرفتُ حُسْنَكَ مَاجاً
كم نَقَدْنا ونحنُ فى الجهلِ حَيرَى | لا نرى الحقَّ وهو أسْنَى وأضوَا

ما اندَمَجْنا ، وما انطَوَيْنا على الرُّو ح ، فلم نُدْرِكِ الخلودَ المهيَّأ

حُسْنُكَ الحرُّ مائلٌ لنفوسٍ قد تناهتْ اليكَ نَشْوَى لتهْدَأ

فى انسجامٍ يستشرفُ الحُبٌّ فى السكو نِ عمِيّاً ونابضاً يتلألأ

ما صلاتى إلا خشوعى لِنَجْوَا كَ وإفناءُ زلَّتى تتهيَّأ

مُستمِدّاً مِنْ عقلىَ الباطنِ العِلْـ مَ بما فى الوجودِ عُقْبى ومَنشأ

نَبْعُ إلهامكَ الذى يتَناهَى لمحيطِ الألُوهةِ المُسْتمَرْأ

فاذا بى مِنْ رُوحِكَ الخالدِ السّامى قريبٌ ومن فُيوضِكَ أملأ

عرفتْ عندها مِثالىَ نفسى ومِثالَ الإنسانِ رَوُحاً ومَبدأ

وحياةَ الآبادِ حتى كأنى ذروةَ الكونِ مُشْرِفاً أتبوأ

احمد زكى أبو شادى

السعادة

قلْ ما تشاء عن السعادة غابطاً مَن كان ينعم فوق ليِّن مَهدِها

وابحثْ عليها فى التصابى والهوى أو فى التى يهفو البخيلُ لعدِّها

أو فى اشتهارِك بالفضائل والتُّقى أو فى اهتمامك بالعلوم ومجدِها

أو فى اكتفائك بالذى قسم القضا ورضاكَ عن صاب الحياة وشَهدِها

قل ما تشا عنها ، فلستَ بمقنعى يوماً ، ولستَ بمانعى من نقدِها

إن السعادة لا تسرّ بوصلها أحداً ولا ترنو اليه بودّها

فاذا سعدتُ وما عرفتُ بأننى أمسيتُ أرتشف المنى من رفدِها

فالجهلُ فى حالى التعاسةُ كلها تطفو على قلبى بكامل حقدِها

وإذا عرفتُ بأننى قد نلتُها أصبحتُ فى همٍّ مخافةَ فقدِها

والخوفُ من فقد السعادة خاطرٌ يكفى إذا لمس الفؤادَ لوأدِها !

عاصمة الجمهورية الفضية : الياس قنصل



قيثارة الدمع

قيثارةٌ في جفوني ، لحنها عجبُ ... وجرسُ أنغامها في العين مضطربُ
صدّاحُها الهمُّ ، لا ينفكُّ يضربُها ... بريشةٍ من أسى الأحزان تنتحبُ
مُولّعٌ بالدجى إن ذاب فاحمُهُ ... تفيضُ من قلبه الألحانُ والطربُ
إلهامُهُ من جوى قلبي ، وثورتُهُ ... من الضلوع .. عليها الوجدُ يلتهبُ
إذا براني الأسى يلهو على كبدٍ ... مجروحةٍ مزّقتْ أفلاذَها النوبُ
فلا يسيغُ من القيثار أغنيةً ... إلا وقلبيَ أذكى نارهُ العطبُ !
لله ما صبَّ في جفنيَّ من نغمٍ ... مُلوّعٍ ماجَ في أنّاته اللهبُ !
حسوتُها في الدجى خمراً معتّقةً ... في مُقلةٍ دنُّها قد كاد ينشعبُ
بيضاءُ لامعةٌ لونُ اللآلىء ، في ... طيّاتها أسودُ الأطياف مكتئبُ
كم وسوستْ في ظلّ الأسى : لهفي ... على شبابكَ قد أودى به التعبُ !
فقلتُ : خلّ أغاريدي منغمةً ... من الدموع ... فما لي دونها أربُ

محمود حسن اسماعيل

حجرتي الأولى

(وهي بالمنزل الذي قضيت فيه أحلى أوقات الصبا وقد عدت اليها بعد غيبة طويلة)

سلاماً حجرتي من قلبيَ الذاوي وإجلالاً
سلاماً أنتِ يا ميناءَ روحٍ في الدُّنى جالا

وشاء اللهُ ما شاء فراحَ يهـيمُ ترحالا
وما عهدٌ مضى فيكِ بسحرٍ، آهِ لو طالا !
أذِى نافذتى حيثُ إذا اسدِلَ إسدالا
سِتارُ الليل فوقَ الأفقِ واسترسلتْ تسآلا
لبدرٍ تاه فى طلعتهِ السمحةِ واختالا
رفيقُ الجنِّ والأرواحُ تدخل فى تحياتِ ؟!

***

يَرِفُّ جناحُها حولى وأسمعُ غامضَ السحرِ
كأنَّ حفيفَ أفنانٍ سَرَى من حائرِ الشجرِ
وأطلقُ فيكِ يا حجرتىَ الغراء مِن فِكرى
تُداعبُ جبهتى النسماتُ فى مِثلِ شذَى عطرِ
أحدّقُ فى مَنامِ الكونِ والاظلامِ بالبصَرِ
وطاب لفرقة الضفدع والكروانِ من ذِكرِ
نقيقٌ أو نشيدٌ ربّما أذّن بالفجــرِ
وأرسِلِ للصباح الغضِّ مِن أوّلِ لمحاتِ !

***

أهذا مكتبي حيث لرأسى حينما مالا
حنونٌ ضمَّ مبهوراً من الحبِّ وآمالا
وما أسطرُ من شعرٍ بمزج جوانحى سالا
وما تلفتنىَ « ليلى » بحسنِ العُودِ ميّالا
بشرفتها ، وتبعثُ لى من الرّنوات إدلالا
وقبلاتٍ إلى قلبي فحلت فيه إبلالا
وأحلاماً كنورِ النَّجم فى الظلمة ما والَى

يهتدي هائماً فى التيه من صحراء إعنات ؟!

* * *

سلاماً هجرتي من قلبيَ الدّاوى وإجلالا

سلاماً أنت يا ميناء روحٍ فى الدُّجى جالا

وشاء الله ما شاء فراح بهم ترحالا

وما عهد مضى فيك بسحرٍ ... آهِ لو طالا !

محمد عبد الحكيم الجراحي

تحت صورتي

(بعث بها الشاعر الى صديق تحت صورة أخرى غير هذه)



صالح بن على الحامد العلوي

هذه صورتي اليك فلا تعـ جب إذاً من بشاشتي وابتسامى

حاربتني أيامُ دهري فضحكي حذرٌ من شماتةِ الأيام !

هـذه صورتى لديك ستبقى غضّـةً فى شبابهـا كلَّ عامِ
سوف تبقى ذكرى الشباب اذا شِبتُ ، وذكرى الحيـاةِ بعد حمامى
واذا ما ممتُّ فى عالم الرو ح ستحيا فى عالم الأجسامِ

صالح بن على الحامد العلوى

الوهم

أمِنَ الأشجـانِ آلٌ وصحـابْ ومِنَ الدمـعِ ندامَى وشرابْ ؟!
وكذا الدنيا شجونٌ لا تَنى ودموعٌ لا تَنى عنهـا انسكابْ
لا أرى فى الرَّوضِ إلاَّ صادحاً مُرْسِلَ الألحانِ يحدوه انتحـابْ
أىُّ وَهمٍ لم يَزَلْ يَحْـفِزُنـا فعلى الوهمِ صِراعٌ وَغِلابْ ؟!
كم سَحابٍ لم يَجُـدْنـا غَيْثُهُ خطفَ الأبصارَ بالبَرْقِ وغابْ !



احمد فتحى

وكلامٍ نَحْسَبُهُ رِيشتْ قَنَى هُوَ فى ظاهِرِهِ شَهدٌ مُذابْ !
والذى نَحْسَبُهُ رِىَّ الصَّدَى هُوَ مَهما قد روى الصادى سَرابْ

كم شكا الغُلّةَ مِنّا ظامِئٌ فشفَتْ غُلّتَهُ جرعةُ صابْ !
وسعى للصَّيْدِ مشغوفٌ به وهْوَ شاةٌ ، لوْ درى ، بين ذئابْ !
فيمَ نحيا بالأماني خُدَّعاً والمنايا آخذاتٌ بالرِّقابْ ؟!
نسجَتْ كفّاهُ أكفانَ الورى ناسجٌ ثوبَ الأمانيِّ العِذابْ !

« • »

أيُّهذا المُدْلجُ السّارى الى أملٍ يحدوهُ أفقٌ فى اطِّلابْ
أإلى الآمالِ كَدْحٌ قاتلٌ وإلى الآمالِ ظعنٌ واغترابْ ؟!
ما أراها باعثاتٍ مِنْ بِلىً أوْ مُعيداتٍ الى الشيبِ الشبابْ
صاحبُ الحاجةِ ذو همٍّ بها فاذا أدركها هانَ المُصابْ
ضَيعةٌ للرأى تُذْكى نارَها أفنةٌ فى المرء مُذْ شبَّ وشابْ !

« • »

شامخٌ بالأنفِ من أوهامِهِ لم يزلْ ينشُدُ أطباقَ السحابْ !
حسبَ الكونَ رهيناً بالذى يشتهى وهو رهينٌ بكتابْ
آهِ من ضمةِ قبرٍ مُوحشٍ وثواءٍ بينَ دُودٍ وتُرابْ
إنما التربةُ أصلٌ ولها غايةُ المسْعى ومحتومُ المآبْ !

احمد فتحى
(المهندس)

ليتنى

ليتنى كنتُ صغيراً أبدل الهمَّ هناء
ليتنى كنتُ كناراً أملأُ الدنيا غناء

ليتنى كنتُ غديراً أهبُ الأزهارَ ماءَ
ليتنى كنتُ صباحاً أغمرُ الكونَ ضياءَ
ليتنى أصلح دُنيا كلُّ ما فيها أساءَ !

***

عهد الطفولة

أحنُّ إلى الطفـولة وهى حُلمٌ وأشهى الذكرِ للحُلمِ البعيدِ
وفى تحنانيَ الوافى وفاءٌ لعهدٍ كان تتويجى وعِيدى
أحنُّ كعـابدٍ يدعو ويدعو : وددتُكِ يا طفولةُ أن تعودى !
وددتُكِ ، إيْ وربى ، أن تعودى الى وكرى ، الى قلبى الودودِ
إلى رُوحى التى أحيتْ صباها مظلّـلةً بحبّـكِ فى الوجودِ
فأنعم بالحياةِ ولا أُبالى بدنيا فى التناحرِ والوعيدِ !

محمود السيد الشناوى

الكبر

كلُّ حولٍ يمرُّ يزعج نفسى بغضونٍ تلوح إثرَ غضونِ
وبياض المشيب فى كل رأسٍ لى مُـلحٌّ بكُبرةٍ تعترينى
أتمنى لو يجمـد النجمُ حتى ما تحسّ الحياةُ كرَّ السنينِ !
أتمنى لو يصبح الدهرُ لوناً واحداً من غضارةٍ ثم لينِ
إنَّ ضعف الشيوخ يملأُ نفسى هلعاً أو يثير حرَّ شجونى
إنَّ فى تلكمُ الخُطا تتلوَّى لنذيراً يلوح بين جفونى
مُشفقاً من ذُبول قلبي إذا ما غاض مائى وأنكرتنى عيونى

ورأيتُ الجميلَ غيرَ جميلٍ ليس يرتاحني ولا يزدهيني
ودعوتُ الصِّبا جنوناً وحُمقاً مرضاً فى ثياب عقلٍ رزينِ
وسئمتُ الكفاحَ فى غيرِ سلمٍ مُستكيناً لمطمحٍ مُستكينِ

عبد الباقى ابراهيم



يا نيل!

(نظمت لمناسبة ثورة النيل بفيضانه هذا العام)

يا نيلُ ! رفقاً بالبلادِ وكنْ لهـا عوناً ، فمصرُ ترى السعادةَ فيكَ
خفِّفْ يربكَ مِن تدفُّقك الذى يدنو بها نحوَ الهلاك وشيكا
وارفق بمن بك هللوا واستبشروا وبحسنك افتتنوا ، وكم عبدوكَ
فلمَ العداء تصبّه فى قسوةٍ وتُريق ماءك مهلكاً واديكَ ؟
ماذا جنته كنانةُ الدنيا على وحى الجمال ؟ لعلهم ظلموكَ ؟ !
فاقبلْ نداءاً صارخاً مِن أمةٍ غرقى ترى كلَّ السعادة فيكَ !

حكمت شبارة

أنشودة الصباح

كواكبُ الليل قد ملّت من الأرقِ فبادرت تختفى فى معبد الأفقِ
ترى السماء التى انشقّت دُجنتها سوداء قد برزت فى ثوبها المَشقِ

كأنما الليلُ قد شابتْ ذوائبُـه وعن قليـلٍ تُخلّى رُفقةَ الغسقِ
اذا الصباحَ انجلت أنوارُه شرعَ الطـــيرُ المسجّعُ فى تغريده النسقِ
لاحت مخائلُه بين السماء كما لاح النغـامُ على موسومـةِ الحرقِ
واستيقظ الطـيرُ فى أوكارها وبدتْ تسرى نسيمُ الصبّا فى كل منخرقِ
وصادت الشعراءُ الفـائقون إذاً أوابدَ الشعر لم تُدْرَكْ ولم تطقِ
ما أطيب الوقتَ إذ سار الحدوج بنـا بين الاكام نحاكى السفن فى الغدقِ
وخلّـت الطير أوكاراً لهـا ومضت الى المشارب وُحـداناً وفى حلقِ
حتى استوت بعـد ما جاءت على نهر عُوجَ الحناجر نحو السلسل الدفقِ
تـَجُلّ من فرحٍ أجسامَها وبهـا ظِماً فتنفضهـا كالشادنِ الخرقِ
اذا ارتوت كلها طارت مغرّدةً ما بين مختلف منها ومتفقِ
كأنمـا الطـير فى تغريدها فِرَقٌ قـد أسكرت بخمورٍ أُرهقت عُتُقِ
الى رياض بدتْ تهـتز من بللٍ بسامةٍ طلةٍ منشورةِ العبقِ
بها شذاها امتطت ريح الصبا وسرتْ تحيى القـلوبَ التى ماتت من القلقِ
إن هزتِ الريحُ قِضباناً لهـا بلل يصافح البعضُ بعضاً ثم يعتنقِ
كأنها راكعات فى تمايُسها وتاليـاتٌ خشوعاً سورةَ الفلقِ
والنرجسُ الغـضُّ يرنو نحوها عجبـاً والوردُ يَطلع من أكمامـه النسقِ
حمرٌ ملابسه صفرٌ ترائبه خضرٌ عرائشه يفترّ بالأنقِ
كأنمـا قطرات الطـلّ فى خُضرٍ كواكبٌ طلعت فى أول الغسقِ
يا ربّ فُضّ ختـامَ النوم إذ نعستْ كواكب الفلك الدوّار من أرقِ
يا راقدَ الليـل ختـام الرقادُ وقـد مدّ السّنا عنقه من كوّة الأفقِ
قم واستقم واعبد الله الذى خاق الـــأشجار من حبةٍ والانسَ من علقِ
أليس يسجد لله الرياحُ مع الـــأشجارِ قانتـة من أبدع الطرقِ ؟
ألستَ تسمع ما قال المؤذّن فى تأذينـه بكرةً للنائم الحبقِ ؟!

الهند : السيد نبى الحيدر آبادى
(استاذ اللغة العربية بالكلية البلدية بحيدرآباد)

(نشكر للاستاذ الشاعر الفاضل ما وجّهه مع قصيدته الى «أبولو» من اطراء عظيم نعتذر عن نشره ؛ وحسبنا أن نرى من أعلام الأدب فى العالم العربى مثل هذا التقدير لخدماتنا للعروبة ولغتها الشريفة وهذا الاجماع على المستوى العالى لتحرير هذه المجلة وشعرها — المحرر) .

صدى النور

النورُ ؟ ما النورُ ؟ وما ضلالُه ؟ وما الهدى ؟
إنّ الحياةَ كلها لذلك النور صدى !
فالسحرُ فى الأجفان نو رٌ قد سجا واتّئدا
والبلبلُ الشادى سَنًى غناؤه اذا شدا
وظلمةٌ الليل سَنًى لراهب تهجّدا
وقبلةٌ من وجنتيـ ك إن هما تورّدا
أو فيكِ ! وهو منهلٌ يظمىء مَن قد وردا
والماء نورٌ ، واذا لم يَكُ ما بَلّ الصّدى !
والشعرُ نورٌ فى النهى من قبل أن يُرَدّدا
والنورُ خمرٌ يُسكر الرُّوحَ العميدَ أبدا
النورُ ؟ ما النورُ ؟ وما ضلاله ؟ وما الهدى ؟

العوضى الوكيل

نور القمر

يا بدرُ نورُكَ حالمٌ فوق الزروع الحالمة
يبدو رقيقاً ساهماً كالروح تبدو ساهمة
وكأنه إشعاع أحـلام النفوس الواجمة

« ٠ »

يا بدرُ أصغِ الى الجدا ول بالخرير مترنمة
واسمع صلاة النحل والقطن المفتّحِ والذّرة
يُنشدنها زلفى لنو رك فى الليالى المقمرة

« ٠ »

أجلْ به أنفـاسَ حُو ر ِ فى الجنان نواعسِ
فبهِ ضريرُ جـداولٍ وبهِ عبـيرُ فرادِسِ
وحفيفُ أجنحةٍ مرفرفةٍ وصيحـةُ حارسِ !

« • »

يا بدرُ يا قوتَ المشا عرِ والقلوبِ الجائعهْ
أتراك نافذةً رنتْ منها الغيوبُ الرائعهْ ؟!
وسناك أحـلامُ الملا ئكِ فى الطبيعةِ شائعهْ

« • »

كم مِن طيوفٍ أيهـا القمـــرُ المطـلُّ على الفضاءْ
فى نورك الوسـنان تر قص أو تثرثر بالغنـاءْ
مَن ساقها منْ عالم الا أرواح فى هذا الضياءْ ؟!

« • »

ما أشــبه الجوَّ الذى فى خاطرى بجوائـكا !
حتى كأنى ناظرٌ فى ضــوئه اضيائـكا
يا هل تراه وذيلةً (١) عكستْ جمال فضائـكا ؟!

« • »

يا للطبيعـة ! فهى خا فيـة المرائى والسـَّنى !
وكأنما هى تحــلم الا ذ ّكرَ الجميـلة والمُنى
والنـــورُ ذلك رفَّ فى أحلامها واستوطنا !

« • »

يا للطبيعــة ! فهى أجْ ملُ ما رأت عينـــانِ
كم تشعـــر الروحُ الحز ينُ بألفــــةٍ وحنانِ

---

(١) مرآة

ونضمه ضمَّ الحبيـبة للحبيب العـانى

***

إنى لفرط تعلقى بجمالها المتألقِ
شعشعتُ فيه تألمى وأذبتُ فيه تحرُّقى
ورويتُ روحى من نما له كأسه المترقرقِ

***

وتخذت منه معبداً لتبتلى وتصوُّفى
يقضى به أيامَهُ وحياته القلبُ الوفى
فى عزلةٍ عن ضجة الـدنيا التى لم ترأفِ !

أحمد مخيمر

على ضفاف الغدير

دُميةٌ أنتَ من جمالٍ وفتنهْ حار فى حُسنك العبادُ وتاهوا
صاغكَ اللهُ للمحاسن جنَّهْ فاستقى الكونُ من جداك حُلاهُ
لستَ كالناس من ترابٍ وماءٍ أنت من ديمةِ الخلودِ خُلقتا
فيك ما فيه من طلاً وضياءٍ غير أنَّ الخلود جاد وذُدْتا

« • »

ها هو الماءُ باسمٌ لك يرنو فى حنوٍّ ونشوةٍ واشتياقِ
أسكرته قسامةٌ لك تعنو لبهاها القلوبُ فى الأعماقِ

« • »

يا إلهَ الجمال هيَّجتَ وجدى وقليلٌ علىَّ إنْ ذبتُ وجدا
أنت رمزُ الكمال فى الحسن عندى وفؤادى من المشاعرِ قدَّا
ما أُرانى لوصفِ حسنك أهلا أنت جاوزتَ فى الفتون الشموسا
كلُّ قلبٍ رآك ينشد : مهلا ! قد تفرَّدتَ فاستلبتَ النفوسا !

***

أنظرى المـاء خافقـاً يتمنى يا مُنى القلب أن تنُضَّ إزاركْ
وانظر القوم حانقين عليـه عند ما ضمَّ فى العباب عذاركْ
حولك الناس مطرقين خشوعاً فى ذهولٍ وغبطةٍ من جمالكْ
يلفظون النفوسَ وهى مَراثٍ لقلوبٍ تحرّقتْ من دلالكْ

***

يا خليـلىَّ لا تبينا فانى شاردُ اللبِّ للمحاسن صادى
ودعانى ولا تـلوما فعينى لم تمتَّـع بحسنه ، وفؤادى
أوفسيرا وخليـّـانى ألبى داعىَ الحسن من ضياء جبينهْ
واتركانى هنا فقـد ذاب قلبى وشجانى بخفقهِ وحنينـهْ

***

خليـّانى فقد شقيتُ بقلبى وقبستُ الشجونَ من ناظريـّا
ودعانى أذيع فى الكونِ حبى وأروِّى الجمـال من شفتيـّا

محمد عبد الغنى نجيب



الشيخ النائم فى المشرب

(نظمها الشاعر على أثر رؤيته شيخاً نائماً على أنغام الموسيقى فى «كافيه رويال» بمدينة ليون بفرنسا)

سرَتْ فى صفاء الخمر آياتُ أنغامِ وطارت بنا نشوَى إلى عالمٍ سامِ
وقصّتْ علينا فى حديثِ مسامرٍ درَى حكمةَ الدنيا أقاصيصَ أعوامِ

فكان لها منّى فؤادٌ يضمّها ويَنهل منها مثلما ينهل الظامى !

***



محمد عبدالحكم الجراحى

وشيخٍ مهيبٍ فى جوارى ورأسهُ محا الدهر منها الشعرَ فى لهوظلاّم !

ولحيته بيضاءُ زانت بصدره أغانىَّ أفراحٍ وآهاتِ آلامِ

لقد نام هذا الشيخُ تحدوه نغمةٌ كأمٍّ صغيرٍ فى حنانٍ وإكرامِ

ألاَ ما رُؤى ذاك المنامِ وما الذى تترجه الأنغامُ فى سفر أحلامِ ؟

أما هو مثل الطفل أحلام سادرٍ تناجيه فى لونٍ من الطهر بسّامِ ؟

أو انّ رؤى حُبٍّ أطافت بقلبهِ وذكرى شبابٍ لا يعود لإضرامِ

وحُسن فتاةٍ رطبةِ العود فتنة كباقةِ زهرٍ أو كلمحة إلهامِ

أو انّ رؤى أخرى إخال سعيدة تخامره فى مثل سحرٍ وإيهامِ

ويحلم إذ يغدو بخلدِ جزيرةٍ بُعَيْد عباب الدهر والزمن الطامى

وليس ليرثى ما مضى مِن سفينه وما برحت تضنيه رحلةُ أيامِ

***

فنم هادئاً يأيها الشيخ هانئاً لعلّ صباحاً ضاء فى طىّ إظلامِ

وتَمْ مُسعَداً روحاً إلى صدرِ أنغامِ ... تطير بنا نشوى إلى عالمٍ سامِ
ويزهو بها منّا فؤادٌ يضمّها ... وينهل منها مثلما ينهل الظامى !

محمد عبد الحكيم الجرامى



مقتطفات من جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف ابندرانات تاجور

عند ما تأمرنى بالغناء ، يخيل إلىّ أن قلبي يتحطم كبرياء ، وأصعّد ناظرى فى وجهك ، وتغرورق عيناى بالدموع .

وإن كل ما هو صعب فى حياتى ليستحيل سهلاً إثر أغنية رخيمة ، كما أن إعجابى يصفُّ جناحيه كطائرٍ سعيدٍ ، يخفق فى الجو ، ويحلق فوق أديم النهر .

وإنى لأعرف أنك تشعر بالسرور حينما أنطلق مغنياً ، وأعلم أنى أقترب منك حينما أشدو فقط ، كما أن جناح أغنيتى الممتد ليمسّ أطرافه قدميك اللتين أتوق إلى الوصول اليهما .

***

ياحياةَ حياتى :

سأحاول جهدى أن أحفظ جسدى نقياً موقناً بأنك ترعانى وتحوطنى، وسأكون بمعزل عن الأكاذيب فلا تتسلط علىّ ، لأن روحك : الصدق يضىء لى سبيل الحياة .

وسأنقي قلبي من أوضار الشرور ، وأحفظ حبي في الزهرة ، لأني أعلم أنك تتربع في صميم الفؤاد وفي أقدس بقعة فيه .

وسأحاول بجهودي أن أكشف عنك في حركاتي لأني أعلم أن روحك تهبني قوة أعمل بها .

« • »

لقد تجردت أغنيتي من البهرج الزائف ،

وإن الزخرف المموه ليفصم عرى مودتنا ، ويقف حائلاً بيني وبينك ، إذ تتلاشى أنداؤك في طنينه

وإن تيهي كشاعر ليتبدد خجلاً أمام مرآك ، آه يا مولاي الشاعر !

إني أجلس تحت قدميك ، وكل ما أبغيه منك أن تهب لي الهدوء والطمأنينة ، وأن تجعلني كعود الناي تنفخ فيه أنغامك الموسيقية .

***

أيها الأحمق !

يا من تحاول أن تحمل نفسك عبء الحياة .

أيهذا السائل يا من تحاول أن تسأل الناس عند باب دارك : ألق أعباءك كلها على ساعدي من في استطاعته أن يحمل الجميع ، ولا تأسف على ما مضى !

إن أنفاس شهوتك لتطفىء ضوء المصباح حين تهب عليه ، فلا تأخذ عطاياك من أيدٍ دنسة ، ولا تقبل إلا ما يقدمه إليك الحب المقدس .

***

إن الأغنية التي جئت لأنشدها ، لا تزال حبيسة في صدري إلى اليوم ، وها أنذا أمضيت أيامي أهيىء لها الأوتار وأصلحها ،

ولكن ميعادها المنشود لم يحن بعد ، وإني لأحس بنزوع شديد إلى انشادها وبرغبة تتردد في صميم الفؤاد .

ها هي ذي الوردة لم تتفتح عن أكمامها بعد ، ولكن الريح تصفر حولها هامسة !

إننى لم أرَ قط وجه من أُحبُّ ، ولم أسمع صوته أبداً ، وإنما يتردّد فى أذنى صدى وقع أقدامه الجميلة فى الطريق الممتدّ أمام منزلى.

إننى أعيش فى الحياة أملاً فى لقائه ولكن حينُ اللقاء لم يحنْ بعد!

* * *

يا إلهى !

ها هى ذى صلاتى التى أتوجّه بها إليك :

هبنى قوة من لدنك لأتحمل سرورى وآلامى

امنحنى القوة ليبقى حُبّى لك زاهراً إلى الأبد

مدّنى بالقوة التى تمنعنى من أن أزدرى الفقراء أو أجعلهم يركعون عند قدمى أمام جبروتى الطاغى

هبنى يا إلهى قوة أستطيع بها أن أرتفع بتفكيرى فوق مستوى أوشاب الحياة .

* * *

أنا لا أدرى كنهَ غنائك ، وانما أستمع اليه فى سكون ودهشة

وإن إشعاع موسيقاك ليضىء العالم

وأنفاس ألحانك تخفق من سماء إلى أخرى

وجدول أنغامك المقدّسة يندفع متخطياً كل عقبة فى سبيله ، وينساب فى جريانه

وقلبى توّاق لأن يشاركك الغناء ، ولكن عبثاً ما يحاوله من رفع صوته ،

ومهما حاولتُ الكلام فلن يصير غناءً ، وإذ ذاك أُغلَبُ على أمرى

آه ! . . . لقد جعلتَ فؤادى أسير أنغام موسيقاك السرمدية !

* * *

هيّا لا تتردّدْ فى قطف هذه الزهرة الصغيرة وأخذها فانى أخاف عليها أن تذبل وتسقط فى الطين ، ولربّما لم تجد لها مكاناً فى اكليلك .

ولكن أذقْها السعادة فى ألم تحدثه لها يدك بقطفك ايّاها ، وانى لأخشى أن يمضى النهار قبل أن أصحو فأرى أنه لات حين تقديمها !

ولذا فلونها ساذج ، ورائحتها ضعيفة ، فخذها اليك واقطفها حين يجىء وقت الحصاد ؟

حسن محمد محمود

نقد وتعليقات

روح الفقيه وروح الشاعر

قرأنا نقداً بقلم أحد مشايخ الفقهاء لديوان من الشعر العصرى فقال فيما قال إن الشاعر أخطأ خطأ فاحشاً لأنه قال « نجمة » فى حين لا توجد هذه الكلمة فى اللغة بمعنى « نجم » . أما الشاعر فقال إنه فى الموقف الشعرى الذى استعمل فيه هذه الكلمة تخيل فى ذلك الجسم النورانى الساحر روحَ الأنوثة فلم يرَ إلاّ أن يسميه « نجمة » وما يحسب أنه أخطأ فى أمانته للفنّ ، وقد أنصف بذلك لغة الشعر وأحسن الى أدبها .

وجاء هذا الفقيه ثانيةً وقال إن الشعراء المعاصرين مفتونون بالوثنية اليونانية والرومانية ، إذ كثيراً ما يستعملون تعابير نابية مثل « روح الألوهة » فى الجمال و « حُلم الاله » ونحو ذلك . أما الشاعر فقال إنه لا يؤمن بشىء من هذه الوثنية وانّ زملاءه فى الأمم الراقية لا يؤمنون كذلك بها ، ومعظمهم يعيش فى أوساط دينية تأبى هذه الوثنية كلّ الإباء ، ومع ذلك فهم يستعملون مثل تعابيره التى لا يفهمها سيدنا الفقيه ، ذلك لأنها تعابير رمزية صوفية فى معظمها ، وفى بقيتها لا تمثل أكثر من العقل الباطن الطفل الذى أبدع ما أبدع فى الأدب الأوربى باطلاق الخيال له فى الأساطير وغيرها ، بينما عجز وتقهقر فى الأدب العربى بسبب حذلقة أمثال سيدنا الفقيه تلك الحذلقة التى عاشت دائماً تكأةً للدّسائس على توالى الأجيال ، ومعاذ الله أن يمكّن لها فى هذا الجيل المتنوّر .

وجاء هذا الفقيهُ ثالثةً وادّعى أن المجدّدين يحتقرون الشعرَ العربيّ والأدبَ العربيّ وتمنَّى على أصحابه الفقهاء أن يشدّوا أزره فى دفع هذه العادية ! فقال لسان الحال : بل لم يعرف قيمةَ الأدب العربى الفنية ولم ينصف الشعرَ العربيَّ أحدٌ مثل أولئك المجدّدين يا سيدنا الشيخ ! فكم لهم من دراسات وشروح وتواليف زادت من ثروة هذا الأدب وأنصفت عبقريات السابقين واللاحقين ، بينما سادتنا الفقهاء يهرفون بما لا يعرفون ويلقون بالتهم جزافاً تمجيداً لأذهانهم الكليلة وأهوائهم العليلة !

غرور الشباب

قالوا إننا أسأنا الى الشباب إساءةً عُظمى فقد صحبت موجةَ التآليف الجديدة موجةٌ من الغرور الذى لا يعرف حُدوداً ... ومع أننا نأبى هذا الاتهام الشامل للشباب فنحن نؤثره ألفَ مرةٍ على روح التبعية والاستكانة التى كانت تجعل من كثيرين من الناشئين خوَلاً وأغوات لبعض المتزعّمين .... وسنستمر على خطتنا فى بثّ روح الاستقلال والاعتزاز بالذاتية والاعتماد على النفس فى الشباب النابه مع الوفاء لفضل السابقين والمعلمين ، ولو صحبَ ذلك بعضُ الغرور أو بعضُ الجحود من هذا أو ذاك ، فانما ننظر نظرةً عامةً الى اطراد الحركة الأدبية ونهضتها دون أن نتأثر بالحوادث الفردية السيئة ما دام للانسانية ضعفُها على أىّ حال . وما كلُّ جيل الاّ قنطرةٌ لمن يليه فى اطراد الفكر الانسانى ، وهيهات أن تتغلب أىُّ أنانيةٍ على هذا التقدم الطبيعى وإنْ عاقته أحياناً . وحسبنا أن نشيد بهذا المبدأ الحقّ وأن نعمل على تحقيقه وإعزازه ولو جوزينا أحياناً جزاء سنمار حتى من بعض تلاميذنا وممن تأثروا طويلاً بأدبنا .

روّاد الشعر الحديث

أثار هذا الكتابُ الصغيرُ وما زال يثير اهتماماً كبيراً ما بين مدحٍ وقدح فيه وفى مؤلفه وفينا وفى (جمعية أبولو) ! وبلغت الوقاحةُ بأحد المنتسبين ظلماً الى الصحافه أن ينسب الينا ألفاظاً مهينةً لمؤلفه مختار الوكيل وينسب اليه ألفاظاً مهينة لنا ، وهذا كله محضُ اختلاقٍ ... ومختار الوكيل نفسه يعتزّ بكتابه ويتحمل مسؤوليةَ كلّ حرفٍ فيه ، فكلُّ حرف فيه وليدُ تفكيره وارادته وإذنه ، ولو شاء أن يبدّل أىَّ رأى فيه الآنَ أو بعد الآن لما ترددنا فى نشر ذلك فى هذه المجلة حتى ولو نقض نقضاً تاماً ما هو مكتوبٌ عنّا فيه ، فنحن لا نحجر على آراء الناس ولا نستجدى الأمداحَ ولا التقدير من أىّ مخلوق ، ولم يأت مختار الوكيل فى هذا الكتاب بشىء جديد عنّا لم يقله هو أو لم يقله غيرُه مِنْ قبل . وأما عن استعفاء مختار الوكيل من (جمعية أبولو) فقد اقترنَ بأحسن التمنيّات للجمعية وبالتقدير لخدماتها ، ولم نفهم الاّ أنه وليدُ رغبته فى اعتزال الجمعيات على أثر اعتلال صحته

الطويل الذى أثر على أعصابه ، وهو لا يريد أن يكون عضواً غير عامل بكل معنى الكلمة ، وهذا مما قد يضطره الى السفر الى أوروبا مراعاة لصحته من جهة وللتخصص فى الصحافة التى له شغف خاص بها من جهة أخرى . ونحن كذلك نتمنى له أحسن التمنيات فى مستقبله الصحفى مما يتفق ومواهبه الأدبية .

أدب شكرى

فى كلمة كريمة للشاعر الفاضل عبد الرحمن شكرى بجريدة (البلاغ) المؤرخة ٦ سبتمبر الفائت نجده يذكر فى صراحة أنه لم يقل لأحد إنه أنشأ مذهباً جديداً فى الأدب ولا أن العقاد أو المازنى من تلاميذه ، ويؤكد أنه ليس بينه وبين العقاد أو المازنى تنافس على شهرة أو حرفة أو رزق ولا يحمل لأحدهما ضغينة ، كما أنه لم يحرض أحداً على نقد العقاد أو على اتهامه بالأخذ منه بل كان دائماً ينفى ذلك كما يشهد خصوم العقاد أنفسهم ، الى آخر هذا الكلام الطيب الذى يدل على نفس زكية طيبة يعنيها أدب النفس قبل أدب الكتابة . وهو بهذه الروح الوديعة وضع العقاد بلطف فى محله حينما ذكره فى آخر كلمته بثقافته فى انجلترا العامة فى ذلك الوقت فضلاً عن وقتنا هذا . والخلاصة أن كلمة شكرى لم تنم عن أدبه فقط بل عن محبته كذلك للعقاد والمازنى بالرغم مما صدر منهما ضده سواء بالفعل أو بالتواطؤ .

ولكن فاتت شكرى نقطة هامة ، ولا فائدة له ولا للأدب من تجاهلها ، كما أنه لا فائدة من احتجاجه على مَنْ يشتبكون مع العقاد بسببه : تلك أن محبيه الكثيرين يعتبرون العقاد مسؤولاً عن تواريه وعزوفه عن الأدب والأدباء ، فلا عجب اذا لجأ بعضهم الى الحدة الشديدة فى نقد العقاد . وإذنْ فيجدر بشكرى أن يترجم محبته لصاحبيه القديمين (بعد ما أعلنه المازنى من الأسف الشديد لتحامله عليه سابقاً) بترك عُزلته الأدبية الطويلة والعودة الى نشر آثاره الشعرية والنقدية التى تقر بها عيونُ محبيه ، وهكذا يَضَعُ حداً لهذه المأساة . ويقيننا أن أمر ذلك بيده وحده لا بيد أحد سواه ، وأملُنا أن يصح عزمه بعد الآن على تلبية هذا الرجاء المعقول الذى يُنصف به نفسه ويُنصف سواه فى آنٍ .

نعم ، لقد انتهت الى غير عودة ظروفُ عزلته الأدبية ، ومن حق الشعراء والادباء عليه التطلع الى ظهور أدبه الناضج الذى يُعد فى طليعة ما تعتز به الثقافة الشعرية فى هذا العصر ومن مفاخر الأدب العربى على الاطلاق .

الشباب والأدب

تُعنى وزارة المعارف عنايةً جدّيةً بأن يضع الطلبةُ دروسَهم فى الموضع الأول من اعتبارهم ، ولهم بعد ذلك أن يُعنوا بالأدب كهواية صالحة لهم اذا شاؤوا ، نظراً لما تفشَّى بين بعض الطلبة من إهمال الدراسة متخيلين أن روح الأدب تتمشى مع هذا الاهمال وهذه الفوضى ! وبقدر تشجيعنا لأدب الشباب قد عملنا دائماً جُهدَنا لتعزيز الثقافة واحترامها ، فالثقافةُ العاليةُ من أقوى أدوات الشباب سواء عُنى فى حياته العملية بالأدب أم بغير الأدب . ولاخير فى ذلك الشباب الذى يعرض نفسه لاهمال دروسه قانعاً بأن يكون حاشية من حواشى المتزعمين الذين يريدون أن ينزلوا بالأدب الى مستوى السياسة ، وأن يسخروا الشباب فى هذا التضليل كما سُخروا من قبل فى أهواء السياسة وهم الخاسرون فى كلتا الحالتين دروسَهم ومستقبلهم. فالى دروسكم أولاً أيها الأعزاء وقد بدأ الآن الموسم الدراسى ، ثم الى الشعر أو غيره من فنون الأدب فى غير أوقات دراستكم اذا ما وُجدتْ عندكم رغبة صحيحة فيه . وأما الاضطراب والاهمال والفوضى باسم التحرير الفنى فليس من ورائها غير الفشل وأىّ فشل !

شعر الصيرفى

من أظهر الدواوين الشائقة التى غنمها الأدبُ المصرىُّ فى هذا العام ديوان (الألحان الضائعة) للشاعر حسن كامل الصيرفى ، فان أصالة الشاعر تتجلى فى كل صفحة من صفحاته . وقد انتُقدَ عليه ما فيه من كآبة ورمزية كثيرة ، ومع أن شيئاً من هذا لا يجوز أن ينقص من قدر هذا الشعر فالمعروف أن ديوان (الألحان الضائعة) يمثل فترة من حياة الصيرفى قد انتهت ، إذ ليس فيه شىء من نظمه الحديث بل ان شعره متداول منذ سنين ما بين مطبوع ومخطوط ، ونفس الديوان بحالته الحاضرة كان مهيأ للنشر منذ سنة ، ولقد تأثر به غير واحد من شعرائنا النابهين وفى مقدمتهم الشاعر الوصّاف على محمود طه صاحب (الملاح التائه) . ولعل التقدير الذى لاقاه الصيرفى يشجعه على المبادرة باخراج بقية دواوينه الممتعة .

عند وزير المعارف

كتب الدكتور طه حسين فى صحيفة (الوادى) مقالاً طويلاً عن فوضى الثقافة فى مصر نقرّه على معظم ما ورد فيه ونعزّزه ، وقد ألمعنا نحن من قبل فى شتى المناسبات الى شيء من ذلك ، فنحن من خصوم الزعامات المصطنعة وما يتبعها من مفاسد ، وقد قاومنا دائماً فكرة استغلال الأدب للسياسة وتسخير الشباب فى ركاب المتزعّمين وتضييع مستقبلهم ، وفى الوقت ذاته لم نقصر فى بثّ روح الشخصية والكرامة فى نفوسهم ، كما يعلم ذلك كل مَن له صلة وثيقة بنا وتتبع جهودنا الثقافية ، فلا حاجة بنا لشرح ذلك فى هذا المقام .

أما الذى يعنينا بصفة خاصة فهو أن الدكتور الفاضل قد شطّ به قلمُه فى حماسته فتطرق الى نقد زيارتنا لصاحب المعالى وزير المعارف للتشاور معه فى معاونة مجلتنا الفنية هذه . واذا لم يكن وزير المعارف المهيمن الأعلى على التعليم والثقافة فى مصر هو الذى يُقصد لذلك فمن ذا الذى يُقصد ؟! نحن نعرف أن هناك جفاءً شديداً بين الدكتور طه ووزارة المعارف ، ولكن هذا الجفاء لا يجوز أن يبرّر له بحال من الأحوال اساءة الظن بالأدباء واساءة التفسير لأعمالهم الطبيعية فى شدةٍ واسرافٍ منه ، خصوصاً والدكتور طه يعلم علم اليقين أننا أحببناه وقدّرناه فى جميع الظروف التى تقلّبَ فيها ، فهل له على الأقلّ أن يحترم أخلاقنا واستقلالنا ؟ ... ليكنْ للدكتور طه حسين رأيه فى معالى وزير المعارف وهو حرٌّ فى هذا الرأى ولن يخطر ببالنا تجريحه ، ولكن ليذكر أيضاً أننا أحرار فى فهم شخصية معالى الوزير وفى تقديرها وفى عرفان فضله على الثقافة العصرية ، وأننا لسنا من يجعل شيئاً من هذا تحت رحمة الأهواء والظروف سواء أ كانت سياسية أم غير سياسية ، فان مركز وزير المعارف يجب أن يكون دائماً فوق الحزبية والسياسة . والدكتور الفاضل يعلم جيداً أن المجلات الفنية الصميمة بمصر فى حاجة ماسة دائماً الى معاونة الحكومة لها خصوصاً ومتعهدو الصحف والمجلات لن يساعدوها على الرواج ، فهل حرامٌ أن تتّجه هذه المجلات المصرية الى الدولة لمؤازرتها بينما تقتصر المساعدات على الأجانب وأعمالهم ؟ ! كان أ كبر ظننا أن الدكتور الفاضل يحاسب قلمه ولا يشط هذا الشطط خصوصاً ونحن لم نلق منه ذرة واحدة من المساعدة ولا نريد أن نشير الى عكسها ، ولذلك نعتب عليه أشدّ العتب .

كيد «الادباء»

كتب الينا صديقنا الشاعر عبدالرحمن شكرى رسالة ظريفة يشير علينا فيها بدل مطالبته بالخروج من عزلته أن نمتنع نحن عن نشر شعرنا سنين طويلة فنزداد شهرة على شهرة ، لأن الناس مجبولون على الخلاف «وأحبُّ شيء الى الانسان ما مُنِعَا» كما أن فى هذا الامتناع تنحياً عن الجوّ الأدبي الموبوء بالكيد واللؤم ! . . . وفى نفس هذا الموضوع كتب رسالته الشائقة «الشهرة والخلود» التى نشرتها صحيفة (المقطم) يوم ١٤ سبتمبر الماضى .

وقد يرى القراءُ مثالاً من هذا الكيد واللؤم فى تهافت غيرُ واحد من طلاب الشهرة على الاشتراك فى أعمالنا الأدبية نقداً أو تفسيراً ، فى حين أننا لا نعهد بذلك الآنَ الى خاصة أصدقائنا أو مَنْ تربطنا بهم روابطُ الاعجاب المتبادل ، ثم اذا ببعض أولئك المتهافتين يتظاهر بأنه المطلوب لا الطالب إمعاناً فى الكيد لنا وخدمة خصومنا الذين يتآمر معهم على حساب سمعتنا الأدبية ! ولكن هيهات ... ولعلّ أغرب الأمثلة من هذا القبيل أن يلحّ أحدُ المتأدبين إلحاحاً فى وضع كتاب عنا فلما نصرفه عن ذلك بلطف ليشتغل بما هو أجدى ينقلب ضدنا ويلجأ للتآمر مع من لا يهدأ له بال الآنَ فى ! الكيد لنا وهذه الحادثة معروفة مشهورة .

ونحن الآنَ نُعنى باخراج ديواننا (فوق العُباب) ومع تقديرنا لمحبة مريدينا الأفاضل الذين ودّوا الاشتراك الأدبى والمالى فى اخراج هذا الديوان كما تفضل بعضهم بمثل ذلك من قبل ، نعلن أننا دفعاً لكيد الكائدين - وتصرفاتهم فى البيئات الصحفية التى يخلطون فيها بين الأدب والسياسة معروفة - سنكتفى باخراج هذا الديوان مجرّداً عن كل دراسة سوى تصديرنا الوجيز ، كما أننا سنكتفى باهداء بعض النسخ الى المكاتب العامة ، وباصدار طبعة خاصة محدودة النسخ ، ولن نقدّمه الى الصحف للكتابة عنه ، وسنتبع مثل هذه مع الخطة ازاء جميع مؤلفاتنا المستقبلة ما بقى الجوّ الأدبى فى مصر على هذه الحالة . ولا نحسب أننا نخسر بذلك شيئاً ، ولعلنا فى الوقت ذاته نساعد على تنقية الجوّ الأدبى وردّ كيد الكائدين الذين يعادون كلَّ مَن يقاوم أنانيتهم وعبثهم ، ولعلّ هذا يكفيهم لأن يفهموا أنّ آثارنا الأدبية هى لأنفسنا وخلصائنا أولاً وأخيراً وليست للبيئة المسمومة .

شعراء أبولو

تضمّ « مدرسةُ أبولو » كثيرين من الشعراء فى العالم العربي ما بين محترفين وهواة على اختلافٍ فى السنّ والمكانة ، وقد ربطتهم رابطةٌ متينةٌ من الرغبة الحارة فى الحرية الفنية الصحيحة وإنصاف اللغة العربية الشريفة باثبات مسايرتها للزمن وقدرتها التامة على شتى التعابير العاطفية والفكرية بما لا تبزّها فيه أيةُ لغةٍ حيةٍ . وقد أشار الى هذه الغاية الهامة أستاذنا خليل مطران فى تصديره لسنتنا الثالثة .

وبهذه الروح شجعت (أبولو) إخراجَ الآثار الشعرية فكان لجهود هذه المجلة وما صحبها من الدواوين الجديدة فى السنتين الأخيرتين أثرٌ بليغٌ جداً فى خدمة النهضة الشعرية وابراز مواهب جديدة كانت خافية ضائعة .

من أجل هذا نقرأ أحياناً من النقد الموجَّه الينا ما يُثير دهشتَنا أو ابتسامَنا، وقد تورَّط فى ذلك غيرُ واحدٍ من أفاضل الأدباء إمّا تسرُّعاً أو استماعاً منهم بحسن نيةٍ الى عبث الهازلين بينما هم لا يتصلون بنا على الاطلاق ، واحتراماً لحسن ظننا فيهم نكتفى بهذه الاشارة الآن لوثوقنا من أن مثل هذه الآراء المرتجلة لا يمكن أن يتعلقوا بها أمام الحقائق الناصعة .

ومما قرأناه من النقد لمناسبة صدور ديوان (الألحان الضائعة) أننا باستنكارنا تهافت النقاد على المسائل النحوية وما شاكلها نعادى سلامةَ اللغة العربية ! والحقُّ أننا من أحرص الأدباء على سلامة لغتنا الشريفة وانما نلاحظ فقط أنّ نقد الشعر فى مصر هو غالباً نقدٌ غيرُ فنى يُعْـنَى بالعرض ويُسقط الجوهر ولا يتفهّم الروحَ الشعرية .

كذلك أخذ علينا أديبٌ فاضلٌ استعمالنا كلمة « أصيل » بمعنى original وادّعى سامحه الله أننا لم نستطع تفسيرها له مع أننا لم نذكر له المقابل الفرنجى إلاَّ من باب الاكتفاء لعلمنا أنه يعرف الأدب الفرنجى ، فعاد الآن يقول إن الكلمة العربية اللائقة هى « مطبوع » لا « أصيل » ، وشجعه هذا على اتهام شعراء أبولو (وبينهم أعلام فى الأدب واللغة) بالعجز اللغوى والتفرنج الخ . . وهذا فى الواقع عكس حالتهم : فان شعراء أبولو يخدمون اللغة الفنية الأدبية

عن طريق الشعر أجل خدمة ، وهم يأبون التقليد سواء للأدب العربى أو للأدب الفرنجى ويعززون الطلاقة الفنية والتعبير عن ثقافة العصر بما تحتويه من عناصر مختلفة عربية وفرنجية على السواء . فمن الخطل إذن مثل هذا التسرع فى الأحكام على قوم يعرفون من أدب لغتهم الكثير ، ويعزّون هذا الأدب ، ويعملون على تطويع اللغة للتعبير عن شتى الخواطر والهواجس والآراء والمباحث العصرية ، بدل أن يقنعوا بحظ الببغاوات... مثل هؤلاء أيها الصديق يستحقون الاحترام ولا يجوز أن يوصف أدبهم المتحرر الناضج بأنه فجٌّ قاصرٌ لمجرد أنه مخالف للتقاليد ، فمثل هذا الحكم المتعسف أولى بأن يطبق على النثر العصرى قبل النظم العصرى .

أما عن وصفنا الشاعر بأنه « أصيل » فمعناه أنه راسخُ الأدب مجيدٌ لا يعتمد على غيره (وهو ما يُستمَدُّ من مادة أصُلَ أصالةً) .

أما الشاعر « المطبوع » فهو الذى يأتى بالشعر من دون تكلف . فالأول شاعر مبتكر له شخصية مستقلة ولا يقلد أحداً ، وهو غالباً شاعر مطبوع ، إذ يوجد أحياناً الشاعر الأصيل الذى لا يستطيع أن ينظم بسهولة ولكن شعره فى النهاية يستحق الاحترام لأصالته الممتازة ، كما يوجد الشاعر المطبوع الذى ينظم بسهولة مدهشة ومع ذلك لا يكون أصيلاً نظراً لتأثره بشاعر يحتذيه ، فلا يمكننا أن نضع شعره فى المستوى العالى الذى نضع فيه شعر الشاعر الأصيل ولو لم يكن مطبوعاً . فمن هذا البيان يرى الناقد المنصف أننا خدمنا اللغة باستعمال كلمة « أصيل » منذ زمن بعيد فى هذا المعنى ولم نسىء اليها أية اساءة ، ولم يجىء هذا الاستعمال مظهراً للعىّ بل مظهراً للتأمل الدقيق فى فقه اللغه ، فان لم نُشكر عليه فنحن على الأقل لا نستحق من أجله اللوم !

وأمّا تصديرُنا لديوان الصيرفى فلا يدعو الى ما ذهب اليه ناقدنا الفاضل ونحن ندع للصيرفى نفسه واجب الدفاع عن شعره كما تركنا ذلك من قبل لغيره من أعضائنا. ومع هذا فواجبٌ أن نقول إن صاحب ديوان (الألحان الضائعة) كان يريد أن يُسقط مقطوعةَ « عقب السيجارة » فأبينا عليه ذلك ، فلسنا إذن مَنْ يصغر هذا اللون من الشعر كما يقال ، خصوصاً ولنا شعرٌ من هذا القبيل فى ديوان (الشفق الباكى) وغيره . كذلك لم يكن من الحتم أن نشير الى جميع شعره الرائع فهو كثير ، وحسبنا أن نضرب بعضَ الأمثلة وفى مقدمة ما ذكرناه منها ملحمته عن « الشاعر » . واذا كان الناقد الفاضل لا يشعر بالفصول فى مصر فالشعراء يحسّون بها تمامَ الاحساس وخصوصاً بالربيع ، ولا يفوتهم ما يعدّه هو من التوافه أو النوادر كموت البلبل

وجفاء الطبيعة ، فهذه الحوادث العرضية للرجل الاجتماعي هي حوادث كبرى للشاعر الحساس وقلما يفوته التعبير عنها اذا ما التفت اليها . ونحن لا يرضينا من شعرائنا صدأ الطبع أو الخمول ، فلا نقبل أن نقول لهم دعوا هذه الطوارىء المؤثرة على فرض أنها نادرة الحدوث لمن يعيش بين أحضان الطبيعة أو يلتفت اليها الالتفات الكافي . ولعلّ نظرة من حضرة الأديب الناقد الى ما كتبه الناقد المعروف صديق شيبوب عن الحياة الأدبية وديوان صالح جودت والألحان الضائعة في جريدة « البصير » يوم الجمعة ١٤ سبتمبر الفائت تشعره بالبون الشاسع بين ماخطر له في عجلة أحكامه وبين ماخطر لناقد قديم أكثر صلة بالنهضة الشعرية والحركة الأدبية في مصر مثل صديق شيبوب .

انصاف الشباب

أشرنا في العدد الماضي (ص ٧٢) الى المؤازرة الموجّهة الى أعضائنا الشباب لإخراج مؤلفاتهم تباعاً ، وكان في مقدمة هذه المؤلفات (روّاد الشعر الحديث) للشاعر الناقد مختار الوكيل . وقد تلقينا تشجيعاً وثناءً على ذلك ، ولهذا تأسفنا غاية الأسف لأن تسمح زميلتنا مجلة (الأسبوع) بنشر ما ينتقص ذلك ، وأن يندّ قلم الأديب اسماعيل كامل بهذا الانتقاص والتشويه لغاياتنا الثقافية ، وقد كان يشافهنا من قبل بحسن ظنه فينا وفي أعمالنا ... وما قيمةُ الأدب الذي ينتهي شأنه الى مثل هذه التخرّصات الفارغة والقال والقيل محاربةً لجمعية تبذل جهدها لخدمة الشعر العربيّ خدمةً خالصةً بعيدة عن التحزبات والشخصيات ؟! وكل ذلك لانها تأبى أن تسير في ركاب هذا أوذاك !

وليس سراً مكتوماً أن بين مختار الوكيل وبين صاحب « الاسبوع » وبعض محرريه سوء تفاهم شديد لمسألة شخصيةٍ محضةٍ لاشأن لنا بها بتاتاً ولا شأن لها بالأدب ، كما أننا لا نتحمل مسؤلية الآراء في كتابه الجديد بل نخالفه في جانب منها ، فما يؤسف له جدّاً أن تتورّط هذه الزميلة في مثل هذا الطعن القبيح في ذمة مختار الوكيل وفي ذمتنا وهي التي كانت الى وقت قريب تمدحه غاية المدح ، وأن تجعل صفحاتها مسرحاً لهذا الكيد لنا ولأعضائنا وأصدقائنا بأقلام لا نعرف الصدق ولا الخجل اعلاناً عن أصحابها وبرّاً بأصحاب « الامارات » المصطنعة على حساب الأدب والأدباء . . .

ولو تدبّر هؤلاء الكائدون لرأوا أنّ جميع مناوراتهم مكشوفة ، فنحن لن نتخلّى بأىّ حال من الأحوال عن رسالتنا الأدبية فى هذه المجلة وغيرها ، كما أننا نستطيع أن نستغنى استغناء تاماً عن كل تنويه بتآليفنا الشخصية ، فلا نحن نعمل للربح المادى ولا نحن فى حاجة الى التصفيق والتهليل ، وانما لذتنا الأدبية لذة الهواية الصرفة قبل كل اعتبار آخر ، فمن أراد ثمار أدبنا فعليه أن يسعى لها فلن نكون نحن الساعين اليه ، وان دفن هذا الأدب لأهون علينا من تصنع الأخلاق الكريمة والمنّ السقيم الذى تنضح به تلك النفوس المريضة المفسدة للجوّ الأدبى فى مصر . وقد ضجّ الأدباء المخلصون من جعل الأدب مطيةً للسياسة ومن تشويه سمعة الأدباء النقاد باسم السياسة كلما قالوا كلمة الصراحة والاخلاص ، والأنكى من هذا أن يدسّ هذا المتزعّم أو ذاك سفيراً له فى معظم المجلات والجرائد السيارة لمحاربة خصومه وعرقلة النشر لكلّ ما لا يرضيه ولو كان أدباً ناضجاً ، فلا عجب بعد ذلك اذا تألم معالى وزير المعارف وجميعُ الغيورين على حرمة الأدب من هذا الاضطراب المسىء الى سمعة مصر الأدبية فى العالم العربى .

الدكتور ناجى

شقّ علينا كثيراً ما بلغنا فى الشهر الماضى عن إصابة صديقنا الدكتور ابراهيم ناجى وكيل (جمعية أبولو) فى حادث اصطدام بمدينة لندن إصابةً خطيرةً نُقِلَ من أجلها للعلاج فى مستشفى سانت جورج . ولكن يسرنا أن نعلن الآن تماثله للشفاء وأنه سيعود الى مصر فى أواخر هذا الشهر . وهذه بشرى تزفّ الى محبيه الكثيرين فى العالم العربى الذين يجلون أدبه ويعشقون لطفه .

وبهذه المناسبة نأسف لما قرأناه من تحامل على الدكتور ناجى حتى فى غيبته وأثناء مرضه ، بينما ناجى لم يدافع عن نفسه الاّ الدفاع المعقول المشروع . وعندنا أنه ما كان يجوز له الاستياء من الدكتور طه حسين بصفة خاصة ، ففضل الدكتور طه على النقد الأدبى قديم معروف ، ولكنه فى ظروفه السياسية الحاضرة التى غرق فيها الى أذنيه لا يملك الوقت الكافى للدراسة العميقة ، كما أنه لا يملك الاستقلال الذى يخوّل له أن يكون ناقداً أدبياً جريئاً ، أى قاضياً عادلاً بعيداً عن المحاباة . فأحكامُ الدكتور طه الأدبية فى الوقت الحاضر تُقبَلُ لما فيها من معالم الذكاء لا غير ،

لا لأنها أحكام عادلة ، إذ كثيراً ما تكون بعيدةً عن ذلك . ولكنَّ الدكتور طه ساحرُ العبارة حتى ليفتننا بحيثيات حكم الاعدام علينا أو على واحد من أصحابنا ! وهو يبحث فى الشعر المنقود لناجى جاهداً عن كلمة «خرجت من الأزهر الشريف» حينما يتغاضى عن عبارات الحشو الثقيل فى شعر العقاد التى لا نعرف ولا يعرف الشيطان من أين خرجت !

ضجة مفتعلة

كتب الشاعر عباس محمود العقاد بامضاء أحد أتباعه مقالةً من مقالاته المستورة فى جريدة (الوادى) المؤرخة ٢١ سبتمبر الماضى بعنوان « ضجة مفتعلة » كلها تهجُّمٌ عنيف علينا . وقد خطر فى بالنا أولاً أن نهمل التعليق عليها — خصوصاً وقد ظهرت ونحن على وشك اصدار هذا العدد — ثم رأى فريق من زملائنا غيرَ ذلك حتى يرى الأدباء النقادُ من أين يأتى حُبٌّ الانقسام والاساءة الى الأدب والأدباء حتى بأقلام مَنْ ينتسبون الى مهنة التعليم وهم أبعدُ الناس عن رُوحها وأخلاقها . وقد رأى القراءُ كيف أننا دائماً نقف موقف الدفاع الشريف ، وحتى هذا الموقف لا نقفه الا اضطراراً بعد استنفاد كل ما لدينا من حِلم ، وانما نقفه دفعاً للتزوير على التاريخ الأدبى ودفعاً للاساءة الى النهضة الشعرية الحديثة . بيد أن صفحات هذه المجلة الشعرية لا تتسع لمثل هذا الأخذ والردّ ، ولذلك فقد نضطر فى المستقبل الى الكتابة فى زميلتنا (الإمام) التى ستستأنف ظهورها فى القاهرة ابتداءً من منتصف هذا الشهر. وقد كان بودّنا أن ننفى نسبة هذا المقال الى العقاد كما ننفى نحن نسبةَ كلّ ما يُظنّ أنه من قلمنا اساءةً لأحدٍ ، وكلمنا فعلاً بعض مريدى العقاد فى ذلك ليتنصل من هذا العبث ، ولكن سعينا فى ذلك كان على غير جدوى .

اهتمَّ العقادُ كعادته فى مستهلّ هذا المقال الذى شغل نهرين من (الوادى) — وهو واحدٌ من سلسلة المقالات المنتظمة لمحاولة النيل منا ، على مثال ما كانَ يتبع ضدّ عبدالرحمن شكرى منذ عشرين سنة — اهتمَّ بالتهوين من شأننا والتعظيم من شأن نفسه ، وهى طريقة مبتذلة فى الكبرياء المصطنعة أصبحت تمجُّها حتى بيئاتُ التهريج ... ولو أراد العقاد راحة نفسه لترك التقدير الذى يتهافت عليه للتاريخ والنقد الفنى الخالص ، ولتخلى فى سنّه الحاضرة عن أمثال هذه الاعلانات الرخيصة

المضحكة ! ولكن هى الغيرة الحمقاء من كلّ أديب نابه لا يسير فى ركابه وله رسالته الخاصة ، وآخرُ غرائبها الحملة التى نظمها على الكاتب الاجتماعى النابه أحمد الصاوى محمد فى أكثر من صحيفة .

ونقرأ بعد ذلك كلاماً عن رجولته المكتملة ، وأنه رجل صراع وطنى وأدبى تحاربه قوات مجتمعة ومتفرقة فيصمد لها جميعاً ! وأما نحن ففى هدوءٍ من البال وطراوة النعيم ، الخ ... وهذه الكلمات آيةٌ فى التبجُّح لقلب الحقائق ، ونحن لا نزكى جهودَنا المتنوّعة وكفاحنا المتواصل فى ميادين شتى منذ أكثر من عشرين سنة فهى لا تحتاج الى تزكية ، وما نحياه من حياة النضال المستمر والتقشف والتعب المتواصل أشهَرُ من أن يُعرَّف به لكلّ ذى منطق سليم ، وأما رجولةُ صاحبنا العزيز المكتملة ومَثلُهُ الأعلى فى الصراع الذى يصحّ أن يقال فيه « مكرَهٌ أخاكَ لا بطل » فموقفه المخزى أثناء محاكمته ، وهروبه من ميدان الأدب الى ميدان السياسة ليحارب زملاءه بأسلحتها الحقيرة . ولا نعرف أنّ هناك قوى تُحاربه فهذا تهويل فى تهويل وجعجعة فارغة ، بل انما يتعرَّض له من متاعب ترجع الى رعونته وسلاطة لسانه أقل بكثير مما تعرَّض له زملاؤه الصحفيون المجاهدون الذين لا يضجون مثلَ هذا الضجيج لفتاً للأنظار وتظاهراً بالبطولة . وأما الصراعُ الوطنى الذى يتحدَّث عنه فاننا لا نفهمه كما لا نفهم هذا الكفاح الذى يتشدق به ، وانما نفهم منه فقط أنه ضحك على الذقون ! فهذا كاتب يتناول مرتباً حسنا من (الجهاد) ومكافأة مالية من (الوفد) وكلّ جهوده مقصورة على مقالة سياسية يومية — هى غالباً عريضة شتائم فارغة للتأثير على الدهماء — ومقالة أدبية أسبوعية ، وله الكثير من الوقت لمرحه ومتعه ، بينما نعانى نحن ما نعانى من المشقات والتضحيات المتنوعة والمسئوليات الكثيرة وصنوف المحاربات عاماً بعد عام .

ومازال صاحبنا يتوهم أن فى ظهوره بمظهر الصّنم وفى لطمه ذوى الفضل عليه وفى تشبيهه زائريه ومجتمعهم بحديقة الحيوانات وتسجيله ذلك فى شعره مايكسبه الرجولة والعظمة والاحترام ، فيعيرنا بوداعتنا وهوادتنا ويحاول أن ينتقص رجولتنا ، ولكن كل من عاش فى البيئات المثقفة فى أوروبا وخالط رجال الأدب والعلم فيها يعرف انّ أخلاق الاجلاف ليست من العظمة أو الرجولة ولا من احترام النفس فى شىء ! وبحمد الله لم يجن الشباب الذى امتزج بنا الاّ الشعور التام بالرجولة والاستقلال والاباء وشمم النفس وأمثال هذه الصفات التى نبثها فيه ولو ثار بعضهم علينا — وقد أشرنا الى ذلك من قبل — وليس مثل هذا ما يستطيع أن يباهى به العقاد نحو

مَن عاشروه من الشبان . وما يتردد علينا منهم الا أبناء البيوتات الطيبة ، فما يقوله ذنَبٌ آخر من أننا نعول هذا أو ذاك هذرٌ فى هذر ، فان إتفاقنا على العلم والأدب لا على الأشخاص وليس لغايات شخصية ، والعكس كلّ العكس حال خصومنا .

وأما عن آرائنا الفلسفية وتأملاتنا الفكرية فمتغلغلة فى دواويننا ومؤلفاتنا وهى من صميم خواطرنا لامن آثار مطالعاتنا وحدها . فلا تدفع بصاحبك المسكين الى العيب فى شعرنا قبل أن تحرم عليه انتهابه ، اذا كنت أنت تريد التظاهر بالتعفف عن مثل ذلك ، وهذه احدى قصائده الأخيرة « النفس الضائعة » المنشورة فى مجلة (الرسالة) المؤرخة ١٧ سبتمبر الماضى منهوبة الخواطر والمعانى من قصيدتنا « أقصى الظنون » (ديوان الشفق الباكى — ص ٣٠٠) وذا غفرنا لك ماتنتهبه أنت بجانب مالك من حسنات فلتحسن على الأقل اختيار من توكل اليهم مسؤولية مهاجمتنا بهذا الاسلوب الرقيع ! وأما عن شعرنا الذى يتمثل فيه تقديسُ المرأة روحاً وجسماً ومعنى فهو أبعد مايكون عن الإباحية لدى من يفهمه ، وانما هو صورة التسامى والطبيعة النقية ، ولم يقل أحد عنا ذلك لمجرد وصفنا شتى الاحوال النفسية ، بل نحن نغار على قدسية المرأة أشد الغيرة ، وتفسيركم هو صورة تقوسكم المريضة . وانما هذه الاباحية بل الشذوذ البغيض هو مما يُطلّ من ثنايا شعرك ، ونحن لانعرف النفاق الذى تعرفونه أنتم أيها العمالقة المتصنعون وأنصار الفضائل الموهومة !

وأما الحقد الكظيم فشىءٌ لانعرفه أيضاً ، لأن أشهى ماعندنا أن نعيش للجمال بما فيه من حرية وسلام وقد نقدنا أدبك وقدرناه فوجدناك لاتقنع بأقل من التأليه فرأينا من الخير بعد ذلك أن نتركك وشأنك إذ لاخير فى مثل هذا الغرور والأنانية . ولولا تعرضك لنا بالسوء وطعنك فى شرفنا وأخلاقنا ، ولولا المناسبات الأدبية التى تقضى الأمانة بذكرك فيها ، لأغفلناك اغفالا تاماً . ونحن نتحدى أى انسان يقول إننا أصغرناك عند مَنْ قسوا فى نقدك ولم نكن منصفين لك من وجوه شتى .

ونحن لانعرف أحداً يختلط بنا الا من ذوى الفضل والمكانة والشباب المثقف ، ومن عداهم فلا صلة لهم بنا ، وقد تكون لهم بك هذه الصلة بالمعنى الذى تذكره . وقد نساعد بعض البائسين أحياناً على قدر طاقتنا كما ساعدنا صاحبك الشتام الجاحد ، وهو آخر من ينبغى له التحدث فى هذا المعنى ، وليتقدم أو لتتقدم أنت نيابةً عنه بسداد ما اقترضه وما يقترضه يمنةً ويسرةً من الكثيرين ثم يدّعى بعد ذلك أنه مَن تُعرض عليه النقود فى حين أنه لايُعطى لأحدٍ فرصةً لمثل هذا العرض ! . . . ولكن هى

الصفاقة المتناهية وطبيعة الاختلاق التي تسترها الليونةُ والابتسامُ الى أن ينفضح أمره وتظهر خديعته ورياؤه، وحينئذ يثور ويتكلم عن « القاذورات » وأشباهها كأنما هذا من لغة معلمي المدارس التي ينتسب اليها !

ولم يخجل ذلك القلم السليطُ من الحطّ من أدب مطران وشكري وتصوير التنويه بهما ضجةً مفتعلةً ، وأمّا سخافة « امارة الشعر » التي تورّط فيها الدكتور طه حسين (كما يتورط الآن عن حسن نية في مقالات كثيرة مغرضة بتأثير مَن حوله من الموسوسين) فليست من الضجة المفتعلة في شيء !

إنّ مطران يا هذا ملء الأسماع والأبصار بأدبه الناضج منذ نصف قرن ، وهو في غنًى تام عن كلّ ضجة مفتعلة ، فلا توهموا القراء بأنه مجرّد شاعر صادفته الشهرة ، وخطّتنا في هذه المجلة كانت دائماً معارضة الزعامات المفتعلة حتى رفضنا تلقيبَ مطران بأمير الشعراء وشاعر الأقطار العربية كما رفضنا أن ننشر الأمداح الموجّهة الينا قبل أن يخطر في بالك التملّقُ بهذا الصغار . . . ولا نودّ أن نقول إنك عُدتَ الى ذكر شكري مضطراً في الوقت الذي نريد أن نختم بسلام هذه المأساة ، فمن الخير أن لا تعود الى الغمز في أدب شكري وأخلاقه وأنت تعلم محبتنا القديمة له التي لا شأن لها بك ، ولا الى الطعنَ فينا وفي وزارة المعارف لمثل هذا التظاهر الرخيص بالبطولة الذي نقوم به من وقت الى آخر ، وما أرخص هذه البطولة العرجاء في بلادنا المسكينة !

***

وتظهر الامضاء الشريفة ورمزها مرةً أخرى في مجلة (الأسبوع) الغراء بعددها المؤرّخ ٢٦ سبتمبر الماضي كأنما لم يبق غير هذا الاسفاف ضماناً لرواجها . ونعود فنقول إننا لا نعرف التهجّمَ على أحدٍ ، فكيف نُلام بعد هذا إذا وقفنا موقفَ الدفاع الصريح عن شرفنا وأدبنا ازاء الكاتب المتحامل وازاء المجلة التي تقضي خطتها التجارية بمجاراته ؟ قال ﷺ : الدنيا جيفةٌ وطُلاّبها كلابٌ ، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب ! ونحن لا نريد شيئاً من دنيا هؤلاء ، ولكنهم يتخيلون دائماً ذلك فينغصّون أنفسهم ويشنّون من الغارات ويبتدعون من الاختلاقات ما ينافي أبسط مبادىء الأخلاق والانسانية ، ولكن ما لهم وللأخلاق والانسانية ودنياهم من غير هذا الطراز ؟ ! يحاولون الايقاع بيننا

وبين ناجي وهو مَنْ هو بيننا فى المكانة والإعزاز . ويحولون دون نشر رسالة مختار الوكيل رداً على مزاعمهم الكاذبة وافتئاتهم وقد سلَّمَ الينا نصَّها بخطه وسننشرها فى مجلة (الامام) الصادرة يوم ١٥ أكتوبر ليرى القراء مبلغ افتنان هؤلاء الأفاضل فى التزوير على الأحياء . ويدَّعون أننا كتبنا الى (البلاغ) مقالة عن « النور فى شعر أبي شادى » بامضاء مختار الوكيل بينما نحن نزهد فى نشر ما نتناوله من أمداح وتقاريظ من أدباء معروفين ، ومختار الوكيل حسن الخطّ ولذلك نجزم بأن مقالته ذهبت إلى (البلاغ) بخطه هو ، فليُسأل عنها (البلاغ) . وأما وجود « دار ذى القرنين » فى الاسكندرية فأمرٌ جائز ، وهذا لا ينفى الشعر الاباحى المستنكر ، وما هو بالفريد من نوعه فى شعر العقاد ، ولذلك لم يأثم لا رمزى مفتاح ولا صالح جودت فى استنكاره ولم تأثم مجلة (أبولو) فى نشر ذلك الاستنكار ، فانّ تقدير الجمال وتحليله الذوقى شئ والاباحية شيء آخر . وأمّا عن آراء اسماعيل مظهر فليسأل عنها هو فشواهدها عنده . وأما عن عزيزنا كامل كيلاني فحسبه أن يداوى اللطمة التى أخذها أخيراً من المازنى لتفنّنه فى اصطياد مواد مؤلفاته من الأدباء البائسين ، ويكفيه أن يطوف على المقاهى بأهاجيه لنا ، وبمقالات تقريظه على الصحف سواء مباشرة أو بالواسطة . ونحن لا نعمل سرّاً فى أى مجال بل حولنا من حولنا من أدباء شهود يعرفون إذا كنا نعمل لأنفسنا أم نعمل لغيرنا ، ونخترع الأمداح أم نتعفّف عنها وننشد النقد الصريح النزيه . وعدد (الأسبوع) الأخير كله هوسٌ وجنونٌ فى مهاجمتنا فى صفحات متوالية الى درجة الاشارة الى ماضينا ، كأنما كنا من متشرّدى القلعة وقهوة الشيشة وغيرها أو من مهرّجى قلعة ابي جبل أو من صعاليك الصحافة الأوغاد . . . وهكذا يكون النبل وسادتنا النُّبلاء !

عبث

كنا كتبنا فى العدد الماضى كلمة مؤاخذة صريحة للأديب عبد الفتاح حمودة على نقده لشعرنا الذى جعله فى الواقع طعناً فى ذمتنا وأخلاقنا قبل أن يكون نقداً فنيّاً ، وهذه عادة سيئة ذائعة بين النقاد لا تقلّ عنها سوءاً أن يعتبر الناقد المنقودَ أقل منه أدباً وفكراً فيتورط فى أبجديات نقدية لا معنى لها . وأما النقد الأدبي الخالص فعادتنا الترحيب به ومناقشته فى هدوء ، والشواهد الماضية كثيرة على اخلاصنا فى ذلك ، بل نحن نشكر الناقد الأدبى الصريح ولو تحامل علينا مادام يكتب بحسن نية .

وقد جاء الأديب الناقد فى جريدة (الوادى) المؤرخة ٢٨ سبتمبر الماضى برد ليس فيه ذرة من الانصاف والاعتراف بالخطأ أو الاستقلال الذى يدعيه، بل فيه ما فيه من زيادة التهجم علينا، وحسبنا إنصافاً له ولأنفسنا أن نوجّه اليه أنظار القراء ليتبيّنوا بأنفسهم روح الكاتب الفاضل ومراميه، ثم ليحكموا له أو عليه وعلى غيره ممن يتفضّلون بتجريحنا فى جريدة (الوادى) رعايةً من هذه الجريدة المحترمة لصديقها العزيز عباس محمود العقاد ومَن يلوذون به، بعد أن أصبح الدكتور طه حسين لا يتحرز من التأثيرات الشخصية والعصبية السياسية حتى ولو كانت ضدّ رجل مايزال يحترمه ويحسن الظنّ به ولا شأن له بالعصبيات السياسية كمحرر هذه المجلة .

أيْنا المغرر بالشباب ؟

لقد دفع سخطُ العقاد وأذنابه علينا (لأننا أبينا إباءً التغرير بالشباب ودفن مواهب الرجال المبرّزين الذين حاربهم) الى الالتجاء الى راية السياسة كما أشرنا من قبل، واستغلال الصحف التى تجامله لمناوأتنا بكل وسيلة ومنها اتخاذ الشباب للاختلاق ضدّنا واساءة تفسير جميع أعمالنا وبين هؤلاء مَن لم يبرحوا أول سلم الأدب ... فمن ذلك أننا اذا ضننا بفراغنا فى (أبولو) لدراسات تخصّنا ونشرناها مُستقلة لم نكن مشكورين على هذا الايثار بل كان ذلك جريمة وأى جريمة ، ووجب شتيمة من يقدرنا ولو كان مثل خليل مطران أو أحمد محرم اللذين ترجع علاقتنا الأدبية بهما الى سنين بعيدة ! ومن ذلك أن يقال إننا نستجدى التقريظ ونحن الذين نأبى نشره فى هذه المجلة وغيرها ، وبينه ما يتشرّف غيرُنا باذاعته كما يفعل العقاد فى « الجهاد » وسواه ، بينما نحن الذين كنا ولا نزال القدوة المثلى فى نشر النقد الصارم كما فعلنا فى نشر مقال صديقنا الفاضل محمد سعيد ابراهيم فى ديوان (الشفق الباكى) فى حين يولول غيرُنا لأىّ معنى من مَعانى النقد ! ومن ذلك أنّ اتّباعنا نسق النشر الذى آثره صديقنا الأديب الصحفى المطبوع حسن الجداوى أو تعاوننا الأدبى مع مريدينا من جمعيات وأفراد معناه انعدام شخصياتهم فى كل هذه الآثار الأدبية التى تخصنا ! ويكفى عندهم دليلاً على ذلك ارتباطنا بمطبعة واحدة مشهورة خدمتنا وخدمت أصدقاءنا سنين طويلة فتماثل الحروف والنسق فى اعتبارهم الحكيم معناه انعدام الشخصية !

والاظرف بعد كل هـذا أن مَنْ يوكَّل بنقدنا مِن الناشئين هم بين مَنْ نُصلح لهم أشعارهم وأدبهم ، ومع ذلك يدَّعى خصومُنا أن هؤلاء نقادٌ ناضجون مستقلون !

ها هى مجلة (أبولو) فى سنتها الثالثة مزدحمة بانتاج العشرات من الشعراء والنقاد ومع ذلك فنصيبنا الشعرى فيها قليل ، ولم يُعرف عنا أننا استغللنا جهودَ أحدٍ منهم للاعلان عن أنفسنا ، بل كان ولا يزال كلّ همنا أن نكون عاملين فى المؤخرة وأن ندعَ الصدارةَ كلَّ الصدارة للشباب المنجبين ، نُشغلهم بالخير المحض بينما يَشغلهم سوانا بالتحزبات الشخصية والمنازعات ... ولقد أراد الدكتور رمزى مفتاح أن يضع كتاباً عنّا فصرفناه عن هذا الجهد الكريم ، وأراد مثل ذلك العوضى الوكيل فأبينا عليه هذا الفضل ، وأراد مختار الوكيل أن يكتب دراسة طويلة لديوان « فوق العباب » فشكرناه معتذرين ، وقد تطول بنا القائمة اذا سردنا الأسماء الكثيرة .

فأينا بعد هذ يغرر بالشباب أيها العابثون ؟ !

أدب أم قلة ادب ؟

قد تمرّ بنا أشياء كثيرة لا أهمية لها فى ذاتها ، ولكن لها أهميتها فى تأريخ التيارات الأدبية فى وقتنا الحاضر ، وهذا مادفعنا الى كتابة هذه التعليقات المختلفة .

مثال ذلك أن تعلن صحيفة نحترمها عن قرب اشتراك أحد مريدنا فى تحرير صفحتها الأدبية ، ثم اذا بكل هذا يُعدَّل سريعاً فيحال حتى دون نشر أدبه ويحل محله آخر لاصلة له بالأدب ، ويكفى أنه موظف تجارى لا أكثر ولا أقل ولا ثقافة أدبية خاصة له ولا مرانة كتابيـة قوية عنده ، وكل ميزاته أنه أحد أذناب العقاد المنزلفين يحمل له فى كل يوم جمعة صينية الكبيبة ، وينضم الى من يسميهم العقاد أعضاء « جنينة الحيوانات » ، متسلياً العقاد بهم ومستهيناً بشأنهم ، وهو المقدَّس المشكور منهم على أى حال ! وهذا الإبدال له الثناء الواجب حتماً ، والثناء الواجب يتشكل طبعاً بمهاجتنا لا مهاجة فنية ولكن مهاجة من قلة الأدب لحمتها وسداها الطعن فى الذمم بقلم أسير يتصنع الصدق والحرية . . .

وبعد هذا ندع الكلام للشاعر الناقد صالح جودت فى صحيفة « الامام » التى ستصدر فى منتصف هذا الشهر ، فانّ له خبرةً خاصة بهذا الصنف من المتطفلين .

ويتحدَّث ذنب آخر عن تعففه عن ذكر ماضينا الذى نفخر به كل الفخر ، والاولى

به أن يذكر القراء بماضيه هو فى الصعلكة والتسكع، وبما كتبه الهيهاوى فى « الاخبار» وعبد القادر حمزه فى « البلاغ » عن ماضى العقاد من جهتى السياسة وغيرها ، حتى يحذر قليلاً فى ما يريد خلقه من عصبية سياسية موهومة ضدّنا ، بينما نحن نحتقر هذا الاتجار بالسياسة كلّ الاحتقار ونتحدّى أىّ مخلوق يدّعى مايدّعيه العقاد من أننا نعمل بايعاز أىّ سلطة أو بمكافأة أى سلطة لمناوأته المزعومة كما أوهم أحد أذنابه فى كتاباته ، وكما ذكر العقاد نفسه تكراراً فى مجالسه إيهاماً بعظمته وطعناً فى شرفنا بهذا السلاح الخسيس ، بينما شرفنا الوطنى وشرفنا الشخصى كلاهما أسمى من أن ينال منه أىّ انسان على الاطلاق فضلاً عن مثل العقاد وأذنابه .

الى أصدقاء أبولو

وبعد هذا ، نعلن أصدقاء (أبولو) بأننا تلقّينا ردودا شتى على ما وُجّه الينا من حملات ، ولكننا آثرنا أن نكتفى بملاحظاتنا المتقدمة التى نجعلها الأخيرة من نوعها فى هذه المجلة وأن ننزّه صفحاتها تنزيهاً مطلقاً عما يجوز أحياناً فى الصحف اليومية ، فان فى تأييد وزارة المعارف المصرية ووزارة المعارف العراقية والمعاهد العلمية فى الشرق والغرب لهذه المجلة معنًى سامياً لا ينبغى تكديره بالدخول فى المنازعات التى لا تسلم غالباً من أوضار الأحقاد .



ذكرى المتنبى

أذاعت طهران اقامة تذكار للفردوسى شاعر الشاهنامة كما سبق القول ، والآن تذيع الأقطار العربية الاحتفال المرتقَب بذكرى المتنبى ، فأقول فى ذلك :

تمهيد

ان المتنبى الشاعر المشهور الكندى ترك لنا آثارا شعرية ليست بأقل مما تركه

غيره من شعراء الأعاجم ، فاذا لم يكن قد نظم ملاحم كالياذة اوميروس وشاهنامة الفردوسى وكلستان السعدى وفردوس ملتون وروايات شكسبير وتأملات لامرتين وقصائد هيكو وكوميدية دنتى ومنظومات سرفانس وغيرها فقد ترك لنا ديواناً شعرياً ملأه بالحكم والحماسة والاوصاف البليغة والافكار الرائعة فى وصف الحروب والأسد وغيرها مما خلد له الذكر وحمل كثيراً من العلماء على شرح ديوانه حتى كان شرّاحه أكثر من أربعين وآخرهم الشيخ ناصيف اليازجى فى (العرف الطيب) مما طبعه ولده الشيخ ابراهيم ، الى غير ذلك مما يدل على مكانته الكبيرة فى عيون العلماء قديماً وحديثاً ، وفى السنة الآتية يمر على وفاته ألف سنة وهو رفيع القدر ذائع الذكر.

من هو المتنبي ؟

سُمى بذلك لأنه ادعى النبوة فى بادية السماوة وأسر وحبس . وهو الشاعر العربى اللغوى الجليل الطراز فى أساليبه والفيلسوف المبدع فى حكمه فقد ملأ حلب الشهباء بمدائح سيف الدولة بن حمدان حاكمها وسار الى مصر فلم يقصر فى أوصافها وأجاد فى كل ما نسجته براعته وابتدعته فكرته وأنتجته مخيلته ومثلته بلاغته مما تناقلته الرواة فى كل عصر وأكبرته العلماء فى كل مصر حتى فى الاندلس والمغرب فلقبوا بعض شعرائهم باسمه تيمناً مثل ابن هانىء (متنبي المغرب) ، فهو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندى الذى طار ذكره بين الشعراء وكان مولده فى الكوفة سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) وتوفى قتيلا سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) فلو عمر أكثر من ذلك لما ترك مقالاً لقائل ولا مجالاً لجائل ، وكان سبب قتله قوله مفتخراً :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى — وأسمعت كلماتى من به صممُ
الخيلُ والليلُ والبيداء تعرفنى — والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ

آراء الكتاب فيه

ومما يروى عن الشيخ ناصيف اليازجى شارح ديوانه كما سبق أنه رأى أحدهم وقد كتب على نسخة من ديوان المتنبي هذين البيتين :

أسأل الله إله العر — ش ذا الأفضال ربى
حسنَ لفظِ الأرجا — نيّ وحظَّ المتنبي

فكتب تحتهما من نظمه :

قد تمنى حسنَ حظٍّ فأرانا حسنَ لبّ
طلب الممكنَ إذ لم يَرجُ نظمَ المتنبي

وكان اليازجي مولعاً بالمتنبي وشعره حتى تحداه بمنظومه وكان يحفظ أشعاره ، ومن آثار ذلك أنه لما وقف على طبع معجم (محيط المحيط) لبطرس البستاني وكان بمدرسته الوطنية ملأ المعجم شواهد من المتنبي مما وعاه فى حافظته النادرة ! وكثيراً ما كان يقول : المتنبي يمشى فى السماء والشعراء على الأرض !

ومع ذلك فقد انتقد المتنبي بعضهم وهجوه حسداً مثل ابن لنكك البصرى النحوى وشاعر آخر عيره بانه كان سقاء بالكوفة بقوله :

أىُّ فضلٍ لشاعرٍ يطلب الفضلَ مِن الناس بكرةً وعشيا
عاش حيناً يبيع فى الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المحيا !!

وكتب بعضهم فى مدحه وهجائه ونقده ، وردَّ آخرون عليهم أفواهم ، وذلك مما لم يسبق لغير المتنبي من هذه العناية الفائقة بشعره .

وقال ابن الاثير فى محاسن المتنبي بمثله السائر :

« وأحسن من هذا قولهفى قصيدته التى مطلعها (عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم) :

فما تركن بها خلداً له بصرٌ تحتَ الترابِ ولا بازاً له قدمُ
ولا هزبراً له من درعهِ لبدٌ ولا مهاة لها من شبهها حشمُ

وهذا من المليح النادر فالخلد استعارة لمن اختفى تحت التراب خائفاً ، والباز استعارة لمن طار هارباً ، والهزبر والمهاة استعارتان للرجال المقاتلة والنساء من السبايا » (اهـ) .

وعقد باباً للمفاضلة بين المتنبي والبحترى فى وصف الأسد وأورد أبياتاً من القصيدتين البائية للبحترى واللامية للمتنبي ثم عقب على ذلك بقوله :

« وسأحكم بين هاتين القصيدتين والذى يشهد به الحق وتتقيه العصبية أذ كره ، وهو أن معانى أبى الطيب أ كثر عدداً وأسدّ مقصداً . ألا ترى أن البحترى قد

قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فى تشبيهه بالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ولم يأت بشيء سوى ذلك ؟ وأما أبو الطيب فانه أتى بذلك فى بيت واحد وهو قوله :

أمعفِّرَ الليث الهزبر بسوطه لمن ادّخرتَ الصارمَ المصقولا ؟

ثم إنه تفنن فى ذكر الأسد فوصف صورته وهيأته ، ووصف أحواله فى انفراده وفى حبسه ، وفى هيأة مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته وشبه الممدوح به فى الشجاعة وفضله عليه بالسخاء . ثم انه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، وأخرج ذلك فى أحسن مخرج وأبرزه فى أشرف معنى .

والبحترى وإن كان أفضل من المتنبي فى صوغ الالفاظ وطلاوة السبك فالمتنبي أفضل منه فى الغوص على المعانى ، ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرض لما ذكره فى أبياته الرائية لعلمه أن بشرا [1] قد ملك رقاب تلك المعانى واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيئاً يقوله فيها ، ولفطانة أبى الطيب لم يقع فى ما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر لانه قصر عنه تقصيراً كثيراً . ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك الطريق وسلك غيرها فجاء فى ما أورد مبرزاً .

واعلم أن من أبين البيان فى المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصد من المقاصد يشتمل على عدة معان كتوارد البحترى والمتنبي هنا على وصف الأسد . وهذا أبين فى المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا فى بيت من الشعر وفى بيتين ويصوغه الآخر فى مثل ذلك ، فان بعد المدى يظهر ما فى السوابق من الجواهر وعنده يتبين ربح الرابح وخسر الخاسر . . . » اه .

وأنشد المعتمد بن عباد اللخمى صاحب قرطبة واشبيلية فى الاندلس يوماً ما فى مجلسه بيت المتنبي من قصيدة :

إذا ظفرت منك العيونُ بنظرةٍ أثاب بها معيي المطىّ ورازمه

---

(١) يريد بشر بن أبى عوانة فى قصيدة قتله للأسد التى مطلعها :

أفاطم لو شهدتِ ببطن خبتٍ وقد لاقى الهزبرَ أخاكِ بشرا

وقد شطرها محمود قبادو التونسى تشطيراً زادها سلاسة ومعانى وحسن وصف .

وجعل يردده استحساناً وفى مجلسه أبو محمد عبد الجليل بن وهبون الاندلسى فأنشد ارتجالاً :

لئن جاد شعرُ ابن الحسين فانما تجيد العطايا واللهى تفتح اللها

تنبأ عجباً بالقريض ، ولو درى بأنك تروى شعرَه لتألّها !

ومن بلاغات المتنبي الفائقة انه وصف ببيتين ما وصفه أوميروس كبير شعراء اليونان فى إلياذته بأبيات ، وكان للمتنبي براعة بديعة فيهما ، وهما :

صدمتهم بخميسٍ أنت غرته وسمهريته فى وجهه غمم

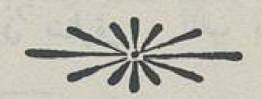
فكان أثبت ما فيهم جسومهم يسقطن حولك والأرواح تنهزم !

وهذان البيتان مما فات سليمان البستاني ذكرها حاشيته على قول أوميروس كعادته فى الالياذة العربية .

ومن أولى ما نختم به كلمتنا عن المتنبي علمه باللغة واطلاعه على غريبها وحوشيها حتى كان يستشهد بكلام العرب نظماً ونثراً فى كل ما يسأل عنه ، وسأله الفارسى عن الجموع على وزن فعلى فقال له فى الحال : ليس عندنا إلا جمعان وهما حجلى وظربي ، فبحث الفارسى ثلاث ليال فى كتب اللغة فلم يجد لهما ثالثاً !

ومن نثره قوله فى رسالة موجزة : وصلتني وصلك الله معتلاً وقطعتني مُبِلاً ، فان رأيتَ أن لا تحبب العلةَ الىّ ولا تكدر الصحة علىّ فعلت إن شاء الله تعالى (اه) الى غير ذلك ؟

زحلة (لبنان) عيسى اسكندر المعلوف





تربية الذوق

ربما أُتيح لنا أن نضع كتاباً فنياً مصوّراً عن جمال المرأة وتحليل عناصر ذلك الجمال ، لأننا نعتقد أنّ كتاباً من هذا الطراز مما يساعد على تربية الذوق الفنى والنظر الى المرأة نظرةً فنيةً . وقد لاحظ أصدقاؤنا كيف أنَّ جميع الشعر الذى تناول المرأة ونشرناه فى هذه المجلة أو فى دواويننا الخاصة كان يحوم حول تقديسها وحول تربية الذوق الفنى المتطلع اليها ، كيفما كان الموضوع الذى تناوله ذلك الشعرُ خاصّاً بها . وبعبارة أخرى أننا كنا نحارب بهذا الشعر الخشونةَ المتوحّشةَ وشعورَ الاحتقار للمرأة والشذوذ والشهوة السقيمة ، كما كنا نربّى الذوقَ الفنى العام . فاذا لغط بعد ذلك مَن لا يفهمون شيئاً من أصول الفنّ ، أو مَن يعميهم الحسدُ والغرضُ بتفاسير يمجّها كلُّ أديبٍ مهذبٍ « كالاباجية » ونحوها ، فيجب أن ترتدّ تفاسيرهم الى نفوسهم ، فانما نحن نعتمد على أرقى النماذج الفنية ومنها ما اعتزّت به الأكاديميةُ الملكية فى لندن وصالون باريز وماتعتزّ بأمثاله المعارض الفنية المصرية نفسها التى ترعاها هيئات محترمة . فابعدوا عن الأذهان أيها السادة تفاسيرَكم المريضة ، واحتفظوا بها لأنفسكم إذا شئتم ، فأنتم وحدكم أهلٌ لها !

ذكرى الفردوسى

فى الثانى عشر من شهر أكتوبر الجارى يقام فى مدينة (مشهد) بايران ـ حيث مَرقد الشاعر المشهور الحكيم أبو القاسم الفردوسى صاحب كتاب « الشاهنامة » الاحتفال الرسمى العظيم بمرور ألف سنة على ميلاد الفردوسى . وقد دعت اليه الحكومةُ الايرانيةُ كثيرين من أهل العلم والأدب من انحاء العالم ، كما دعت ثمانين مستشرقاً من مختلف الأمم الغربية . ويمثّل مصر فى هذا الاحتفال الفخم الاستاذ عبد الوهاب

عزّام ناشر ترجمة «الشاهنامة» الى العربية ، وهو فى مقدمة المصريين المتضلعين من الأدب الفارسى ، وستسبقه احتفالات أخرى أولها بمدينة طهران فى الرابع من أكتوبر . وتعنى الحكومة الايرانية بترميم قبر الشاعر على مثال أبنية ملوك الايرانيين القدماء قبل البدء بالاحتفال .

وفى الوقت نفسه تشترك الحكومة الروسية بذكرى هذا الشاعر العظيم ، فحبذا لو استطاعت الجامعة المصرية — على مابين مصر وإيران من صلات قديمة — أن تقوم من جانبها باحتفال مستقل توطيداً لما بين الأمتين من الروابط الثقافية القديمة وتكريماً للعبقرية الأدبية .

الطلبة والجماعات

كثيراً ما شكا رجالُ التعليم من استغلال رجال السياسة — على اختلاف أحزابهم — لشباب الأمة ، وعلى الأخص لطلبة المدارس ، فى تنفيذ برامجهم السياسية ، لأن نتيجةَ هذا الاستغلال كانت التفويتَ على كثيرٍ منهم دراساتهم والاساءة الى مستقبلهم ، فانّ السياسة أولى بأن تُتركَ للزعماء السياسيين ولرجالات الوطن الذين حنكتهم التجاريب وأنضجتهم الحوادث ، لا أن تكون ألعوبةً فى أيدى الناشئين الذين يصيرون حتماً ضحايا الأحزاب السياسية .

وقد انتقل هذا المرضُ — للأسف الوافر — من ميدان السياسة الى ميدان الأدب ، أو على الأصحّ الى شيعةٍ منه تؤمن مجازاً بعبادة الأصنام وبالخلط بين الأدب والسياسة ، واذا بهذا الشباب يُسخَّر للهتاف لهذا المتزعم أو ذاك هتافَ الحناجرِ الاسيرةِ وهتافَ الأقلام الذّليلة .

ولحظنا ذلك منذ سنين فأبينا هذه المذلةَ والامتهانَ لشباب الأمة ، وأفسحنا صفحاتنا للمختار من آثار الشباب الموهوبين ، إذ ليست المواهبُ الأدبيةُ مما يقاس حتماً بالسنّ ، وفى الوقت ذاته جعلنا شعارَ ندوتنا أمامهم تقديمَ الدرس على الانتاج الأدبى ، وجعلنا محفلنا صيانةً لهم من المقاهى وأمثالها ومن التذبذب بين الأحزاب ، فمن خاب منهم بعد ذلك لم ترجع خيبتُه الينا وانما الى دورانه حول أمثالهم والى إضاعته الوقت فى عبثهم . وقد استحقت خطتنا هذه تقدير معالى وزير المعارف عند ما تشرف وفد (جمعية أبولو) بمقابلة معاليه فى الصيف الماضى .

ولمّا عرَفَ خصومُنا هذه الحقيقة أخذوا يضللون فوق أضاليلهم ويتظاهرون بالغيرة على الشباب ، وتناسوا كيف غرّروا به ، وكيف ما زالوا يغررون ، ما بين إشعاره بروح التبعية بدل روح الشمم ، وما بين قتل مواهبه الأدبية بدل إظهارها ، وما بين تقسيمه الى فِرَقٍ يحارب بعضها بعضاً ، الى آخر هذه المهازل المشجية ، فى حين أن (ندوة الثقافة) وجمعياتها ليست لها صلة خاصة بالشباب ، وإنما صلتها أدبية وثقافية عامة بجميع أهل الأدب على اختلاف طبقاتهم ، وغايتها إبراز المواهب الأدبية وتشجيعها أينما كانت فى غير إسراف ولا تغرير بأحد . فلا غرو إذا حمد لها العقلاء جهودها النزيهة ، وحاربها المغرضون فحاولوا اتهامها بجناياتهم المشهودة وتشويه غاياتها الشريفة ، ولكن المغالطات لا تدوم ولابدّ أن تنكشف كما انكشفت مناوراتهم المفضوحة .

فى الشعر الجديد

نقرأ حواراً عجيباً عن ابتداع شعر الأوپرا فى اللغة العربية وشعر التصوير والميثولوجيا بألوانه الجديدة التى عرفها القراء عن آثارنا ، ويُتعب أحدُ أفاضل الأدباء نفسه فى نفى ذلك عنا ! والأمر لا يحتاج الى كل هذا الحوار فأسبقيةُ آثارنا هذه لا تحتاج الى تدليل ، وتأثيرها فى أدباء العربية مشهود لمن يطلع على المجلات السورية وغيرها ، والذين يريدون أن يعطوا غيرهم دروساً فى النقد النزيه أولى بهم أن يفهموا معنى ضبط النفس وضبط موازينهم كيفما كانت الظروف ، وبذلك يحترمون أنفسهم ويستحقّون احترامنا لهم دائماً .

ويقالُ إنّهُ ليس لنا ولا قصيدة واحدة فى الشعر العلمى تشرّفنا بينما تزخر دواويننا بهذا الشعر وعلى الأخصّ ديوان « الشفق الباكى » وبينها قصيدة « جنة النحل » التى كان يُعجب بها المرحوم شوقى بك كما يُعجب بها الى الآن رئيس تحرير (المقتطف) وغيرهما من كبار رجال الأدب . ومثل هذا الحكم هو نتيجة عدم الاطلاع الشامل على آثارنا المختلفة . وأمّا عن شعر الميثولوجيا فحسبنا أنّ فى جمعه بين الأساطير والخيال والعاطفة وتفسير الحياة والتعبير عن الحوادث المصوّرة ما يجعله الى الآن فريداً مستقلاً ، ولم يستطع منتقصونا مجاراته فضلاً عن التبريز علينا فيه . ومع ذلك فنفسُ هؤلاء المنتقصين كثيراً ما تغنّوا بعكس

هذه الاغنية من قبل ، ولكن يظهر أنّ للخريف تيارات خاصة ! وأما عن الحكم على شعرنا الفلسفى فالأَوْلى به رجل كالدكتور على العنانى أستاذ الفلسفة فى دار العلوم ، فليس هذا اللّون من الشعر فى متناول كلّ ناقدٍ وخصوصاً مَن ليست لديهم ثقافة فلسفية ولا روح فلسفية .

وَعِيبَ علينا استعمال بحور الزجل مع أنها تكسبهُ روحاً مصريةً رشيقةً ، وقد قلَّدَنا فى ذلك غيرُ واحد من الشعراء المشهورين بعد أن كانوا يتهكمون علينا فى البداية كما يقع كثيراً ازاء كلّ جديدٍ غريبٍ .

الشعر والسياسة

كثيراً ما نادينا بترفُّع الشعر عن السياسة ، وأن الوطنية غير الحزبية ، وأن من العيب تسخير الشعر لأهواء السياسة بدل خدمة القومية الخالصة . وهذا المبدأ ظاهرٌ فى جميع شعرنا قديمه وحديثه على السواء ، وأحدثه ديواننا (فوق العباب) الذى يعرف أصدقاؤنا الكثير من شعره الوطنى الذى ننتصر به للديمقراطية وحقوق الشعب وبعضه شائع فى الأندية .

لذلك نأسف جدّ الأسف لادعاء محررٍ فى (الوادى) اشتهر بمغالطته واشتغاله بالدسائس ضدّنا أننا نظمنا شعراً ضدّ (الوفد المصرى) مستشهداً بأبيات منصّبةٍ على مشاحنات الأحزاب ولانعبر الاّ عن الحسرة على هذا الشقاق المصدّع لوحدة الأمة،وأىّ فائدة من الصعود بالبناء اذا جاء مصدّعا مهدّداً بالدمار ؟ ومثل هذا الشعر جرى على ألسنة الكثيرين من شعراء الوطنية فلا معنى لاساءة تفسيره . ولكن لاعجب فى ذلك مادام القائم بهذا الدسّ ضدنا مَن زوّر قصيدةً على المرحوم شوقى بك طعناً فى (جمعية أبولو) مما دعا سكرتير الفقيد(بالنيابة عن أسرته) الى توبيخه أشدّ التوبيخ،ومع ذلك عاد صاحبنا يكرر هذه الفرية فى (الوادى) مستغفلاً رؤساءه !

ولم يكتف بذلك بل راح يصف قصيدة وجّهناها الى دولة اسماعيل صدقى باشا بصفته رئيس الوزارة السابقة وصفاً لايتفق مع الواقع فعلاقتنا بدولته علاقة صداقة عائلية ترجع الى الخال والوالد ولاشأن لها بالسياسة بتاتاً ،وقصيدتنا الى دولته لم يكن لها أىّ علاقة بالسياسة بل كانت بثّ ظلامة مما عانيناه فى عهده من محاربات واساءات لأعمالنا الثقافية التى كان دولته شخصياً يقدرّها،ومع ذلك فقد شغلت دولته السياسة عن إنصافنا.

وأما عن المرحوم شوقي بك فقد كان يحتفي بجمعية أبولو الى قبيل وفاته وبرّ الاعضاء بذكراه كل البرّ ، وكان الفقيد يقدر روح التسامح والمودة عندنا وهو فى حياته لم ينظم هجواً فى أحدٍ مطلقاً .



سرّ الفصاحة

تأليف الأمير أبي محمد عبدالله بن محمد سعيد بن سنان الخفاجى الحلبي

٣٢٠ صفحة بحجم ٢٤¾ × ١٦¼ سم — طبع بالمطبعة الرحمانية

على نفقة مكتبة الخانجى بالقاهرة

هذا الكتاب ذخيرة من ذخائر تلك اللغة الشريفة ، ودرّة يتيمة من كنوزها الغالية ، يمتزج فيه العلم بالأدب ويدلّ على ثقافة واسعة وعقل مفكر راجح التفكير مدقق عميق البحث والاستقصاء ، فيه من روح الأدب خفّته ومن عمق العلم واتساعه دقّته ورزانته . يبدأه المؤلف ببحث علميّ دقيق عن الأصوات وماهيتها يخيل اليك وأنت تقرأه انه عصريّ التأليف فتتملكك الدهشة ويستفزك الاعجاب الى تمجيد ذلك الكنز الغالى من أدبنا العظيم ، يثبت فيه أن الصوت معقول لأنه يدرك بحاسة السمع ولذلك فهو عرض وليس بجسم لأن الأجسام متماثلة والإدراك انما يتعلق بأخصّ صفات الذوات والا كانت الأجسام جميعها مدركة بحاسة السمع ، وان الأصوات تدرك فى محالها ولا تحتاج الى انتقال محالها وانتقالها وكونها اعراضاً مُنع من انتقالها .

ومن هذا البحث الدقيق ينتقل فى دقة الى الحروف ، فالكلام ، فاللغة ، ويمثل الاستقراء الذى بيّناه من بحثه فى الصوت يبحث فى مواضيع الكتاب المختلفة . ولننقل للقارىء

قطعةً من الفصل الذى عقـده عن الاستعارة فى الـكلام على شروط الفصاحة التى تستوجب وضع الألفاظ موضعها ، ومن هذه الشروط أن لا يكون فى الكلام تقديم وتأخير كقول الفرزدق :

وما مثـله فى الناس إلاّ مملـكاً أبو أمّـه حىٌّ أبوه يقاربُـهْ

أو كقوله أيضاً :

فليست خراسان التى كان خالدٌ بها أسدٌ إذ كان سيفاً أميرُها

أو مقلوباً كقوله أيضاً :

وأطلس عسّال وما كان صاحباً رفعت لنـارى موهناً فأتانى

وفى هذا الفصل يقول : « ومِن وَضْع الألفاظ موضعها حسن الاستعارة وقد حدّها أبو الحسن على بن عيسى الرمانى فقال : هى تعليق العبارة على غير ما وضعت فى أصل اللغة على جهة النقل للابانة ، وتفسير هذه الجملة أن قوله عزّ وجلّ : « واشتعل الرأس شيباً » استعارة لأن الاشتعال للنار ولم يوضع فى أصل اللغـة للشيب ، فلما نقل اليه بان المعنى لمـا اكتسبه من التشبيه لأن الشيب لمّا كان يأخـذ فى الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله الى غـير لونه الأول كان بمنزلة النار التى تشتعل فى الخشب وتسرى حتى تحيله الى غير حاله المتقدمة . فهـذا هو نقـل العبارة عن الحقيقة فى الوضع للبيان ولا بدّ من أن تـكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها لأن الحقيقة لو قامت مقامها كانت أولى لأنها الأصل والاستعارة الفرع ، وليس يخفى على المتأمل ان قوله عزّ اسمه « واشتعل الرأس شيباً » أبلغ من « كثر شيب الرأس » وهو حقيقة هذا المعنى . وقول امرىء القيس « قيد الاوابد » أبلغ من « مانع الاوابد عن جريها » والاصل فى ذلك ما أفاده التشبيه فى الاستعارة من البيان . فان قال قائل : فما الفرق بين الاستعارة والتشبيه اذا كان الامر على ما ذكرتم ؟! قيل : الفرق بينهما ما ذكره أبو الحسن وهو أن التشبيه على أصله لم يغير عنه فى الاستعمال وليس كذلك الاستعارة لأن مخرج الاستعارة مخرج ليست العبارة له فى أصل اللغة ، على أن الرماني قال : إن التشبيه فى الكلام بأداة التشبيه وهو يعنى كأن والكاف وماجرى مجراها ، وليس يقع الفرق عندى بين التشبيه والاستعارة بأداة التشبيه فقط ، لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ الموضوعة له ويكون حسناً مختاراً ولا يعده أحد فى جملة الاستعارة لخلوّه من آلة التشبيه . ومن هذا قول الشاعر :

سفرن بدوراً ، وانتقبن أهلّةً ومِسْنَ غصوناً ، والتفتنَ جآذرا

وقول الآخر :

وأسبلت لؤلؤاً من نرجسٍ فسقت ورداً ، وعضّت على العنّابِ بالبَرَدِ

وكلاهما تشبيه محض وليس باستعارة وإن لم يكن فيهما لفظ من ألفاظ التشبيه ، وانما الفرق بين الاستعارة والتشبيه ماحكيناه أوّلاً » .

هذا الفصل أنموذجٌ لما وضع عليه هذا الكتاب النفيس الذى يجب أن يطالعه الجيل الحديث فيجد ثروة طائلة لم يكن يظن لها وجوداً .

وقد ذُيِّلَ هذا الكتاب باستدراكات قيّمة قام بها صديقنا الفاضل الباحث المدقّق محمود محمد شاكر الذى أشار أيضاً بالحاق اعتراضات ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » عن كتاب « سر الفصاحة » به ؟

حسن كامل الصيرفى



تنبيه هام

يتشرف مراقب « ندوة الثقافة » باعلان جمهور الأدباء أنه فيما عدا المبادلات الصحيفية الضرورية وأعضاء مجلس (جمعية أبولو) لايستطيع الموافقة على إهداء هذه المجلة الى أحدٍ ما حرصاً على حياتها المادية . وهو من أجل ذلك يدعو جميع أنصارها الى شرائها أو المبادرة الى الاشتراك فيها . ولايمكن مخالفة هذه القاعدة بحالٍ من الأحوال ؟

محمد عبد الغفور

(مراقب ندوة الثقافة)

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣	١٣	كلتى الخطّتين	كلتا الخطتين
١١	٨	الأموال	الأموات
١٧	٧	الاستمتاع	الاستماع
٦٥	١٤	من حب	من هوى
٩٥	٢٠	الهوى غيرِ بالِ	الهوى غيرُ بالِ
١٠٣	٨	مَرُوعةٌ	مَرُوعةً
١٠٣	٢٣	نخذْ	نخذْ
١٠٧	٨	لقُدِدْتُ	لقُدِدْتَ
١٠٧	١٧	تؤبد	تؤبدني
١٢١	١٢	تُربكم	تُربكم
١٢٤	٩	فان ذلك	فإن ذلك
١٢٧	٢٢	الملهب	المهلّب
١٣٧	٢٣	القرينة	القرينةُ
١٤٢	٩	يُغلقِ	يغلقُ
١٤٧	١٣	صحفته	صحيفته
١٤٧	١٣	رهو	وهو
١٤٧	١٥	بوس	بؤس
١٥١	٨	القاسم	القاسم
١٥١	١٥	هذ	هذا
١٥٢	٦	خات	خاب
١٥٢	١٩	تجلّى	تجلَّى
١٥٣	٢٣	أن لا يبقى	أن يبقى
١٥٨	٤	قطْعن	قطّعن
١٦٣	٢٠	دوى	ذوى
٢١٥	١٣	نحجم	نحجم
٢١٦	٢٦	خصصتة	خصصته
٣٢٣	١	وليم كيتس	جون كيتس